الكاتب المصري
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها. يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٥٤٢٧٣-٤٧٨١٥-٤٥٠٣٤



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein





رمضان ١٣٦٦ أغسطس ١٩٤٧

السنة الثانية مجلد ٦ — عدد ٢٣

١

تقـــــــــدمة

هذه قصة من قصص فولتير التى عنى فيها ببعض المشكلات الفلسفية العليا التى شغلت الناس دائماً ، وشغلت الفرنسيين بنوع خاص أثناء القرن الثامن عشر ، وهى مسألة القضاء والقدر ، ومكان الانسان وإرادته منهما .

وما أريد أن أتعمق قضية القضاء والقدر فى نفسها ، ولا أن أتعمقها بالقياس إلى الفلاسفة والمثقفين الذين عاصروا فولتير ، ولا أن أتعمقها بالقياس إلى فولتير نفسه . فنحن فى فصل الصيف ، وهو فصل لا يحتمل مثل هذا البحث الذى يكلف الكاتب والقارئ من العناء مايحتاج إلى حياة رائقة شائقة يستحب فيها النشاط ولا يشق فيها الجهد الذهنى .

وأنا بعد ذلك لم أفكر فى تقديم هذه القصة إلى القراء فى هذا الفصل الشديد إلا لأريح الزملاء الذين يشاركون فى تحرير هذه المجلة ، والقراء الذين يتفضلون بقراءتها ، من تكليف أنفسهم عناء الجد فى الكتابة والجد فى القراءة أثناء فصل القيظ . والراحة حق للكتاب كما هى حق للقراء . ولكن الراحة ألوان وأشكال ، فهناك الراحة التى يستمتع بها الانسان حين لا يعمل شيئاً ، وهى راحة بغيضة لأنها عقيمة لا تنفع صاحبها ولا تنفع الناس . وهناك

الراحة التى يستمتع بها الانسان حين يتجه من العمل إلى ما يمتعه ويمتع الناس دون أن يشق على نفسه وعليهم ، وهذه هى الراحة الخصبة التى يدل لفظها على معناها دلالة صادقة ، والتى تعصم الانسان من الفراغ الفارغ الجدب الذى يميت القلوب ، وهى الراحة التى تلائم المثقفين من الكتاب والقراء جميعاً . فالرجل المثقف لا يبغض شيئاً كما يبغض الفراغ الجدب العقيم ، والراحة بالقياس إليه هى الانتقال من عمل مجهد مضن إلى عمل يجمع بين التسلية والمتاع . وإلى هذه الراحة قصدت حين فكرت فى أن أعفى محررى هذه المجلة من إنشاء بحوثهم المضنية ، وقراءها من العكوف على تفهم هذه البحوث ، وفى أن أعفى القراء فى الوقت نفسه من الفراغ الذى كانوا قد يضطرون إليه ساعات من نهار أو أياماً من شهر لو لم تقدم إليهم المجلة شيئاً ، وفى أن أترجم لهم آية أدبية رائعة يجدون فى قراءتها مايرضى حاجتهم إلى التفكير ، وحاجتهم إلى الراحة ، وحاجتهم إلى المتعة الأدبية الرفيعة فى وقت واحد . وأنا أحد الألوف أو الملايين من الناس — إن حسن ظننا بالناس — الذين يعجبون بأدب فولتير ، وينتهى بهم الاعجاب إلى الفتنة فى كثير من الأحيان ؛ لأن هذا الأدب لم يكتب له الخلود فحسب ، وإنما كتب له الخلود والشباب جميعاً . أو قل كتب له الخلود والشباب وملاءمة الحياة الانسانية على اختلاف العصور والبيئات والأجيال . ولن أقيم الدليل على شئ من ذلك ؛ فقد فرغ التاريخ الأدبى من إقامة الدليل عليه ، وهذه القصة نفسها ستدل عليه فى وضوح وجلاء وإقناع . وما أظن القراء يكلفوننى أن أوثرهم بشئ لا أوثر به نفسى ، أو أن أحتمل فى سبيلهم من الجهد والمشقة مالا أحب أن أحتمله فى سبيل نفسى .

وقد قرأت هذه القصة مرات توشك أن تبلغ عشراً ، وأكبر الظن أنى سأقرؤها وأقرؤها ، وقد وجدت فيها وسأجد فيها دائماً متعة العقل والقلب والذوق . فاذا قدمتها إلى القراء فقد آثرتهم بما أوثر به نفسى ، ولم يظلمك من سوى بينك وبين نفسه .

وقد كتب فولتير هذه القصة حين كاد القرن الثامن عشر ينتصف سنة ١٧٤٨ ، وتكلف فنوناً من الجهد والحيلة ليطبعها خارج فرنسا ولينشرها فى فرنسا بعد ذلك ، وليستأنف طبعها فى فرنسا . ولولا ضيق الوقت ، وأنى فى

باريس مشغول بما يشغل به الانسان حين يلم بباريس ليقيم فيها وقتاً قصيراً وليرحل عنها بعد ذلك — لولا هذا لقصصت على القراء من جهد فولتير وحيلته فى نشر هذه القصة ، ثم من جحوده إياها وتنصله منها مخافة أن تجر عليه شرا ، ما فيه كثير من الفكاهة والتسلية . ولكنى أرجو أن أعود إلى هذا كله فى وقت قريب .

وقد مر بفولتير طور من أطوار حياته الأدبية قرأ فيه ترجمة « ألف ليلة وليلة » ، فشاقته وراقته ووجهته إلى دراسة أمور الشرق ، فغرق فى هذه الدراسة إلى أذنيه ، وأخرج للناس قصصاً شرقية بارعة كثيرة ، منها هذه القصة وأرجو أن يتاح لى أن أترجم لقراء العربية طائفة من قصصه الشرقية الأخرى .

وبطل هذه القصة فتى من أهل بابل ، يسميه فولتير زديج ، ونسميه نحن صادقاً . وقد كدت أضع صادقاً مكان زديج فى القصة كلها ، ولكنى آثرت أن أحتفظ لفولتير باسم بطله كما أراد هو أن يكون . وهذا الفتى البابلى المثقف الممتاز قد اختلفت عليه الأحداث وتعرض لكثير من المحن فى وطنه أولاً وفى الأوطان التى تغرب فيها بعد ذلك ، فى مصر وفى بلاد العرب وفى جزيرة سرنديب وفى سوريا ، وكانت هذه الأحداث والمحن كلها مخالفة لمنطق الأشياء وطبيعة الحياة كما يراها الناس ؛ فقد كان يكافأ بالشر على الخير دائماً ، وكان يستقبل ذلك بالحيرة والاذعان وبالصبر والاحتمال ، حتى كوفئ آخر الأمر بما يلائم ذكاءه ووفاءه وثقافته وبراعته وصبره واحتماله ، فأصبح ملكاً على الدولة البابلية العظمى .

ففى القصة إذن عرض لمشكلة القضاء والقدر كما يتصورها الشرقيون ، أو كما خيل لفولتير أن الشرقيين يتصورونها . وفيها حل لهذه المشكلة على نحو ماتصوره الفلاسفة منذ أقدم العصور ، وهو هذا الحل الذى لا يحل شيئاً ، والذى يلخص فى أن الانسان أقصر عقلا وأكلّ ذهناً من أن يفهم حكمة الخالق الذى أبدع العالم ووضع له مايدبره من القوانين . فما عليه إلا أن يكد ويجد ويعمل الخير ما وسعه أن يعمل الخير ، ويجتنب الشر ما أتيح له أن يجتنب الشر ، ولا عليه بعد ذلك أن تسره الأيام أو تسوءه ، وأن تسخطه الأحداث أو ترضيه .

ولكن فى القصة أشياء أخرى غير هذا العرض الفلسفى لمشكلة القضاء

والقدر ، هو الذى أتاح لها الخلود ، وهو نقد الحياة الانسانية من ناحيتها السياسية والاجتماعية والخلقية ، والنفوذ بهذا النقد إلى صميم الطبيعة الانسانية، وما ينشأ عن احتمالها للحياة وتصرفها فيها من الخطوب . وواضح جداً أن فولتير قد اتخذ قصته هذه كلها وسيلة إلى نقد الحياة الأوربية عامة والحياة الفرنسية خاصة ؛ واتخذ مدينة بابل رمزاً لمدينة باريس ، وقصر بابل رمزاً لقصر باريس ومن أجل هذا أشفق من نسبة هذه القصة إليه . ومن أجل هذا فتن الفرنسيون بهذه القصة فى عصر فولتير ، ومازالوا يفتنون بها إلى الآن . ومن أجل هذا أعتقد أن قراء العربية سيجدون فى قراءة هذه القصة مايلائم حاجتهم إلى نقد الحياة الانسانية من ناحية السياسة والاقتصاد والاجتماع . فليقرءوا ، وليتفكروا ، وليتذكروا ، وليستريحوا إلى القراءة والتفكر والتذكر ، ثم لينتفعوا بعد ذلك بما يقرءون وما يتفكرون وما يتذكرون .

طه حسين

باريس ، يونيو ١٩٤٧

رسالة إهداء قصة زديج

إلى السلطانة شعرا

من سعدى

فى الثامن عشر من شهر شوال سنة ٨٣٧ هجرية

أى بهجة العيون ، وعذاب القلوب ، ونور العقول ، لن أقبل تراب قدميك لأنك لا تكادين تمشين ، أو لأنك إنما تمشين على بسط إيران أو على الورد . إليك أهدى هذه الترجمة لكتاب ألفه حكيم قديم أتيحت له سعادة الفراغ فسلى نفسه بانشاء قصة زديج ، وهى قصة تقول أكثر مما يظهر أنها تقول . وأتوسل إليك أن تقرئيها وتقدريها . فمع أنك فى ربيع الحياة ، ومع أن اللذات كلها تسعى إليك ، ومع أنك حسناء ، وأن ذكاءك يضيف إلى جمالك جمالا ، ومع أن الثناء عليك متصل منذ يقبل الليل إلى أن يسفر الصبح ، وأن من شأن هذا كله أن يباعد بينك وبين القصد ، فأنت على رغم هذا كله راجحة العقل مترفة الذوق ، وقد سمعتك تتحدثين فاذا أنت أرجح عقلا من الدراويش ذوى اللحى الطوال والقلانس المحددة . وأنت رفيقة لا تحبين الارتياب ، وأنت رقيقة دون أن تنتهى بك الرقة إلى الضعف . وأنت محسنة مع العلم بمواضع الاحسان . وأنت تحبين أصدقاءك ولا تتعرضين لعداوة أحد . وأنت لاتزينين عقلك ببهرج الغيبة ، وأنت لا تقولين السوء ولا تأتينه على كثرة مايدعوك إلى ذلك . ثم إن نفسك قد ظهرت لى دائماً نقية نقاء حسنك . بل إن لك حظا يسيراً من الفلسفة حملنى على أن أقدر أنك ستؤثرين أكثر من غيرك هذا الكتاب الذى ألفه حكيم .

وقد كتب أول الأمر فى اللغة الكلدانية التى لا تفهمينها أنت ولا أفهمها أنا ، ثم ترجم إلى العربية ليتلهى به السلطان المعروف أولوج بب . كان ذلك

فى الوقت الذى أخذ العرب والفرس فيه يكتبون « ألف ليلة وليلة » و « ألف نهار ونهار » . . . وكان أولوج يؤثر قراءة زديج على حين كانت السلطانات يؤثرن قراءة ألف وواحد . وكان أولوج الحكيم يقول لهن : « كيف تؤثرن قصصاً لا مغزى لها ولا تدل على شئ ؟ » وكن يجبنه : « لهذه العلة نفسها نحب هذه القصص . »

وأنا أزعم أنك لن تشبهين ، وأنك ستكونين أشبه شئ بأولوج . بل أنا أرجو أن أجد لحظة قصيرة أتحدث إليك أثناءها فيما يلذ العقل حين تسأمين الأحاديث العامة التى تشبه الألف والواحد ، على أنها أقل منها تسلية وتلهية. ولو قد كنت تالستريس التى عاشت أيام الاسكندر بن فيليب ، أو ملكة سبأ التى عاشت أيام سليمان ، لسعى إليك هذان الملكان .

وإنى أضرع إلى الفضيلة السماوية أن يكون نعيمك صفواً وحسنك باقياً، وسعادتك خالدة .

سعدى

الفصل الأول

الأعور

كان يعيش فى بابل أثناء حكم الملك مؤبدار، فتى يسمى زديج ، وقد فطر على طبع كريم زادته التربية كرماً . كان غنيا ، وكان فى ريعان الشباب ، ولكنه كان على ذلك يعرف كيف يكبح جماح شهواته ، لم يكن يتكلف ، ولم يكن يحرص على أن تكون له الكلمة الأخيرة دائماً ، وكان يعرف كيف يقدر ضعف الناس . وكان الناس من حوله يدهشون لأنهم لم يروه قط على ما كان يمتاز به من الذكاء يهزأ بهذه الجمل الغامضة المتنافرة الصاخبة ، ولا بهذه الغيبة الجريئة ، ولا بهذه القرارات الجاهلة ، ولا بهذه السخافات الفجة ، ولا بهذا الضجيج الباطل ، مما كان أهل بابل يسمونه حديثاً . وكان قد تعلم من الكتاب الأول من آثار زرادوشت أن الاعتداد بالنفس كرة نفختها الريح ؛ فأيسر ثقب فيها يخرج منها زوابع . وكان من أخص صفات زديج أنه لم يكن يفاخر بازدراء النساء أو اختلابهن . وكان كريماً لا يكره أن يحسن إلى الجاحدين ، يتبع فى ذلك هذه الحكمة البالغة من حكم زرادوشت : « إذا أكلت فأطعم الكلاب، وإن أغراها ذلك بعضك » . كان حكيما كأحسن ما يكون الحكيم ؛ لأنه كان حريصاً على معاشرة الحكماء . عرف علم القدماء من الكلدانيين ؛ فلم يكن يجهل أصول الطبيعة التى كانت تعرف فى ذلك الوقت ، وكان يعرف مما بعد الطبيعة ما عرف الناس فى كل عصر ، أى قليلا من الأشياء . وكان مقتنعاً كل الاقتناع بأن العام يشتمل على خمسة وستين وثلاث مئة يوم وربع يوم ، على رغم الفلسفة الجديدة فى عصره ، وبأن الشمس هى مركز الكون . وكان يؤثر الصمت فى غير غضب ولا ازدراء إذا قال له كبار الكهنة إنه سيئ العقيدة ، وإن من الخروج على الدولة أن يعتقد الانسان أن الشمس تدور حول نفسها ، وأن العام يأتلف من اثنى عشر شهراً .

وقد اعتقد زديج أن من الممكن أن يكون سعيداً ؛ فقد كان يملك ثروة ضخمة ، وكان له من أجل ذلك أصدقاء كثيرون ، وكان جيد الصحة ، رائق الوجه ، مستقيم العقل ، معتدل المزاج ، له قلب مخلص نبيل ، وكان يزمع التزوج من سمير التي كانت تمتاز من فتيات بابل جميعاً بموادها وجمالها وثروتها . وكان يعطفه عليها ميل نقي متين ، وكانت هي تحبه حباً عنيفاً ، وكانا يدنوان من اللحظة السعيدة التي كانت ستجمع بينهما ؛ ولكنهما ذات يوم كانا يتنزهان معاً عند باب من أبواب بابل في ظلال النخيل التي تزين شاطئ الفرات ، وإذا هما يريان رجالا يقبلون عليهما مسلحين بالسيوف والسهام ، وكانوا نفراً من أتباع الفتى أوركان قريب أحد الوزراء ، الذي خيل إليه متملقو قريبه الوزير أن كل شيء مباح له . ولم يكن على شيء من ظرف زديج أو خلقه ، ولكنه كان يرى نفسه خيراً منه ، وكان مغيظاً محنقاً لأنه لم يكن آثر عند الناس من زديج . وقد خيلت إليه هذه الغيرة التي لم تأته إلا من الغرور أنه يحب سمير . وقد اختطفها أتباعه وكانوا من العنف بحيث آذوها ببعض الجراحات ، وأسالوا بذلك دم حسناء كان منظرها وحده خليقاً أن يشيع الحنان في أنمار جبل إيمايوس ، وكانت تشق السماء بصيحات الشكاة ، وكانت تدعو : « أي زوجي العزيز إني أنتزع انتزاعاً من أحب الناس إلي » . لم يكن يشغلها ما كانت تتعرض له من الخطر لأنها لم تكن تفكر إلا في زديج العزيز . وقد دافع عنها زديج بما تتيح الشجاعة والحب من قوة ونجدة ، ولم يكن يعينه إلا عبدان من رقيقه وقد هزم المغيرين مع ذلك ، ورد سمير إلى دارها دامية مغشيا عليها ، فلما أفاقت وفتحت عينيها رأت محررها ، فقالت له : « أي زديج لقد كنت أحبك حب الزوج ، فأما الآن فاني أحبك كما أحب من أنا مدينة له بالشرف والحياة . » ولم ير الناس قط قلباً أشد تأثراً من قلب سمير ، ولا رأى الناس قط فما أشد سحراً يعرب عن شعور ساحر بألفاظ من نار يمليها الاعتراف بالجميل والاندفاع في الحب الذي يملؤه الحنان من فمها . وكان جرحها يسير ، فبرئت منه في وقت قصير . أما جرح زديج فكان أشد خطراً ، أصابه سهم قريباً من إحدى عينيه فأحدث جرحاً عميقاً . ولم تكن سمير تطلب إلى الآلهة إلا شفاء عشيقها . وكانت عيناها غارقتين في الدموع آناء الليل وأثناء النهار ، وكانت تنتظر الوقت الذي تستطيع فيه عينا

زديج أن تستمتعا بتلقى لحظها ؛ ولكن دملا ظهر فى العين الجريحة فأنذر بخطر عظيم . فذهب الرسل وأبعدوا حتى وصلوا إلى منفيس يدعون الطبيب العظيم هرميس الذى أقبل تحف به حاشية ضخمة . وقد فحص المريض ثم أعلن أنه سيفقد عينه . وتنبأ حتى باليوم والساعة اللذين ستقع فيهما هذه الكارثة ، قائلا : « لو قد أصاب الجرح عينه اليمنى لأبرأته ، أما جراحات العين اليسرى ، فليس لها شفاء . » وقد رثت بابل كلها لزديج ، وأعجبت مع ذلك بما امتاز به هرميس من علم عميق . ولم يمض يومان حتى انفجر الدمل من تلقاء نفسه وبرئ زديج برءاً تاما . هنالك ألف هرميس كتاباً أثبت فيه أنه لم يكن من حق زديج أن يظفر بالشفاء . ولم يقرأ زديج هذا الكتاب ، ولكنه لم يكد يستطيع الخروج من داره حتى تهيأ لزيارة تلك التى كانت معقد أمله فى السعادة ، والتى كان حريصاً من أجلها وحدها على أن تكون له عينان . وكانت سمير قد ذهبت إلى الريف منذ ثلاثة أيام . وقد عرف زديج فى طريقه إليها أن هذه الحسناء لم تكد تعلم أن حبيبها قد يفقد إحدى عينيه حتى أعلنت أنها لا تطيق العور وتزوجت أوركان من ليلتها تلك . فلما نمى إليه هذا الخبر خر مغشيا عليه وانتهى به الألم إلى حافة القبر ، وقد طالت علته ، ولكن العقل تغلب على الحزن ، بل وجد شيئاً من العزاء فى قسوة ما عانى من الآلام .

ثم قال لنفسه : « أما وقد لقيت هذا الجموح القاسى من هذه الفتاة التى نشأت فى القصر ، فسأتخذ لى زوجاً من بيئات الشعب » . فاختار أزورا وهى أحكم بنات المدينة وأحسنهن مولداً . فاقترن بها وعاش معها شهراً ملؤه العطف والحنان ، ولكنه لاحظ فيها شيئاً من خفة وميلا شديداً إلى اعتقاد أن أعظم الشبان حظا من الجمال هم أصحاب الحظ العظيم من الفضيلة والذكاء .

الفصل الثانى

الأنف

وذات يوم أقبلت أزورا من نزهتها ، غاضبة ، ثائرة ، صاخبة . قال لها : « ما بك يا زوجى العزيزة ؟ وما عسى أن يخرجك من طورك إلى هذا الحد ؟ » قالت : « واحسرتاه ! لو رأيت المنظر الذى رأيته لهاجك ما يهيجنى من الغضب . لقد ذهبت أعزى الأرملة الشابة خسرو التى أقامت منذ يومين اثنين قبراً لزوجها الشاب . وقد عاهدت الآلهة أثناء حزنها على أن تقيم على هذا القبر ما جرى ماء هذا الجدول قريباً منه . » قال زديج : « هذه امرأة كريمة قد أحبت زوجها حقا . » قالت أزورا : « آه لو عرفت ما كان يشغلها حين زرتها ! » « ماذا كان يشغلها أى أزورا الحسناء ؟ » « كانت تحول الجدول من مجراه » . ثم اندفعت فى لوم طويل وهجاء عنيف حتى ضاق زديج بهذه الفضيلة المتكلفة .

وكان له صديق اسمه كادور ، وكان من بين هؤلاء الشبان الذين كانت أزورا تؤثرهم لأنهم على حظ عظيم من الأمانة والكفاية ؛ فأظهره على جلية أمره ، واستوثق من وفائه بما أهدى إليه من هدايا قيمة . ومضت أزورا لتنفق عند إحدى صديقاتها فى الريف يومين ثم عادت فى اليوم الثالث إلى دارها . وهنالك أعلن إليها الخدم وهم ينتحبون ، أن زوجها قد مات فجاءة من ليلته تلك ، وأنهم لم يجرءوا على أن يحملوا إليها نبأ الفاجعة حيث كانت تستجم ، وأنهم قد فرغوا الآن من دفن زديج فى قبر أسرته هناك فى طرف الحديقة . فأجهشت بالبكاء وانتزعت شعرها ، وأقسمت لتقضين على نفسها بالموت . فلما كان المساء استأذنها كادور فى أن يتحدث إليها فبكيا معاً . فلما كان الغد بكيا أقل مما بكيا أمس وجلسا معاً إلى الغداء . وأسر إليها كادور أن صديقه أوصى إليه بمعظم ثروته ، ثم لمح لها بأنه يرى السعادة فى أن يقاسمها ثروته . هنالك بكت السيدة ثم غضبت ، ثم لانت ، وكان العشاء أطول من الغداء ، وكان الحديث

أدنى إلى الثقة ، وأثنت أزورا على الفقيد ، ولكنها اعترفت بأنه لم يخل من بعض العيوب التى برئ منها كادور .

وفى أثناء العشاء شكا كادور ألماً عنيفاً فى الطحال ، فقلقت السيدة واهتمت، وأحضرت كل ما كان عندها من طيب ، لعلها تجد من بينه ما يكون فيه شفاء للطحال ، وأسفت أشد الأسف لأن هرمس العظيم لم يطل الاقامة فى بابل ، بل تفضلت فلمست موضع الألم من جسم كادور . قالت له فى عطف : « أعرضة أنت لهذا الألم ؟ » قال كادور : « إنه ألم يدنينى غالباً من القبر ، وليس له فيما علمت إلا دواء واحد يستطيع أن يرفه على ، وهو أن يوضع على جنبى أنف رجل مات من أمسه . » قالت أزورا : « يا له من دواء غريب . » قال كادور : « ليس أغرب من تمائم السيد أرنو[1] التى يعالج بها الفالج » . وكان هذا الرد مضافاً إلى كفاية هذا الفتى مقنعاً آخر الأمر للسيدة . قالت : « وأخيراً إذا عبر زوجى من حياة أمس إلى حياة غد على جسر تشينافار ، فلن يرده الملك عزرائيل عن العبور لأن أنفه أقصر قليلا فى حياته الثانية منه فى حياته الأولى » . ثم أخذت موسى ومضت إلى قبر زوجها فسقته بدمعها ، ثم دنت تريد أن تجدع أنف زديج الذى رأته مستلقياً فى قبره . هنالك ينهض زديج حامياً أنفه باحدى يديه ، راداً الموسى باليد الأخرى ، قائلا : « سيدتى لا تلومى الأرملة خسرو فالتفكير فى جدع أنفى كالتفكير فى تحويل الجدول عن مجراه . »

---

(١) كان يعيش فى بابل لذلك الوقت رجل يسمى أرنو وكان يداوى الفالج ويتقيه بتمائم تعلق فى العنق .

الفصل الثالث

الـكلب والجواد

وقد تبين زديج ، كما هو مقرر فى كتاب زند ، أن الشهر الأول من شهور الزواج هو شهر العسل ، وأن الشهر الثانى هو شهر الشيح . ثم اضطر بعد قليل إلى أن يطلق أزورا التى أصبحت بغيضة العشرة وطاب السعادة فى درس الطبيعة . وكان يقول : « ليس أسعد من رجل فيلسوف يقرأ فى هذا الكتاب العظيم الذى نشره الله أمام أعيننا وهو الطبيعة . فالحقائق التى يستكشفها القارئ خالصة له ، يغذو بها نفسه ويرفعها ويعيش هادئاً مطمئنا ، لا يخاف من الناس شيئاً ولا يتعرض لأن تدنو منه زوجه الرفيقة به لتجدع أنفه » .

وقد امتلأ بهذه الخواطر ، واعتزل فى دار ريفية على شاطئ الفرات . وفى هذه الدار لم يكن يشغل نفسه بحساب ما يجرى تحت أقواس الجسور من الماء ، ولا ما يسقط من خط مكعب من المطر فى شهر الفأر أو فى شهر الشاة . ولم يكن يتخيل أن يتخذ الحرير من نسج العنكبوت أو الخزف من حطام القوارير ، ولكنه درس فى عناية خصائص الحيوان والنبات ، ولم يلبث أن انتهى إلى مقدار من الفطنة أظهره على ألف من الفروق بين أشياء لم يكن الناس يرون بينها إلا تشابهاً .

وذات يوم كان يمشى قريباً من غابة صغيرة ، فرأى خصيًّا من خصيان الملكة يسرع إليه ومن ورائه جماعة من الضباط يظهر عليهم قلق شديد ويعدون هنا وهناك كأنهم قوم حائرون يبحثون عن شئ عظيم الخطر قد فقدوه . قال الخصى الأول : « ألم تر كلب الملكة يا فتى ؟ » قال زديج فى تواضع : « إنما هى كلبة لا كلب » . أجاب الخصى الأول : « صدقت » . أضاف زديج : « إنها كلبة صغيرة جدًّا وقد ولدت منذ وقت قصير وهى تظلع برجلها الأمامية اليسرى ، ولها أذنان مسترفتان فى الطول » . قال الخصى الأول مجهداً : « فقد رأيتها

إذن ؟ » أجاب زديج : « لا ، لم أرها قط ، ولم أعلم قط أن للملكة كلبة » .

وفى الوقت نفسه بالضبط على نحو ما تجرى عليه المصادفات الغريبة أفلت أجمل خيل الملك من يد سائسه وهام فى سهل بابل . وأقبل كبير الساسة ومن ورائه أصحابه يبحث عن هذا الجواد فى لهفة تشبه لهفة الباحثين عن الكلبة . واتجه كبير الساسة إلى زديج يسأله : «أرأيت جواد الملك ؟» قال زديج : « إنه أحسن الجياد ركضاً ، إنه يرتفع فى الجو خمسة أقدام ، وإن حذاءه صغير جدا ، وله ذيل طوله ثلاثة أقدام ونصف قدم ، وشكائم لجامه من ذهب ،عياره ثلاثة وعشرون قيراطاً ، وسنابكه من فضة معيارها أحد عشر دانقاً » . قال كبير الساسة : « أى طريق سلك ؟ وأين يكون ؟ » قال زديج : « لم أره ولا سمعت به قط » .

فلم يشك كبير الساسة ولا الخصى الأول فى أن زديج قد سرق جواد الملك وكلبة الملكة ، فقاداه أمام جماعة القضاة الذين قضوا عليه بالجلد وبأن ينفق ما بقى من حياته فى سيبيريا . ولم يكد الحكم يصدر حتى وجد الباحثون الجواد والكلبة ، واضطر القضاة فى ألم إلى أن يغيروا حكمهم ، ولكنهم قضوا على زديج بغرامة قدرها أربع مئة مثقال من الذهب لإنكاره رؤية ما رأى . ولم يكن بد من أداء الغرامة أولاً ثم يؤذن له بعد ذلك بالدفاع عن نفسه أمام القضاة ، وقد دافع عن نفسه قائلا :

« يا نجوم العدل ، ويا كهوف المعرفة ، ويا مرايا الحقائق ، أنتم الذين لهم ثقل الرصاص ، وصلابة الحديد ، وإشراق الماس ، وكثير من خصال الذهب . أما وقد أذن لى بالحديث أمام هذه الجماعة الجليلة ، فانى أقسم بأورزماد ما رأيت قط الكلبة المحترمة التى نقدتها الملكة ، ولا الجواد المقدس الذى فقده ملك الملوك . وإليكم ما عرض لى : لقد كنت أتنزه قريباً من الغابة الصغيرة حيث رأيت الخصى الجليل والسائس العظيم البعيد الصوت ، فرأيت على الرمل أثر حيوان ، فتفرست فى يسر أنها آثار كلب صغير . ورأيت خطوطا خفافاً طوالا قد طبعت على مرتفعات صغار بين آثار الأرجل ، فعرفت أنها كلبة قد حملت أطباؤها فتدلت ، وأنها لذلك قد ولدت منذ أيام . ورأيت آثاراً فى اتجاه آخر مجاورة لآثار الرجلين الأماميتين ، فعرفت أن للكلبة أذنين مسرفتين فى الطول . ولاحظت أن الرمل أقل تأثراً باحدى الأرجل منه بالثلاث الأخرى فتبينت أن

كلبة ملكتنا الجليلة عرجاء شيئاًما إن أذن لى فى أن أتحدث على هذا النحو .

« أما جواد ملك الملوك ، فقد كنت أسعى فى طرق هذه الغابة ، فرأيت آثار السنابك لجواد ، ورأيتها كلها تقع على مسافات متساوية فقلت لنفسى هذا فرس كامل الركض . وكان تراب الشجر فى طريق عرضها سبعة أقدام قد زال عن يمين وشمال فى ارتفاع قدره ثلاثة أقدام ونصف قدم ، فقلت لنفسى : « إن لهذا الفرس ذيلا بهذا الطول قد أزال بخطواته التراب عن هذه الأشجار » . ورأيت تحت الشجر الذى يمد من أغصانه مهداً يرتفع خمسة أقدام ورقاً حديث عهد بالسقوط ، فعرفت أن هذا الجواد قد مس الغصون ، وأن ارتفاعه خمسة أقدام . أما شكيمته فيجب أن تكون من ذهب معياره ثلاثة وعشرون قيراطاً لأنه حك بها حجراً يقاس به الذهب وقد جربته . ثم عرفت آخر الأمر من آثار سنابكه على حجر من نوع آخر أن هذه السنابك من فضة معيارها أحد عشر دانقا » .

وقد أعجب القضاة جميعاً بدقة زديج وفطنته . وارتفع أمر هذه القصة إلى الملك والملكة ، فلم يكن للناس حديث فى القصر إلا زديج . ومع أن جماعة من الكهنة قد أشاروا بتحريقه لأنه ساحر ، فقد أمر الملك أن ترد إليه غرامة أربع مئة المثقال من الذهب التى فرضت عليه . وقد أقبل الكتاب والحجاب والنواب إلى داره فى موكب عظيم يحملون إليه المثاقيل أربع المئة ، ولم يحتجزوا منها إلا ثلاث مئة وثمانية وتسعين مثقالا على أنها نفقات القضاء ، وطلب خدامهم بعض العطاء .

وقد رأى زديج إلى أى خطر يتعرض الانسان حين يكون واسع العلم ، وعاهد نفسه على ألا يقول ما يرى حين تسنح له أول فرصة .

وقد سنحت هذه الفرصة بعد وقت قصير . فقد هرب سجين من سجن الدولة ومر من تحت نافذته . فلما سئل زديج أجاب بأنه لم ير شيئاً . ولكن الحجة أقيمت عليه أنه كان ينظر من نافذته ، وقضى عليه بغرامة قدرها خمس مئة مثقال من ذهب ، وشكر هو قضاته لأنهم رفقوا به ، كما جرت العادة فى بابل أن يرفع المحكوم عليهم شكرهم إلى القضاة . قال زديج لنفسه : « يا لله ! إن الانسان لخليق بالرثاء حين يتنزه فى غابة مرت بها كلبة الملكة وجواد الملك ، وإنه لخطر أن ينظر الانسان من نافذته ، وإنه لعسير أن يسعد الانسان فى هذه الحياة . »

الفصل الرابع

الحسود

أراد زديج أن يتعزى بالفلسفة والصداقة عما جر الحظ عليه من الآلام . وكانت له فى ضاحية من ضواحى بابل دار أنيقة قد زينت فى ذوق ، جمع فيها ألوان الفنون وضروب اللذات التى تليق بالمثقف الكريم . فكانت خزانة كتبه مفتوحة فى الصباح للعلماء جميعاً ، وكانت مائدته فى المساء ممدودة لكرام الرفاق . ولكنه لم يلبث أن تبين أن خطر العلماء شديد ؛ فقد أثيرت خصومة عنيفة حول قانون من قوانين زرادوشت كان يحظر أكل العنقاء . قال بعضهم : « كيف يحرم أكل العنقاء مع أنها غير موجودة ؟ » وقال بعضهم : « يجب أن تكون موجودة ما دام زرادوشت قد حرم أكلها » . وقد أراد زديج أن يوفق بين المختصمين فقال : « إذا وجدت العنقاء فلنجتنب أكلها ، وإذا لم توجد فليس إلى أكلها سبيل ، وكذلك نطيع جميعاً أمر زرادوشت » .

وكان هناك عالم قد ألف كتاباً من ثلاثة عشر مجلداً فى خصائص العنقاء ، وكان فوق ذلك من كبار أصحاب الكرامات ، فأسرع إلى عظيم من الكهنة يسمى ييبور ، وكان أشد الكهنة حمقاً ، وأشدهم من أجل ذلك تعصباً ، فاتهم أمامه زديج . وكان هذا الكاهن خليقاً أن يذيق زديج عذاب الهون تمجيداً للشمس ، وأن يتلو فى أثناء ذلك كتاب زرادوشت راضى القلب مطمئن الضمير . ولكن الصديق كادور — وصديق واحد خير من مئة قسيس — زار ييبور الشيخ وقال له : « لتحى الشمس ، ولتحى العنقاء ! احذر أن تعاقب زديج ، فهو قديس ، يملك فى داره ضروباً من العنقاء ، ولكنه لا يأكل منها . وخصمه الذى يتهمه صاحب بدعة يزعم أن للأرنب رجلا مشقوقة ، وأنها ليست حيواناً نجساً » . قال ييبور وهو يهز رأسه الأصلع : « هذا حسن فلنعذب زديج لأنه ذكر العنقاء بالسوء ، ولنعذب خصمه لسوء رأيه فى الأرنب » . وقد استطاع

كادور أن يصلح الأمر بواسطة غانية من غوانى الشرف كان قد أولدها ولداً ، وكانت لها مكانة ممتازة عند جماعة الكهنة ، ولم يعذب أحد . فجمجم لذلك بعض العلماء وتنبأوا بسقوط بابل . وصاح زديج : « ما قوام السعادة ؟ كل شئ فى هذا العالم يضطهدنى حتى الكائنات التى لا توجد » . ومقت العلماء وأزمع ألا يحيا إلا مع أصدقاء لذته .

ثم جعل يجمع فى داره أشرف الرجال وأجمل النساء من أهل بابل ، وكان يولم لهم ولائم أنيقة ، ويقوم بين يديها بفنون من الموسيقى وضروب من الأحاديث العذاب التى حرص على أن تبرأ من تكلف النكتة ؛ لأن هذا التكلف هو أقرب الطرق إلى إفساد الذوق و إفساد الصلات بين الناس . ولم يكن للغرور أثر فى تخير الأصدقاء ولا فى تخير أصناف الطعام ؛ لأنه كان يؤثر الحقائق على المظاهر ، فيظفر من الأكبار والتقدير بما لم يكن يريد .

وكان يقيم فى دار أمام داره أريماز ، رجل كان منظره البشع يصور سوء سريرته . كان الحسد يأكل قلبه والكبر ينفخ جسمه ، وكان على ذلك مملا لكثرة تكلفه فى الحديث . لم يتح له النجاح قط فكان يتعزى عن ذلك بالغيبة . وكان على ثرائه يجد أشق الجهد فى أن يجمع حوله المتملقين . وكانت ضوضاء العربات التى تدخل دار زديج كل مساء تؤذيه ، وكان الثناء على زديج يزيده حنقاً إلى حنق . وكان يلم بدار زديج أحياناً ويجلس إلى المائدة دون أن يدعى إليها ، فكان يفسد بمحضره بهجة الجماعة ، كما يقال عن بعض الطير البغيضة : إنها تفسد ما تمس من الطعام . وقد هم ذات يوم أن يولم تكريماً لإحدى السيدات ، ولكنه بدا له فلم يستقبلها وتناول العشاء عند زديج . وكان مرة أخرى يتحدث إلى زديج فى القصر وهما يسعيان ، فلقيهما أحد الوزراء ، وإذا هذا الوزير يدعو زديج إلى طعامه دون أن يدعو صاحبه . وأشد أنواع العداوة لا يعتمد غالباً على أسباب أعظم خطراً من هذه الأسباب التافهة . وقد أزمع هذا الرجل الذى كان يعرف فى بابل كلها بالحسود أن يهلك زديج لأن الناس كانوا يلقبونه بالسعيد . وفرص الإساءة تسنح مئة مرة فى اليوم على حين لا تسنح فرصة الاحسان إلا مرة واحدة فى العام ، كما يقول زرادوشت .

وقد زار الحسود ذات يوم زديج ، فلقيه يتنزه فى الحديقة مع صديقين وسيدة حسناء كان يوجه إليها بين حين وحين بعض الغزل لا يريد به أكثر من قوله .

وكان الحديث يدور حول حرب انتصر فيها الملك على أمير من عماله فى أركانيا . وكاد زديج قد أشاد بشجاعة الملك ، وجعل يثنى عليه ويثنى على هذه السيدة . وقد أخذ لويحة وكتب عليها أبياتاً أربعة دفعها إلى السيدة لتقرأها . فطاب إليه أصدقاؤه أن ينشدهم إياها ، فمنعه من ذلك التواضع أو شئ من الاعتداد بالنفس ، كما يكون عند الرجل الكريم . وكان يعلم أن الشعر المرتجل لا يلائم إلا من وجه إليه من الناس ، فحطم لويحته التى كتب فيها هذه الأبيات شطرين ، وألقاهما بين جماعة من الورد ، ثم طال البحث عنهما فى غير غناء . وقد تلبث الحسود فى الحديقة بعد انصراف الجماعة ، وألح فى البحث حتى وجد شطراً من شطرى اللويحة . وكانت اللويحة قد حطمت بحيث أصبح كل شطر من أشطر الأبيات مستقلا يدل على معنى خاص . وأرادت المصادفة الغريبة أن تدل هذه الأبيات المشطورة القصار على معنى يصور أبشع هجاء للملك ؛ فقد كان يقرأ فيها :

بأقبح جريمة
ثبت على العرش
من هو فى السلم العام
عدو وحيد

وقد سعد الحسود لأول مرة فى حياته ؛ فبين يديه ما يمكنه من أن يهلك رجلا خيراً محبباً إلى النفوس . وقد ملأته هذه السعادة القاسية ، فأوصل إلى الملك هذا الهجاء الذى خطته يد زديج ، وإذا زديج يلقى فى السجن ومعه السيدة وصديقاه . ثم نظرت قضيته على عجل دون ان يؤذن له بالدفاع عن نفسه . فلما أحضر ليسمع الحكم عليه مر فى طريقه بالحسود الذى قال له إن شعره سخيف لا قيمة له . ولم يكن زديج يزعم أنه شاعر مجيد ، ولكنه كان غارقاً فى اليأس لأخذه بجريمة هجاء الملك ، ولأنه يرى سيدة وصديقين يظلون فى السجن مع أنهم لم يقترفوا إثماً . ولكن كذلك كانت قوانين بابل . وقد سيق إلى العذاب ، فجعل يسلك طريقه بين جماعة من المستطلعين لا يستطيع أحد منهم أن يظهر رثاء له أو عطفاً عليه ، وإنما كانوا يسرعون إليه لينظروا فى وجهه وليتبينوا أيستقبل الموت مبتسما له ، مرتاحاً إليه . وكانت أسرته

وحدها حزينة لأنه لم يترك لها ميراثاً ؛ إذ كانت ثلاثة أرباع ثروته مصادرة لخزانة الملك وربعها مصادراً مكافأة للحسود .

وبينما كان زديج يتهيأ للقاء الموت طارت ببغاء الملك من إحدى شرفات القصر إلى حديقة زديج فوقعت على جماعة من الورد . وهناك كانت خوخة قد سقطت من إحدى الأشجار فأصابت قطعة من لويحة من لويحات الكتابة فلصقت بها . واحتملت الببغاء الخوخة وما لصق بها ، ومضت حتى وضعت ذلك فى حجر الملك . وكان الملك طلعة ، فقرأ فى هذه القطعة من اللويحة كلمات لاتدل على شئ ولكنها تشبه أن تكون قوافى لبعض الشعر ، وكان يحب الشعر . وللملوك الذين يحبون الشعر حظ من سعة الحيلة ، فدعته مغامرة ببغائه إلى التفكير . وكانت الملكة تذكر ما كتب على القطعة التى حملها حاسد زديج فأمرت باحضارها . فعورضت القطعتان ، وتبين أنهما تتفقان اتفاقاً تاما ، وهنالك قرئت الأبيات كما كتبها زديج ، فاذا هى كما يأتى :

لقد رأيت الأرض تملؤها اضطراباً أعظم الجرائم
وقد ثبت الملك على العرش قادراً على ضبط كل شئ
وإذا وسعت السلم كافة الناس فالحب وحده هو الذى يثير الحرب
وهو العدو الوحيد الذى يجب أن يخاف .

وما هى إلا أن يأمر الملك باحضار زديج ليمثل بين يديه ، وبأن يخرج من السجن صاحباه والسيدة الجميلة . فلما مثل زديج بين يدى الملك والملكة قبل الأرض بين أيديهما ، وتوسل إليهما أن يغفرا له لهذه الأبيات الرديئة التى اقترفها ، وقد تحدث فى ظرف ولباقة وذكاء ، فرغب الملك والملكة فى أن يرياه . وقد عاد فازداد إعجابهما به ، وقد أهديت إليه ثروة الحسود الذى كاد له بغير الحق . ولكن زديج رد هذه الثروة إلى الحسود الذى لم يتأثر إلا بأن ثروته قد ردت إليه . وقد جعل رضا الملك عن زديج يزداد من يوم إلى يوم ؛ فكان يحضره كل لذاته ويشاوره فى كل أعماله . وجعلت الملكة منذ ذلك الوقت تنظر إليه فى شئ من العطف كان خليقاً أن يصبح خطراً عليها وعلى زوجها الملك العظيم وعلى زديج وعلى الدولة كلها . وجعل زديج يظن أن ليس من العسير أن يكون الانسان سعيداً .

الفصل الخامس

الكريم

وقد أقبل العيد الذى كان يقام فى بابل كل خمسة أعوام . وكانت العادة قد جرت بأن يعلن فى بابل كل خمس سنين اسم الرجل الذى أتى عملا يدل على الكرم والفضل . وكان العظماء والكهان هم القضاة . وكان محافظ المدينة يعرض أمام القضاة أحسن ما أبلى الناس من بلاء أثناء ولايته للحكم. ثم يتداول القضاة وينطق الملك بالحكم . وكان الناس يأتون إلى هذا الحفل من أقصى الأرض . وكان الفائز يتلقى من يد الملك كأساً من الذهب الخالص مرصعة بنفيس الجوهر ، ويسمع من الملك هذه الكلمات : « تقبل جائزة الكرم هذه وليكثر الله بين رعيتى من أمثالك » .

فلما كان يوم العيد ظهر الملك على عرشه يحف به وجوه الدولة وكهانها ونواب الأقاليم الذين أقبلوا يشهدون هذا اليوم الذى لا يكتسب فيه المجد بسباق الخيل ولا باصطراع المصطرعين ، وإنما يكتسب بالاستباق إلى الفضيلة والتنافس فى الخير . وقد عرض محافظ المدينة بصوت جهورى الأعمال النبيلة التى تؤهل أصحابها لهذه الجائزة السامية. فلم يذكر كبر النفس الذى أتاح لزديج أن يرد على الحسود ثروته، فلم يكن هذا العمل من الأعمال التى تهيئ صاحبها للاشتراك فى هذه المسابقة.

وإنما قدم أول الأمر اسم قاض دفع فى بعض القضايا إلى خطأ لم يكن مسئولا عنه ، فنزل عن ثروته كلها للخصم الذى خسر قضيته بهذا الخطأ ، وكانت ثروة القاضى تعدل ماخسر الخصم .

ثم قدم بعد ذلك اسم فتى كان يحب فتاة أشد الحب ، ويريد أن يتخذها له زوجا ، ولكنه علم أن لها محباً يكاد يهلكه الحب فنزل له عنها . ثم لم يكتف بهذه المكرمة وإنما أدى المهر من ماله الخاص .

ثم قدم بعد ذلك اسم جندى أبلى فى حرب هيركانيا بلاء حسناً يتضاءل بالقياس إليه بلاء سابقيه ؛ فقد اختطف جنديان من جيش العدو خليلته وكان

يدافع عنها ليستردها منهما ، وإذا النبأ يصل إليه بأن جنوداً آخرين من جيش العدو يريدون أن يختطفوا أمه غير بعيد منه ، فترك خليلته باكياً وأسرع فاستنقذ أمه ، ثم عاد إلى خليلته فوجدها تحتضر . فهم أن يقتل نفسه حزناً ، ولكن أمه بينت له أنه وحيدها وليس لها عائل غيره ، فكان له من الشجاعة ما أعانه على احتمال الحياة فى سبيل أمه .

وكان القضاة يميلون إلى هذا الجندى . ولكن الملك قال : « إن بلاءه وبلاء من سبقه حسن ، ولكنه لا يدهشنى ، أما زديج فقد أبلى أحسن بلاء راعنى ؛ فقد غضبت منذ أيام على وزيرى وعلى أثيرى كوريب ، وكنت ألومه فى عنف شديد ، وكانت الحاشية كلها تؤكد لى أنى كنت به رفيقاً ، وكانوا جميعاً يستبقون أيهم يكون أشد إساءة فى القول إلى كوريب . فسألت زديج عن رأيه فيه ، فاذا هو يجترئ فيثنى عليه . وأعترف أنى قرأت فى تاريخنا أن الناس كثيراً ما أصلحوا خطأهم بانفاق أموالهم كلها ، وأنهم كثيراً مانزلوا عن خليلاتهم وآثروا أمهاتهم على عشيقاتهم ، ولكنى لم أقرأ قط أن رجلا من أهل القصر استطاع أن يثنى على وزير مقال قد غضب عليه ملكه غضباً شديداً. وإنى أمنح كل واحد من هؤلاء الأبطال عشرين ألف دينار ذهباً خالصاً ، ولكنى أخص بالكأس زديج . »

قال زديج :

— مولاى ! إن جلالتك وحدها هى التى تستحق الجائزة ؛ لأنها أتت عملا لا نظير له فى الروعة ، فأنت يا مولاى ملك ، وأنت مع ذلك لم تغضب على عبدك حين اجترأ على أن يعارضك وأنت مغيظ .

وقد أعجب الناس بالملك وبزديج . وتلقى القاضى الذى نزل عن ثروته ، والعاشق الذى زوج خليلته من صديقه ، والجندى الذى آثر سلامة أمه على عشيقته هدايا الملك ، ورأوا أسماءهم تسجل فى سجل الكرماء ، وتلقى زديج الكأس . واشتهر الملك بأنه ملك عظيم خير ، ولكنه لم يحتفظ بهذه الشهرة وقتاً طويلا . واختص هذا اليوم بأعياد أطول مما قرر القانون . وما زال النـاس يذكرون هذه الأعيـاد فى آسيا إلى الآن . وكان زديج يقـول :« إنى إذن لسعيد . » ولكنه كان مخطئاً .

الفصل السادس

الوزير

وقد فقد الملك وزيره الأكبر، فاختار زديج ليشغل هذا المنصب، وصفقت لهذا الاختيار حسان بابل جميعاً. فلم تعرف الدولة منذ إنشائها وزيراً له هذا الشباب. وحزن رجال القصر جميعاً حتى انتهى الأمر بالحسود إلى السل الذى انتهى به إلى أن يبصق دماً، وورم أنفه ورماً مروعاً. أما زديج فقد رفع شكره إلى الملك والملكة ثم ذهب ليهدى شكره إلى الببغاء قائلا لها: «أيها الطائر الجميل! لقد أنقذت حياتى وجعلتنى وزيراً أكبر. ما أكثر ما أساءت إلىّ كلبة الملكة وجواد الملك، وما أكثر ماقدمت إلىّ أنت من الاحسان! وكذلك يتعلق مصير الناس بأوهى الأسباب.» ثم أضاف إلى ذلك قوله: «ولكن هذه السعادة الغريبة خليقة أن يكون أمدها قصيراً.» قالت الببغاء: «نعم!» فوجم زديج لهذا الجواب، ولكنه على ذلك كان عالماً بطبائع الأشياء والأحياء، وكان يعرف أن الببغاء لم تطلع قط على علم الغيب، فلم يلبث أن عاد إلى الثقة والاطمئنان، ونهض بأعباء الوزارة على أحسن وجه ممكن.

فأشعر الناس جميعاً بما للقوانين من سلطان مقدس، ولم يشعر أحداً ما بثقل كبريائه الخاصة، ولم يفرض رأيه على الديوان، وإنما كان لكل وزير أن يجهر برأيه دون أن يسوءه أو يتعرض لسخطه. وكان إذا جلس للقضاء لم يقض هو، وإنما كان يترك القضاء للقانون، ولكنه كان يلطف القانون إن آنس فيه قسوة أو غلوًّا فى العنف. وكان إذا حدثت واقعة لم يعرض لها القانون قضى فيها بالعدل حتى كأنه زرادوشت.

فمنه تعلمت الأمم هذا المبدأ الخطير، وهو أن إنقاذ المجرم خير من الحكم على البرىء. وكان يعتقد أن القوانين شرعت لإغاثة المواطنين كما شرعت لإخافتهم. وكان يمتاز بالحرص على إظهار الحقيقة التى يحرص الناس كلهم على إخفائها.

ولم يكد ينهض بأعباء الحكم حتى انتفع فيه بذكائه كله . وكان تاجر كبير من تجار بابل قد قضى نحبه فى الهند ، وكان قد قسم ثروته بين ابنيه قسمة عدلا ، على أن يزوجا أختهما ، ثم ترك ثلاثين ألف دينار ذهباً على أن تكون منحة لأى ابنيه يظهر أنه أشد حبا لأبيه . فأما الابن الأكبر فاتخذ لأبيه قبراً ؛ وأما ابنه الأصغر فزاد من نصيبه فى الميراث مهر أخته ، وكان الناس يقولون : « إن الابن الأكبر مؤثر أباه على حين أن الابن الأصغر يؤثر أخته ، فللابن الأكبر يجب أن تؤول هذه الثلاثون ألفاً من الدنانير . »

أما زديج فدعاهما إلى المثول بين يديه واحداً فى إثر صاحبه . وقال للأكبر: « إن أباك لم يمت ، وإنما برئ من علته الأخيرة وعاد إلى بابل . » قال الفتى : « الحمد لله ولكن هذا القبر قد كلفنى كثيراً من المال ! » قال زديج للابن الأصغر ما قاله لأخيه فقال : « الحمد لله لأردَّن إلى أبى نصيبى من الميراث ، ولكنى أود لو ترك لأختى ماقدمت إليها منه . » قال زديج : « لن ترد شيئاً وستساق إليك الثلاثون ألفاً من الدنانير ، فأنت الذى تؤثر أباك بالحب . »

وكانت فتاة عظيمة الثراء قد وعدت كاهنين بالزواج ، وبعد أن تثقفت أشهراً على الكاهنين أصبحت حاملا ذات يوم . وكان كلا الكاهنين يريد أن يتخذها لنفسه زوجاً . أما هى فأعلنت أنها لن تختار منهما إلا الذى أتاح لها أن تمنح الدولة مواطناً جديداً . قال أحدهما : « فأنا الذى أتاح لها هذا المواطن . » قال الآخر : « بل أنا الذى أتيحت له هذه المزية . » قالت الفتاة: « فانى أختار منكما أيكما يكون أقدر على أن يربِّى الطفل تربية ممتازة . » وقد ولدت غلاماً وتنافس الكاهنان فى تربيته . وقد رفعت القضية إلى زديج ، فدعا الكاهنين وقال لأولهما: «ماذا تريد أن تعلم الصبى ؟ » قال الكاهن : « سأعلمه الخطابة والمنطق والفلك وخصائص الشياطين ، وسأعلمه حقيقة الجوهر والعرض والمجرد والمركب ، والوحدات التى يتألف منها الكون والنظام الذى سبق به القضاء . » وقال الكاهن الآخر :«سأحاول أن أجعله عدلا خليقاً بأن يكون له أصدقاء . » قال له زديج : « لتكن أباه أو لاتكن ، فأنت الذى سيتزوج أمه» .

وكانت الشكوى ترتفع إلى القصر فى كل يوم من حاكم ميديا ، وكان يسمى ايراكس ؛ فقد كان سيداً عظيما كريم الطبع قد أفسده الغرور وحب اللذة ، وكان لا يكاد يحتمل أن يتحدث إليه الناس ولا يسمح بأن يخالفه

مخالف . ولم يكن الطاووس أشد منه غروراً ، ولم يكن الحمام أشد منه إيثارا للذة ، ولم تكن السلحفاة أشد منه حباً للكسل . ولم يكن ينعم إلا بالمجد الباطل واللذة الكاذبة . وقد حاول زديج إصلاحه .

فأرسل إليه من قبل الملك موسيقياً بارعاً يصحبه اثنا عشر من المغنين وأربعة وعشرون من الموقعين ، وأرسل إليه مع هؤلاء قيما على الخدمة ومعه ستة من السعاة وأربعة من الحجاب لم يكن يباح لهم أن يتركوه ؛ وصدر أمر الملك باتباع النظام الآتى دون مخالفة عنه أو خروج عليه . وإليك كيف نفذ هذا النظام .

لم يكد إيراكس يفيق من نومه فى اليوم الأول حتى دخل عليه أستاذ الموسيقى ومعه المغنون والموقعون ، فغنوا له أغنية استمرت ساعتين ، وكان يتردد فيها كل ثلاث دقائق هذا الكلام :

ما أحسن بلاءه
ما أجمله ! ما أعظم خطره !
ما أجدر مولانا
بأن يرضى عن نفسه !

فلما فرغ المغنون تقدم أحد الحجاب فألقى بين يديه خطبة استمرت ثلاثة أرباع الساعة لم تشتمل إلا على الثناء عليه بما ليس فيه . فلما انتهت الخطبة قيد إلى المائدة على نغم الموسيقى وقد اتصل الغداء ثلاث ساعات لم يكن يهم فيها بالكلام حتى يقول الحاجب الأول : « لن يقول إلا صواباً . » ولا يكاد ينطق بكلمات أربع حتى يقول الحاجب الثانى : « لقد أصاب . » ويضحك الحاجبان الآخران مما قال أو مما كان يمكن أن يقول . فاذا فرغ من غدائه أعيدت عليه الأغنية .

وقد وجد فى يومه الأول لذة أى لذة ، واعتقد أن الملك إنما أراد أن يعطيه حقه من التكريم ، فلما كان اليوم الثانى وجد فيه من اللذة أقل مما وجد فى اليوم الأول . فلما كان اليوم الثالث ضاق به شيئاً . فلما كان اليوم الرابع لم يستطع له احتمالا . فلما كان اليوم الخامس وجد فيه عذاباً شديداً . ثم ضاق آخر الأمر بكثرة ما كان يقال له من أنه خليق أن يرضى عن نفسه ، وبكثرة ما كان يقال له لقد أصاب ، وبكثرة ما كان يلقى بين يديه من الخطب

فى ساعة معينة من كل يوم . فكتب إلى القصر يتوسل إلى الملك فى أن يتفضل فيسترد حجابه ومغنيه وخدامه ، ويعد بأنه سيحرص على أن يكون فى مستقبل أيامه قليل الغرور كثير النشاط ، ثم أعرض عن الثناء الباطل واللذة الكاذبة وأصبح سعيداً . « فان اللذة المتصلة ليست من اللـذة فى شئ » ، كما يقول الكتاب المقدس للبراهمة .

الفصل السابع

الاستقبالات والخصومات

وكذلك كان زديج يظهر فى كل يوم دقة ذكائه وكرم نفسه . وكان الناس يعجبون به ، وكانوا مع ذلك يحبونه ، ويرون أنه أسعد الناس ، وكان اسمه يملأ الدولة كلها ، وكان النساء جميعاً ينظرن إليه ، وكان المواطنون جميعاً يثنون على عدله ، وكان العلماء يرون أن مكانه منهم مكان الوحى ، وكان الكهنة أنفسهم يعترفون بأنه يحيط من العلم بأكثر مما يحيط به عظيمهم الشيخ يبيور . وكان العهد بعيداً بقضية العنقاء . ولم يكن الناس يقبلون إلا ما كان زديج يرى أنه خليق بالقبول .

وكانت فى بابل خصومة عظيمة قديمة قد اتصلت منذ خمسة عشر قرناً ، وانقسمت لها الدولة إلى فريقين متعاديين . أحدهما كان يرى ألا يجوز أن يتخطى الداخل عتبة المعبد لمترا إلا بقدمه اليسرى ، والآخر كان يمقت هذه العادة أشد المقت ، ولا يدخل المعبد إلا برجله اليمنى . وجعل الناس ينتظرون يوم العيد الأكبر للنار المقدسة ليروا أى المذهبين يؤثر زديج . وكانت أعين العالم كله تتجه إلى رجليه ، وكانت المدينة كلها مضطربة قلقة . ولكن زديج دخل المعبد وثباً فلم يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ثم بين للناس فى خطبة رائعة أن إله السماء والأرض الذى لا يختص أحداً بفضله لا يؤثر قدماً على قدم سواء أكانت اليمنى أو اليسرى .

وقد زعم الحسود وامرأته أن خطبته لم تشتمل على مقدار ملائم من المجاز

وأنه لم يرقص فيها التلال والجبال . وكانا يقولان إن خطبته جافة لا براعة فيها ، فليس يرى فيها البحر هارباً ولا النجوم متساقطة ولا الشمس ذائبة كما يذوب الشمع ، فليس له الأسلوب الشرقي الجميل . أما زديج فكان يكفيه أن يكون أسلوبه ملائماً لعقله . وقد سار الناس كلهم على أثره ، لا لأنه كان على الصراط المستقيم ، ولا لأنه كان حريصاً على موافقة العقل ، بل لأنه كان الوزير الأول .

وهو كذلك قد قضى قضاء حسناً بين الكهنة البيض والكهنة السود . وكان البيض يزعمون أن من الاثم أن يتجه الناس إلى المشرق إذا صلوا فى الشتاء ، وكان السود يؤكدون أن الله يكره الذين يصلون إلى المغرب فى الصيف ، فأمر زديج أن يولى الناس وجوههم فى الصلاة حيث يشاءون . وقد نظم وقته ، فكان يصرف الأعمال الخاصة والعامة فى الصباح ، وينفق بقية اليوم فى تجميل بابل . وكان يأمر بتمثيل المأساة التى تبكى والملهاة التى تضحك . وقد أحيا هذه العادة بعد أن ماتت لأنه كان عظيم الحظ من الذوق . ولم يكن يزعم أنه يعرف الفن خيراً من أهله ، وإنما كان يكافئ أصحاب الفن بالمال وأنواع التمييز ولا يخفى الغيرة من تفوقهم . فاذا كان المساء فرغ لتسلية الملك والملكة خاصة . وكان الملك يسميه الوزير الأكبر ، وكانت الملكة تسميه الوزير الظريف ، وكانا يضيقان كلاهما أن الدولة كانت تتعرض بفقده لشر عظيم .

ولم يتح لوزير قط أن يستقبل السيدات بمقدار ما كان يستقبلهن . وكان أكثر من يسعين إليه يعرضن عليه أموراً لا تعنيهن ليحدثن بينهن وبينه أموراً ذات بال . وكانت زوج الحسود منهن فى الطليعة ، وقد أقسمت له بمترا وبالزند أفستا وبالنار المقدسة ، أنها كرهت سيرة زوجها معه ، ثم أسرت إليه بعد ذلك أن هذا الزوج غيور عنيف ، ثم لمحت له بأن الآلهة يعاقبونه على ذلك فيحرمونه الاستمتاع بهذه النار المقدسة التى ترفع الناس إلى مكان الخالدين . ثم أسقطت رباط جوربها وقد التقطه زديج فى أدبه المألوف ، ولكنه لم يرده إلى موضعه من ساق السيدة . وكانت هذه الغلطة — إن صح أن تكون غلطة — مصدراً لخطوب منكرة شداد . لم يفكر زديج فى هذه الغلطة ، ولكن امرأة الحسود أطالت فيها التفكير .

وجعلت سيدات أخر يزرنه فى كل يوم . وقد سجل التاريخ السرى لمدينة بابل أنه هفا هفوة واحدة ، ولكنه دهش أشد الدهش لأنه لم يجد فى هذه

الهفوة لذة ، ولأنه كان يقبل خليلته لاهياً عنها . وكانت المرأة التى ميزها بهفوته هــذه وهو لا يكاد يلتفت إليهـا وصيفة من وصائف الملكة استارتيه . وكانت هذه البابلية الرقيقة تقول لنفسها ملتمسة العزاء : «يجب أن يكون هذا الرجل كثير الهموم إلى حد أنه يفكر فى همومه أثناء الحب .» وقد أفلتت من زديج فى الساعة التى لا يقول الناس فيها شيئاً أو لا يقولون فيها إلا ألفاظاً مأثورة كلمة نطق بها عن غير وعى ، وهى :« الملكة » . فظنت البابلية أنه قد ثاب إلى نفسه آخر الأمر ، وأنه يدعوها ملكته . ولكن زديج مضى فى ذهوله حتى نطق باسم الملكة استارتيه . وخيل إلى السيدة فى هذه اللحظة السعيدة أنه كان يقول لها إنها أجمل من الملكة استارتيه . وقد خرجت من قصر زديج ومعها طرف كثيرة . فما هى إلا أن تزور زوج الحسود وكانت لها صديقاً حميماً، فتقص عليها مغامرتها تلك . وتغار هذه لأن زديج آثر عليها صاحبتها . قالت : « إنه لم يتنزل حتى إلى أن يضع لى رباط الجورب هذا فى موضعه ، ولقد كرهت هذا الرباط منذ ذلك اليوم . » قالت السيدة السعيدة للسيدة الحسود : « إنك لتتخذين لجواربك نفس الرباط الذى تتخذه الملكة . لعلكما تشتريانه من صانعة واحدة. » ففكرت زوج الحسود طويلا ولم تقل شيئاً ،ثم أظهرت زوجها الحسود على القصة كلها .

وكان زديج فى أثناء ذلك يلاحظ أن شيئاً من الذهول يصيبه حين يقضى وحين يستقبل ، ولم يكن يعرف كيف يعلل هذا الذهول .

وقد رأى فيما يرى النائم كأنه كان مستلقياً على عشب جاف فيه شوكات تؤذيه . ثم كأنه بعد ذلك قد كان نائماً على سرير من الورد ، فخرج منه ثعبان لدغ موضع القلب منه بلسانه الدقيق الحاد المسموم . وكان يقول لنفسه : « واحسرتاه ! لقد نمت طويلا على العشب الشائك ، ثم هأنذا الآن أنام على سرير من الورد ، فما عسى أن يكون هذا الثعبان ؟ »

الفصل الثامن

الغيرة

وقد جاء شقاء زديج من سعادته نفسها ومن كفايته بنوع خاص . فقد كان يخلو فى كل يوم إلى الملك فيتحدث إليه وإلى زوجته الجليلة أستارتيه . كان سحر حديثه يزداد لحرصه على أن يثير الاعجاب . ومكان هذا الحرص من النفوس مكان الزينة من الأجسام . وقد أثر شبابه وظرفه فى نفس استارتيه تأثيراً لم تفطن له أول الأمر ، فجعل حبها ينمو فى ظل البراءة . وكانت استارتيه تستمتع غير متحفظة بالنظر والاستماع إلى فتى عزيز على زوجها الملك وأثير عند الدولة كلها . ولم تكن تكف عن الثناء عليه عند الملك والتحدث عنه إلى وصائفها اللاتى كن يضفن إطراء إلى إطراء . وكان كل شئ يعين على أن ينفذ فى قلبها ذلك السهم الذى لم تكن تشعر به . وكانت تهدى إلى زديج من الهدايا ما يدل على الميل أكثر مما كانت تقدر ، وكانت تظن أنها إنما تتحدث إليه كما تتحدث الملكة إلى وزير قد رضيت عن عمله ، على حين أنها إنما كانت تتحدث إليه حديث امرأة رقيقة مرهفة الحس .

وكانت أستارتيه أروع جمالا وأبرع حسناً من سمير تلك التى كانت تكره العور ومن تلك المرأة التى كادت تجدع أنف زوجها. وما هى إلا أن يثير تبسط أستارتيه مع زديج ، وحديثها الرقيق الذى أخذ يسبغ على وجهها شيئاً من حمرة ، ولحظها الذى كانت تريد أن تحوله ولكنه كان يستقر على لحظه هو فيذكى فى قلبه ناراً دهش لها دهشاً شديداً . وقد قاوم ، واستعان بالفلسفة التى كانت تعينه كل ما التمس عندها العون ، ولكنها فى هذه المرة لم تمدده إلا بنور المعرفة دون أن تخفف من وجده شيئاً . وكان الواجب وعرفان الجميل وجلال الملك، كل أولئك يتمثل له كأنه آلهة الانتقام . كان يقاوم وكان ينتصر . ولكن هذا الانتصار الذى كان يجب أن يظفر به كل ساعة كان يكلفه كثيراً من

من الأنين والدموع . وقد أصبح لا يجرؤ على أن يتحدث إلى الملكة فى تلك الحرية الحلوة التى كانت تسحرهما جميعاً . وكان إذا لقى الملكة غشيت عينيه سحابة وتقطع حديثه واختلط ، فكان يغض بصره ، فاذا تحول لحظه على رغمه نحو الملكة رأى عينيها يبللهما الدمع وتنطلق منهما فى الوقت نفسه سهام من نار ، وكأنما كان كل منهما يقول لصاحبه : « إن الحب يشغفنا ولكننا نخاف الحب ، وإن ناراً واحدة تحرقنا ولكننا نبغض هذه النار . »

وكان زديج يخرج من عندها هائماً واجماً قد أثقل قلبه عبء لا قبل له باحتماله . وقد تجاوز الهيام به حده ، فأظهر صديقه كادور على مكنون سره ، وكان يشبه فى ذلك رجلا شق عليه الألم حتى أضناه فانتزع منه صيحة شاكية وأسال على جبهته عرقاً بارداً ، فظهر من أمره ما كان مستوراً .

قال كادور : « لقد تبينت هذا الشعور الذى كنت تريد أن تخفيه حتى على نفسك ؛ فان للعواطف الجامحة آيات ليس إلى الشك فيها سبيل . فقدّر أيها الصديق العزيز ، وقد استطعت أنا أن أقرأ فى قلبك ، كيف تكون حال الملك لو قرأ فى هذا القلب بعض ما يهينه ! فليس للملك عيب إلا أنه أشد الناس غيرة . إنك تقاوم حبك فى قوة أشد مما تبذل الملكة لمقاومة حبها . ومصدر ذلك أنك فيلسوف ، وأنك أنت زديج . أما استارتيه فامرأة ، وهى تبيح للحظها أن يتكلم فى غير تحفظ ؛ لأنها مازالت تعتقد أنها غير آثمة . وهى مع الأسف قد اطمأنت إلى براءتها ، فيدعوها ذلك إلى الاهمال فى التحفظ والاحتياط بالقياس إلى أشياء خارجية لا ينبغى أن تهمل ، وسأظل مشفقاً عليها ما لم تقترف شيئاً تلوم نفسها فيه . ولو قد اتفقتما لهان عليكما خداع الرقباء . فالحب الناشئ المكبوت لابد من أن يفتضح ، أما الحب الذى ظفر بالرضا فهو قادر على أن يستخفى . » وقد اضطرب زديج لهذه الفكرة التى تغريه بخيانة الملك وهو الذى أحسن إليه ، ولم يبلغ من الوفاء لملكه قط مثل مابلغ حين تبين أنه قد تورط فى هذه الخطيئة عن غير إرادة منه . ومع ذلك فقد كانت الملكة تكثر من ذكر زديج ، وكانت الحمرة تغشى وجهها كلما ذكرته ، وكانت حين تتحدث إليه بمحضر الملك تتحمس حيناً وتنقطع حيناً ، وكانت تغرق فى التفكير العميق إذا خرج ، حتى أثار هذا كله شيئاً من الاضطراب فى نفس الملك ، فصدق كل ما رأى وتخيل كل ما لم ير ، ولاحظ بنوع خاص أن حذاء امرأته كان أزرق ،

أن حذاء زديج كان أزرق ، وأن شرائط الملكة كانت صفراء ، وأن قلنسوة زديج كانت صفراء . وكانت هذه الأشياء كلها آيات خطيرة بالقياس إلى ملك مترف . وما هى إلا أن يتحول الشك إلى يقين فى نفسه الساخطة .

وخدام الملوك والملكات جميعاً جواسيس على قلوبهم . فما أسرع ماتبين هؤلاء الخدم أن استارتيه عاشقة ، وأن مؤبدار غيران. وأغرى الحسود امرأته أن ترسل إلى الملك رباط جوربها الذى يشبه رباط جورب الملكة . وكان هذا الرباط ، لشقاء زديج ، أزرق ، فلم يفكر الملك بعد ذلك إلا فى الانتقام . وأزمع فى ذات ليلة أن يميت الملكة مسمومة ، وأن يميت زديج مشنوقاً . إذا أسفر الصبح . ثم صدر الأمر بذلك إلى خصى قاس من خصيانه موكل بانتقامه . وكان فى غرفة الملك حين أصدر هذا الأمر قزيم أخرس ولكنه سميع ، وكان يخالط الملك ولا يخفى عليه من أمر القصر شئ كأنه بعض الحيوان المستأنس . وكان هذا الأخرس القزم وفيا للملكة ولزديج . فلما سمع الأمر بموتهما أحس دهشاً لا يعدله إلا ما أحس من هول . ولكن كيف السبيل إلى اتقاء هذا الأمر الفظيع الذى يوشك أن ينفذ فى ساعات قلائل ؟ لم يكن القزم يحسن الكتابة ، ولكنه كان يحسن التصوير ويجيد المقاربة بين الصورة والأصل. فأنفق شطراً من الليل فى رسم ما كان يريد أن يؤدى إلى الملكة من المعنى . وكان رسمه يصور الملك مغيظاً محنقاً مصدراً أمره إلى الخصى ، ومائدة غير بعيدة قد ألقى عليها حبل أزرق ورباط جورب أزرق وشريط أصفر وقام عليها إناء . والملكة فى وسط اللوحة تحتضر بين أذرع وصائفها ، وزديج مخنوق تحت قدميها . وكان الأفق يصور طلوع الشمس ، ليدل بذلك على أن هذا الأمر المنكر سينفذ إذا أسفر الصبح . فلما أتم صورته أسرع إلى وصيفة من وصائف الملكة وأفهمها أن هذه الصورة يجب أن تصل إليها من الفور .

وفى أثناء الليل طرق باب زديج ثم أوقظ ودفعت إليه رسالة من الملكة. فيشك فى أنه حالم أو عالم ، ثم يفض الرسالة بيد مرتعشة . فأى دهش وأى حزن أصابه حين قرأ هذه الكلمات :

« النجاء فى هذه اللحظة و إلا فقدت حياتك ! النجاء يا زديج إنى آمرك بذلك وأستحلفك بحبنا وبشرائطى الصفر . لم أكن آثمة ولكنى أشعر بأنى سأموت مجرمة . »

ولم يكد زديج يجد القوة على الكلام ، فأمر بدعاء كادور . ولم يقل له شيئاً ، وإنما دفع إليه الرسالة . فأكرهه كادور على الطاعة ، على أن يأخذ من فوره الطريق إلى ممفيس . قال له : « إن حاولت لقاء الملكة عجلت موتها ، فاذا تحدثت إلى الملك عجلت موتها كذلك . فعليّ أن أدبر أمرها ، فدبر أنت أمرك . وسأذيع أنك سلكت طريقك إلى الهند . وسألحق بك بعد قليل وأنبئك بما يكون قد حدث فى بابل من الخطوب . »

وفى الوقت نفسه أمر كادور بإعداد نجيبين خفيفين سريعين أمام باب خفى من أبواب القصر ، وحمل على أحدهما زديج حملا ، فلم يكن يستطيع أن يسعى ، وإنما كان يوشك أن يموت حزناً ، وصحبه خادم واحد .وما هى إلا ساعة حتى كان كادور غارقاً فى حزن عميق وقد غاب صديقه من بصره .

ومضى هذا الهارب العظيم ، حتى إذا بلغ تلا مشرفاً على بابل التفت إلى قصر الملكة ثم أغمى عليه ، ولم يفق من إغمائه إلا ليسفح الدمع ويتمنى الموت . فلما قضى حق الملكة التى هى أحب النساء إلى القلوب وأبعد الملكات صوتاً فى الآفاق ، وفكر فيما قضى عليها من شقاء ، عاد إلى نفسه وفكر فى أمره ، ثم صاح قائلا : « ما حياة الناس إذن ؟ أيتها الفضيلة بماذا نفعتنى ؟ لقد خانتنى امرأتان وهذه الثالثة لم تقترف إثماً وقد قضى عليها الموت . كل ما فىّ من خير كان مصدر شقاء لى . ولم أرتفع إلى أرقى المراتب إلا لأهوى إلى الدرك الأسفل من الشقاء . ولو قد كنت شريراً كثير من الناس لظفرت بما يظفرون به من السعادة . » ومضى فى طريقه إلى مصر تثقله هذه الخواطر المهلكة ، ويغشى عينيه سحاب الألم ، وتعلو وجهه صفرة الموت ، وقد هوت نفسه من أعماق اليأس إلى قرار سحيق .

الفصل التاسع

المرأة المضروبة

مضى زديج يهتدى بالنجم فى طريقه ، وكانت الجوزاء والشعرى تقودانه نحو كانوب ، وهو يعجب بهذه الكرات الضخمة من الضوء التى لا تظهر لأعيننا إلا كمستصغر الشرر ، على حين تظهر الأرض لمطامعنا شيئاً عظيماً جليل الخطر ، مع أنها ليست فى حقيقة الأمر إلا نقطة ضئيلة فى الكون . وكان يرى الناس كما هم فى الواقع جماعات من الحشرات يأكل بعضها بعضاً على ذرة ضئيلة من الطين . وهذه الصورة الصادقة كانت تلغى شقاءه إلغاء ؛ لأنها تضائل من شخصه ومن مدينة بابل نفسها . وكانت نفسه تتجرد من شخصيته وتثب نحو آفاق اللانهاية ، وتلاحظ هذا النظام المستقر الذى يمضى عليه الكون . ولكنه حين كان يثوب إلى نفسه ويتعمق دخيلة قلبه لم يكن يستطيع إلا أن يفكر فى أن استارتيه قد تعرضت لأعظم الخطر ، ولعلها قد لقيت الموت . هنالك كان العالم كله يستخفى ، ولم يكن هو يرى إلا استارتيه تحتضر وزديج يتجرع كأس الشقاء !

وبينما كان يتردد بين هذا المد والجزر من فلسفة رفيعة إلى ألم ممض جعل يتقدم نحو حدود مصر . وكان خادمه الأمين قد سبقه إلى إحدى الضواحى ليلتمس له منزلا . وجعل زديج يتنزه فى الحدائق التى تحيط بهذه الضاحية ، فرأى غير بعيد من الطريق العامة امرأة مولهة تستغيث بالأرض والسماء ، ورجلا يتبعها وقد أخرجه الغضب عن طوره . وقد لحقها الرجل وهى تستعطفه لاثمة ركبتيه ، والرجل يشبعها شتما وضرباً . فقدر زديج لمنظر هذين المصريين أن الرجل كان غيوراً وأن المرأة كانت خائنة . ولكنه حين نظر إلى هذه المرأة ورآها ذات جمال مؤثر وفيها ملامح من استارتيه رق لها وسخط على الرجل . أما هى فأعولت والعبرات تخنقها قائلة لزديج : « أغثنى أنقذنى

من هذا الرجل الذى ليس له نظير فى الغلظة والجفاء . أنقذ حياتى . »

هنالك أسرع زديج فألقى بنفسه بينهما ليرد عنها عنف هذا الرجل . وكان له شئ من العلم بلغة المصريين ، فقال له فى هذه اللغة : « إن كان لك حظ من رحمة فانى أتوسل إليك أن تحترم الجمال وترفق بالضعف . أتستطيع أن تهين إلى هذا الحد آية من آيات الطبيعة قد جثت أمامك وليس لها عاصم منك إلا الدموع ؟ » قال الرجل العنيف : « فأنت تحبها أيضاً ! ومن حقى أن أنتقم منك . » ثم أرسل شعر المرأة الذى كان يجذبه وصوب إلى الغزيب رمحه يريد أن يشق به صدره . وكان زديج محتفظاً بهدوئه ، فاستطاع أن ينحرف عن الطعنة فى يسر . وأخذ بسنان الرمح يجذبه إليه ، والمصرى يريد أن يحتفظ به، فيتحطم الرمح بين الرجلين . ويسل المصرى سيفه فيسل زديج سيفه ، ويسعى كلاهما إلى صاحبه . فأما المصرى فيرسل ضرباته فى غير نظام ، وأما خصمه فيتقيها فى مهارة . والمرأة جالسة على العشب تصفف شعرها وتنظر إليهما . وكان المصرى أقوى من خصمه ، وكان زديج أمهر من المصرى : أحدهما يقاتل ورأسه يدير ذراعه ، والآخر يقاتل وقد ملك الغضب عليه أمره كله . ثم يهجم عليه زديج فيجرده من سلاحه . ولكن المصرى يبلغ من الغضب أقصاه فيهجم على زديج الذى يأخذه فيضغطه فيلقيه على الأرض فيضع ذباب السيف على صدره ويعرض عليه الحياة . هنالك يفقد المصرى صوابه ، فيستل خنجر ويجرح به زديج فى نفس الوقت الذى كان يهدى إليه العفو فيه . وقد ثارت حفيظة زديج فأغمد سيفه فى صدر خصمه . ويدفع المصرى صيحة هائلة ثم يلفظ الروح .

ثم يتقدم زديج فى خضوع إلى هذه المرأة قائلا لها فى صوت هادئ : « لقد أكرهنى على أن أقتله . فأنت الآن صرت طليقة قد أمنت شر هذا الرجل الذى لم أر مشبهاً له فى العنف . فماذا تريدين منى الآن يا سيدتى ؟ » قالت المرأة : « أريد أن تموت أيها المجرم . أريد أن تموت ! لقد قتلت حبيبى ! وددت لو أمزق قلبك تمزيقاً . » قال زديج : « إن لك فى الحق لمزاجاً غريباً يا سيدتى! لقد كان يضربك ضرباً مبرحاً ، ولقد كاد يسلبنى حياتى لأنك طلبت إلىّ النجدة فاستجبت لك . » قالت معولة : « وددت لو يضربنى الآن ضرباً مبرحاً ! لقد كنت أهلا لما كنت ألقى منه ، لقد دفعته إلى الغيرة . وددت لو يضربنى الآن

وأنك ملقى مكانه.» قال زديج وقد أخذ منه الدهش والغضب مأخذاً عظيما: «سيدتى إنك لرائعة الحسن، ولكنك أهل لأن أضربك أنا أيضاً لأنك شاذة الأخلاق، ولكنى لن أكلف نفسى هذا الجهد.» ثم جلس على جمله وسعى نحو الضاحية. ولكنه لايكاد يمضى إلا قليلا ثم يسمع نبأة،فيلتفت وإذا سعاة أربعة من أهل بابل قد أقبلوا مسرعين. فيرى أحدهم هذه المرأة ويصيح: «هذه هى إنها لتشبه الصورة التى وصفت لنا.» ثم لا يلتفتون إلى الميت وإنما يحيطون بالسيدة فيخطفونها خطفاً. وهى تصيح: «أنقذنى مرة أخرى أيها الغريب! إنى لنادمة على الاساءة إليك. أنقذنى، إنى لأعتذر إليك بأنى شكوت منك! أنقذنى وأنا لك إلى أن أموت.» ولكن زديج كان قد فقد الميل إلى أن يقاتل فى سبيلها، فأجابها: «أطلبى المعونة من غيرى فلن تخدعينى مرة أخرى.»

على أنه كان جريحاً وكان دمه ينزف وكان محتاجاً إلى بعض العناية، وقد ملأه منظر هؤلاء البابليين الأربعة قلقاً، فهم رسل الملك مؤبدار. فيسرع نحو القرية، غير متخيل للسبب الذى من أجله يختطف البابليون هذه المرأة، وغير فاهم لأخلاق هذه المرأة نفسها.

الفصل العاشر

الرق

ولا يكاد يدخل القرية المصرية حتى يرى الناس قد أحاطوا به، وهم يتصايحون: «هذا هو الذى اختطف ميسوف الحسناء وقتل كليتوفيس». قال زديج: «أيها السادة ليعصمنى الله إلى آخر الدهر من أن أختطف حسناء كم ميسوف، فانها جامحة مسرفة فى الجماح. أما كليتوفيس فانى لم أقتله عن عمد، وإنما دافعت عن نفسى حين اعتدى على. لقد كان أراد أن يقتلنى لأنى طلبت إليه فى أرفق الرفق أن يكف أذاه عن ميسوف وكان يضربها ضرباً

مبرحاً . وإنما أنا رجل غريب قد أقبل لاجئاً إلى مصر . وليس مما يلائم العقل أن أسعى إليكم مستجيراً بكم ثم أبدأ بخطف امرأة وقتل رجل . »

وكان المصريون فى ذلك الوقت أولى عدل ورحمة . فقد قاد الشعب زديج إلى المركز ، وهناك ضمدت جراحه قبل كل شئ ، ثم حقق معه ومع خادمه كل على حدة لاستجلاء الحقيقة . فتبين أن زديج لم يتعمد القتل ولكنه قد أراق دم إنسان ، وكان القانون يقضى عليه بالرق . فبيع جملاه لمصلحة القرية ، وفرق ما كان يحمل من ذهب على أهلها ، وعرض هو وخادمه للبيع فى سوق الرقيق . وقد تنافس فيهما المشترون وتمت الصفقة لتاجر عربى يسمى سيتوك . على أن ثمن الخادم قد كان أرقى من ثمن سيده ؛ لأن الخادم أقدر على العمل وأجدر أن يحتمل من المشقة ما لم يكن سيده يقدر على احتماله . ولم ينظر إلى مابين السيد وخادمه من تفاوت فى العقل والمنزلة . فأصبح زديج إذن عبداً خاضعاً لخادمه ، وقد قرن كلاهما إلى صاحبه فى حبل واحد من رجليهما ثم دفعا إلى بيت سيدهما الجديد . وكان زديج فى أثناء الطريق يعزى خادمه ويرغبه فى الصبر ، ولكنه كان على عادته يفكر فى حياة الانسان ومصيره . وكان يقول لخادمه : « إن الشقاء الذى كتب علىّ يمتد إليك . فقد دارت الأشياء كلها بالقياس إلىّ دورة غريبة إلى الآن ؛ فقد قضى على بالغرامة لأنى رأيت كلبة تمر ، وأشرفت على الموت من أجل العنقاء ، وأرسلت إلى العذاب لأنى صنعت شعراً أثنيت فيه على الملك ، وكدت أشنق لأن شرائط الملكة كانت صفراء ، وهأنذا أدفع معك إلى الرق لأن رجلا عنيفاً ضرب خليلته . فلنحتفظ بشجاعتنا ؛ فقد يكون لألمنا حد يقف عنده ، ولابد لهذا التاجر العربى من أن يملك الرقيق . ولم لا أكون أنا رقيقاً كغيرى من الرقيق ، مادمت رجلا كغيرى من الرجال ؟ ولن يكون هذا التاجر قاسياً ؛ فقد ينبغى أن يرفق بعبيده إن كان يريد أن ينال منهم خيراً . » كذلك كان يقول لخادمه على حين كان قلبه مشغولا بمصير الملكة استارتيه .

وقد ارتحل سيتوك العربى بعد يومين مستصحبا خادميه وإبله إلى صحراء بلاد العرب ، وكانت قبيلته تسكن قريباً من صحراء أوريب . وكانت الطريق طويلة شاقة . وكان العربى أثناء السفر يؤثر الخادم على سيده ، لأن الخادم كان يحسن وضع الأثقال على ظهور الإبل ، فكان العربى يخصه بالعناية .

وقد نفق أحد الجمال على مسيرة يومين من أوريب ، فوزع حمله على الخدم وحمل زديج نصيبه . وكان سيتوك يضحك حين يرى عبيده جميعاً يمشون وقد انحنوا لثقل ما كانوا يحملون . وقد استباح زديج لنفسه أن يبين له سبب هذا الانحناء ، ففسر له قوانين التوازن . فدهش التاجر وجعل ينظر إليه نظراً جديداً . ولما رأى زديج اهتمامه بما سمع استحث حبه للاستطلاع ، فتحدث إليه فى أشياء كثيرة كانت تتصل بتجارته ، كالثقل النوعى للأشياء التى تختلف مادة وتستوى حجما ، وخصائص بعض الحيوان التى تنفع الناس ، وطرائق الانتفاع بما لايظهر فيه نفع ، فتبين لسيتوك أن خادمه حكيم ،فآثره وقدمه على خادمه الذى كان يفضله عليه من قبل ، ثم أحسن معاملته . ولم يندم فيما بعد على ما قدم إليه من معروف .

ولم يكد سيتوك يصل إلى مضارب القبيلة حتى استقضى يهوديا خمس مئة مثقال من الفضة ، وهو دين كان اليهودى قد اقترضه منه أمام شاهدين ، ولكن الشاهدين كانا قد فارقا الحياة ، فالتوى اليهودى بالدين حامداً لله أن أتاح له هذه النعمة التى مكنته من أن يجحد دين رجل من العرب .فأفضى سيتوك بهمه هذا إلى زديج الذى كان قد أصبح له مستشاراً قال زديج : «فى أى مكان أقرضت مثاقيلك لهذا الكافر؟» قال التاجر : « على صخرة ضخمة قريباً من جبل أوريب . » قال زديج : « وما أخص ما يمتاز به مدينك؟ » أجاب سيتوك : « يمتاز بالغدر . » قال زديج : « ولكنى أسألك أنشيط هو أم كسل ، أحذر هو أم أخرق . » قال سيتوك : « هو بين الذين يلتوون بالدين أعظمهم حظا من النشاط . » قال زديج : « أتأذن أن أكون محاميك أمام القضاة؟ » ثم دعا اليهودى أمام المحكمة وتحدث إلى القضاة على هذا النحو : « يا وسائد العرش الذى يستقر عليه العدل إنى أطلب إلى هذا الرجل نيابة عن سيدى خمس مئة مثقال من الفضة قد التوى بها وأبى أن يؤديها . » قال القاضى : « أعندك بينة؟ » قال زديج : « لا ! لقد مات الشاهدان ، ولكن هناك صخرة عريضة عدت عليها المثاقيل ، فاذا أذنت المحكمة بحمل هذه الصخرة فقد أرجو أن تشهد لى وسنبقى نحن هنا حتى تحمل الصخرة . وسأرسل من يحملها على نفقة سيدى سيتوك . » قال القاضى : « لا بأس . » وجعل ينظر فى قضايا أخرى .

فلما كان آخر الجلسة قال لزديج : « ألم تأت صخرتكم بعد ؟ » فتضاحك اليهودى قائلا : « تستطيع عظمتكم أن تبقى فى الجلسة إلى غد دون أن تحضر الصخرة ؛ فهى تقوم على بعد ستة أميال ؛ ولا يستطيع أن يحولها عن مكانها أقل من خمسة عشر رجلا . » فصاح زديج : « ألم أقل لكم إن الصخرة ستشهد لى ؟ فما دام هذا الرجل يعرف مكانها فهو يقر بأن المثاقيل قد عدت عليها . » فبهت اليهودى واضطر آخر الأمر إلى الاعتراف ، وأمر القاضى بأن يشد هذا الرجل إلى الصخرة ولا يقدم إليه طعام ولا شراب حتى يؤدى الدين .

ومنذ ذلك الوقت أصبح العبد زديج والصخرة موضع ثقة وثناء فى بلاد العرب .

الفصل الحادى عشر

التحريق

وبلغ الرضا من سيتوك أن جعل من عبده لنفسه خليلا ، وأصبح لا يستطيع أن يستغنى عنه كما كان ذلك شأن الملك فى بابل . وكان زديج سعيداً لأن سيده لم يتخذ لنفسه زوجاً . وكان يتبين فى سيده طبعاً ميالا إلى الخير وكثيرا من الاستقامة فى السيرة والإصابة فى التقدير . وساءه أن سيده كان يعبد جيش السماء أى الشمس والقمر والنجوم ، كما جرت بذلك عادة العرب . وكان يتحدث إليه فى ذلك متحفظاً أشد التحفظ . ثم قال له آخر الأمر : « إن هذه الكواكب والنجوم ليست إلا أجساماً كغيرها من الأجسام ، وليست أحق بالتعظيم من شجرة أو صخرة . » قال سيتوك : « إنها كائنات خالدة تحقق لنا منافعنا كلها ؛ فهى تشيع الحياة فى الطبيعة وتدبر فصول العام ، وهى بعد ذلك بعيدة عنا بحيث لا نستطيع إلا تقديسها . » قال زديج : « إن البحر الأحمر يحقق لك من المنافع أكثر مما تحقق لك هذه الكواكب حين يحمل تجارتك إلى الهند . وما يمنعه أن يكون قديم العهد كالنجوم ؟ وإذا لم يكن بد من أن تعبد ما بعد عنك فقد يجب أن تعبد أرض جنجاريد التى هى فى أقصى

العالم . » قال سيتوك : « كلا ! إن النجوم مشرقة إشراقاً يفرض علىّ عبادتها . »
فلما جن الليل أشعل زديج عدداً ضخما من المصابيح فى الخيمة التى كان يجب أن يجلس فيها إلى العشاء مع سيتوك . فلما أقبل مولاه جثا أمام هذه المصابيح قائلا : « أيها الضوء المشرق الخالد وفقنى دائماً لما أريد . » ثم جلس إلى المائدة دون أن ينظر إلى سيتوك . قال سيتوك دهشاً : « ماخطبك ؟ » قال زديج : «إنما أصنع صنيعك ، فأعبد هذه المصابيح وأهمل سيدها وسيدى . » هنالك فهم سيتوك فحوى هذه الاشارة ، ونفذت حكمة عبده إلى نفسه ، فأعرض عن عبادة المخلوقات وعبد الخالق الخالد الذى فطرها .

وكانت تتحكم فى بلاد العرب لتلك الأيام عادة منكرة نقلت إليها من بلاد السيتيين بعد أن استقرت فى الهند بفضل البراهمة وكادت تعم الأرض كلها . وكانت هذه العادة تقضى إذا مات رجل وأرادت امرأته أن تكون قديسة أن تحرق نفسها على جسم زوجها بمشهد من الناس . وكان ذلك يجرى فى حفل عظيم يسمى حريق الترمل . وكانت القبيلة التى تعد كثيراً من النساء المحرقات تمتاز بحسن الذكر وبعد الصوت . وقد مات عربى من قبيلة سيتوك ، فقررت زوجته ألمونا وكانت صالحة ، أن تتبعه ، وأعلنت اليوم والساعة اللذين اختارتهما لتلقى نفسها فى النار على قرع الطبول ودعاء المزامير . وقد أظهر زديج لسيتوك أن هذه العادة البشعة مسيئة أشد الاساءة إلى النوع الانسانى ؛ فهؤلاء النساء اللاتى يتركن نهباً للحريق فى كل يوم خليقات أن يمنحن الدولة عدداً ضخما من المواطنين ، وأن يربين أطفالهن على أقل تقدير. وما زال به حتى أقنعه بأن من الخير إلغاء هذه العادة إن كان ذلك ممكناً. قال سيتوك : « لقد مضى أكثر من خمس مئة وألف عام والنساء يحرّقن، فأينا يجرؤ على أن يغير قانوناً قدسه الزمن ؟ هل يوجد شئ أجدر بالاحترام من ظلم بعد به العهد؟ » قال زديج : « إن العقل أقدم من هذه العادة . فتحدث أنت إلى شيوخ القبيلة ، وسأذهب أنا إلى هذه الأرملة الشابة . »

فتلطف حتى قدم إليها ، ثم جعل يتملقها بالثناء على جمالها ، ثم بين لها أن مما يحزن ويسوء أن يحرق سحرها العظيم للنار ، ثم أثنى على ثباتها وشجاعتها. ثم قال لها : « أكنت تحبين زوجك إذن حبا جما ؟ » قالت : « أنا ، كلا لم أحببه قط ! لقد كان عنيفاً غيوراً لا سبيل إلى احتماله ، ولكنى على ذلك مصرة على

أن أحرق نفسى فى أثره . » قال زديج : « يجب أن تكون هناك لذة لانظير لها فى أن يحرق الانسان نفسه حيا . » قالت السيدة : « هذا شئ ترتعد له الفرائص ، ولكن لابد مما ليس منه بد . إنى تقية ، وما أحب أن أشتهر بالسوء ولا أن أتعرض للسخرية لاجتناب هذه النار . » فبين لها زديج أنها إنما تحرق نفسها إرضاء لغيرها ، وأن الغرور هو الذى يدفعها إلى ذلك . ثم مازال يرفق بها حتى حبب إليها الحياة شيئاً ما ، بل استطاع أن يعطفها قليلا على هذا الذى كان يتحدث إليها . ثم قال لها : « ما عسى أن تصنعى لو برئت من هذا الغرور الذى يدفعك إلى النار؟ » قالت السيدة : « واحسرتاه لو برئت من هذا الغرور لطلبت إليك أن تتخذنى لنفسك زوجاً . »

ولكن زديج كان مشغولا بحب استارتيه ، فلم ير بدًّا من أن يروغ عن هذا الدعاء . ثم سعى إلى شيوخ القبيلة ، وطلب إليهم أن يصدروا قانوناً يحظر على كل أرملة أن تحرق نفسها دون أن تخلو ساعة كاملة إلى فتى من الفتيان . ومنذ ذلك الوقت لم تحرق عربية نفسها ، ودانت بلاد العرب لزديج بهذه المكرمة التى ألغى بها فى يوم واحد عادة مضت عليها القرون . وأصبح زديج محسناً إلى بلاد العرب كلها .

الفصل الثانى عشر

العشاء

وقد أصبح سيتوك حريصاً على ألا يفارق زديج هذا الذى استقرت الحكمة فى قلبه ، فاستصحبه إلى سوق البصرة حيث كان يلتقى أكبر التجار فى جميع أقطار الأرض التى يسكنها الناس . وكان لقاء عدد ضخم من الناس على اختلافهم فى الوطن والمنزلة والطبقة مصدر عزاء لزديج عن بعض همه . وقد خيل إليه أن العالم إنما هو أسرة كبيرة قد اجتمعت فى البصرة . فلما كان اليوم الثانى من إقامته فى البصرة جلس إلى مائدة العشاء مع جماعة فيهم المصرى والهندى من

جنجاريد ، والنازح من أرض كتاى واليونانى ، والكاتى ، وآخرون من الغرباء ، وكل هؤلاء الناس قد تعودوا الرحلة إلى شط العرب حتى تعلموا شيئاً من العربية كانوا يديرون به الحديث فيما بينهم . وكان المصرى يظهر شديد الغضب ، وكان يقول : « ما أقبح البصرة من بلد ! إن أهلها يأبون أن يقرضونى ألف مثقال من ذهب على أن يرتهنوا بها أقوم عين فى الدنيا . » قال سيتوك : « وكيف كان ذلك ؟ وما هذه العين التى لم يرتهنوها بهذا المال ؟ » قال المصرى : « جثة عمتى ، وكانت أرضى نساء مصر خلقاً ، وكانت ترافقنى دائماً فماتت فى بعض الطريق ، وقد اتخذت منها أحسن ماعرفت مصر من الومياء. ولو رهنتها فى وطنى لأخذت عليها كل ما طلبت من مال . وإنه لغريب أن يضن علىّ بألف مثقال مع أنى أقدم فى سبيلها هذا الرهن القيم الخطير . » وكان فى أثناء غضبه يتهيأ لأكل دجاجة سليق . فأخذ الهندى بيده وصاح متألماً: « ماذا تريد أن تصنع ؟ » قال صاحب المومياء : « أريد أن آكل من هذه الدجاجة . » قال الهندى : « إياك أن تفعل ! فقد يجوز أن يكون روح عمتك قد تقمص هذه الدجاجة ، وما أراك تحب أن تأكل عمتك . وإن فى طبخ الدجاج لإهانة بالغة للطبيعة . » قال المصرى الغضوب : « ماذا تريد أن تقول حين تحدثنا عن طبيعتك ودجاجك ؟ إنا نعبد الثور ونأكل منه مع ذلك . » قال ساكن شاطئ الجانج : « أيمكن أن تعبدوا ثوراً ؟ » قال المصرى : « لا غرابة فى ذلك ، فنحن نعيش على عبادة الثور منذ خمسة وثلاثين ومئة ألف من السنين ، لم ينكر ذلك أحد منا . » قال الهندى : « خمسة وثلاثون ومئة ألف ! هذا غلو فى الحساب . فلم تسكن الهند إلا منذ ثمانين ألف سنة ونحن مع ذلك أقدم منكم ، ليس فى ذلك شك . وقد حرم علينا براهما أن نأكل من الثور قبل أن تضعوه أنتم على المذابح لتعبدوه ، وفى النار لتأكلوه . » قال المصرى : « إنك لتضحكنى حين تذكر براهما لتوازن بينه وبين آبيس . وماذا تظن أن براهما قد صنع من غرائب المعجزات ؟ » قال البراهمى : «هو الذى علم الناس القراءة والكتاب ، وهو الذى تدين له الأرض كلها بلعبة الشطرنج .» قال كلدانى كان يجاورهما : « لقد أخطأت! إنما يونس الحوت هو الذى أسدى إلى الناس هذه المكارم ، فينبغى أن يرد إليه حقه ويعرف له فضله . والناس جميعاً ينبئونك بأنه كان كائناً إلهيا له ذيل مذهب ورأس إنسان ، وأنه كان

يخرج من الماء ليعظ أهل الأرض ثلاث ساعات فى كل يوم . وقد ولد له بنون كثيرون وكلهم كان ملكاً كما يعرف الناس جميعاً . وإن عندى صورة له أعبدها كما ينبغى لها أن تعبد . وللناس أن يأكلوا من لحم الثور ما أحبوا ، ولكن ليس لهم أن يطبخوا السمك . ومع ذلك فأنتما تنتميان إلى أصل حديث العهد قليل الحظ من الشرف فما ينبغى لكما أن تجادلا . فالأمة المصرية لاتعد إلا خمسة وثلاثين ومئة ألف عام ، والهند لا تفاخر إلا بثمانين ألف عام ، أما نحن فان تقاويمنا تسجل أربعة آلاف من القرون . فاسمعا لى وأعرضا عن هذا الهذيان ، وأنا زعيم أن أهدى إلى كل واحد منكما صورة من صور يونس».

قال ساكن كبالو: «إنى أكبر المصريين ، والكلدانيين ، واليونان ، والكلتيين ، وبراهما ، والثور آبيس ، والحوت العظيم يونس ، ولكن ربما كان «اللى» وهو نور الطبيعة أو «القيان» وهو السماء والإله أحق بالتكرمة من الثور والسمك . ولن أقول شيئاً عن وطنى فهو أكبر من مصر وبلاد الكلدين والهند جميعاً . ولن أجادل فى قدم العهد ، فحسب الانسان أن يكون سعيداً، وليس أهون من أن يكون قديم الأصل . وإذا لم يكد بد من ذكر التقاويم فانى أقول إن آسيا كلها تستعير تقاويمنا ، وأننا أحسنا وضع التقاويم قبل أن يتعلم الكلدانيون الحساب . »

هنالك صاح اليونانى : «إنكم جميعاً لجاهلون ! ألا تعلمون أن الكاووس هو أصل كل شئ ، وأن المادة والصورة هما اللتان جعلتا العالم كما هو الآن ؟ »
وقد تكلم هذا اليونانى فأطال الكلام . ولكن الكلتى الذى أسرف فى الشرب أثناء هذا الحوار ظن أنه أعلم منهم جميعاً ، وصاح قائلا إن ليس غير توته والبلوط شئ يستحق التكريم والاجلال ، وإنه هو يحمل دائماً من هذا الزهر فى جيبه ، وإن أجداده السيتيين هم وحدهم أهل الخير فى الأرض كلها ، وإنهم فى الحق ربما أكلوا جسم الانسان ، ولكن ذلك لا يمنع من أن من الحق على الناس أن يعرفوا لهم قدرهم ، وإن من ذكر توته بسوء فسيعلمه كيف ينبغى أن يعيش .

وقد اشتدت الخصومة حينئذ ، ورأى سيتوك أن المائدة توشك أن يصبغها الدم . وكان زديج قد احتفظ بالصمت أثناء هذا الحوار كله ، فنهض إذذاك ثم اتجه إلى الكلتى لأنه كان أشد القوم غضباً وقال له إنه مصيب ، وطاب

إليه بعض زهره ، وحمد لليونانى بلاغته ، وهدأ النفوس الثائرة . ولم يقل لصاحب كتاى إلا قليلا لأنه كان أعقل القوم جميعاً . ثم قال لهم جميعاً : « أيها الأصدقاء لقد كدتم تختصمون فى غير طائل لأنكم جميعاً متفقون . » هنالك تصايح القوم . قال للسيتى : « أليس من الحق أنك لا تعبد الزهر والبلوط ، وإنما تعبد صانعهما ؟ » قال الكلتى : « لا شك فى ذلك . » « وأنت يا سيدى المصرى إنما تعبد فى بعض الثيرة من خلق لك الثور . » قال المصرى : « نعم . » « ويونس الحوت يجب أن يذعن لمن خلق البحر والسمك . » قال الكلدانى : « أوافق على ذلك . » قال : « والهندى والكاتى يعترفان من غير شك بالمبدأ الأول لكل شئ . ولم أفهم هذا الكلام الرائع الذى تكلم به اليونانى ، ولكنى واثق بأنه يسلم بوجود كائن عظيم هو الذى أنشأ المادة والصورة . » قال اليونانى وقد أحس الاعجاب به إن زديج قد فهم عنه حق الفهم . قال زديج : « فأنتم إذن على رأى واحد ، وليس هناك ما يدعو إلى الخصومة . » فأقبل القوم عليه يعانقونه . ثم باع سيتوك تجارته بيعاً رابحاً وعاد مع صديقه إلى قبيلته ، ولكن زاديج عرف عند وصوله أن قضيته قد نظرت أثناء غيبته . وأن الحكم قد صدر عليه أن يحرق فى نار هادئة .

الفصل الثالث عشر

الموعد

وكان كهنة الكواكب قد أزمعوا أثناء رحلته إلى البصرة أن يعاقبوه . فقد كانت جواهر الأرامل اللاتى يرسلن إلى النار وحليهن تؤول إليهم ، فلم يكن أقل من أن يحرقوا زديج عقاباً له على ما جر عليهم من خسارة . فاتهموه إذن بسوء رأيه فى جيش السماء ورفعوا القضية ، وأقسموا على أنهم قد سمعوه يقول إن نجوم السماء لا تغرب فى البحر . وقد ارتعد القضاة لهذا الكفر الشنيع ، وكادوا يمزقون ثيابهم حين سمعوا هذا المنكر من القول ، وقد كانوا أحرياء أن يفعلوا

لو علموا أن لزديج من المال ما يعوض عليهم ثيابهم ، ولكنهم حين انتهى بهم الألم إلى أقصاه اكتفوا بالحكم عليه أن يحرق فى نار هادئة . وقد جزع سيتوك وأنفق ما كان يملك من جهد لينقذ صديقه ، ولكنه أُكره على الصمت إكراهاً . هنالك أزمعت الأرملة الشابة ألمونا أن تنقذه ، وكانت قد أحبت الحياة بفضل زديج ، فأرادت أن تعصمه من النار التى بين لها ما فيها من الظلم . فأدارت رأيها فى رأسها دون أن تتحدث به إلى أحد ، وكان مقرراً أن يحرق زديج من غده ، فلم يكن أمام الأرملة إلا الليل لإنقاذه . وإليك الخطة التى دبرتها فى رحمة ورفق وحذر .

تعطرت وازَّينت حتى جعلت جمالها ساحراً فتاناً ، ثم طلبت لقاء خاصا إلى رئيس كهنة النجوم . فلما مثلت أمام هذا الشيخ الجليل قالت له : « أيها الابن البكر للدب الأعظم يا أخا الثور ، وابن عم الكلب الأكبر — وكانت هذه ألقاب رئيس الكهنة — لقد أقبلت أفضى إليك بذات نفسى . إنى لمشفقة أن أكون قد وقعت فى خطيئة عظيمة حين لم أحرق نفسى فى أثر زوجى العزيز . وعلى ماذا أردت أن أبقى جسم هالك قد أخذت فيه السن ! » قالت ذلك وهى تخرج من كمها الحريرى الطويل ذراعها العارية ذات الصورة الرائعة والبياض الخلاب ، قالت : « أنظر ما أهون هذا وما أقل خطره ! » ووجد زعيم الكهنة فى دخيلة نفسه أن هذا شئ عظيم الخطر ، قالت ذلك عيناه وأكد ذلك فمه ، فقد أقسم أنه لم ير قط فى حياته أجمل من هذه الذراع . قالت الأرملة : « واحسرتاه ! لعل الذراع أن تكون خيراً من سائر الجسم ، ولكنك توافقنى على أن النحر لم يكن خليقاً بعنايتى . » ثم أظهرت أجمل ثدى صنعته الطبيعة لو قرن إليه زر من الورد على تفاحة من العاج لأذى بها ؛ ولو قرنت إليه الحملان بعد غسلها لظهرت بالقياس إليه صفراء مشبعة بالسمرة . هذا النحر ، وهاتان العينان الكبيرتان الفاترتان المشرقتان بنار رفيقة ، وهذان الخدان اللذان يزدهيان بأجمل الأرجوان قد خالطه بياض اللبن النقى ، وأنفها الذى لم يكن كبرج جبل لبنان ، وشفتاها اللتان كانتا كطرفى محارة من مرجان تضمر أجمل ما فى بحر العرب من اللآلئ»[1]، كل هذا مجتمعاً أشعر الشيخ بأنه ابن عشرين ،

---

(١) تعريض فى هذا الوصف كله ببعض ما فى نشيد الأناشيد

فأعلن إليها حبه متلعثما . ولما رأته ألمونا ملتهباً سألته العفو عن زديج ، قال : « واحسرتاه ! أيتها السيدة الحسناء لو أجبتك إلى ما تطلبين لما أغنى عفوى عنه شيئاً . فقد يجب أن يمضى هذا العفو ثلاثة آخرون من الزملاء . » قالت ألمونا : « فأمض أنت . » قال الكاهن : « مع السرور بشرط أن يكون عطفك ثمناً لعفوى . » قالت ألمونا : « إنك لتغلو فى تشريفى ، فتفضل بزيارتى إذا غربت الشمس وأشرقت فى الأفق النجمة شيت ، فستجدنى على إيوان وردى اللون ، وستصنع بخادمك ما تشاء . » ثم خرجت ومعها الإمضاء، وتركت الشيخ يصرعه الحب ويخيفه الشك فى قوته ، وأنفق سائر اليوم فى حمامه ، واحتسى شراباً مزاجه من قرفة سيلان وبهار تيدوروترنات ، وانتظر وقد كاد يفقد الصبر أن تظهر النجمة شيت فى الأفق .

وفى أثناء ذلك مضت ألمونا الحسناء فلقيت الكاهن الثانى ، فأكد لها أن الشمس والقمر وكل ما فى السماء من نجوم ليست إلا ناراً موهومة بالقياس إلى سحرها . فطلبت إليه العفو نفسه، وطلب إليها أن تؤدى ثمنه ، فأظهرت الإذعان وضربت موعداً للكاهن الثانى حين تشرق النجمة الجنيب . ثم مضت إلى الكاهن الثالث وإلى الكاهن الرابع ، ظافرة دائماً بالإمضاء ، ضاربة موعداً من نجم إلى نجم. ثم طلبت إلى القضاة أن يلموا بدارها لأمر ذى بال . فلما حضروا أظهرت لهم الأسماء الأربعة ، وأنبأتهم بأى ثمن باع الكهنة عفوهم عن زديج . وأقبل كل واحد من الكهنة فى موعده ، ودهش كل واحد منهم حين رأى زملاءه وبنوع خاص حين رأى القضاة الذين تبينوا خزيهم واضحاً . وكذلك نجا زديج ، أما سيتوك فقد فتنته مهارة ألمونا ، فاتخذها له زوجاً .

الفصل الرابع عشر

الرقص

وكان على سيتوك أن يذهب بتجارته إلى جزيرة سرنديب ، ولكن الشهر الأول لزواجه — وهو كما يعلم الناس جميعاً شهر العسل — لم يسمح له بفراق امرأته ولا بتخيل أنه يستطيع فراقها إلى آخر الدهر ، فتقدم إلى خليله زديج أن يقوم عنه بهذه الرحلة . وكان زديج يقول فى نفسه : « واحسرتاه ! أيجب أن أمعن فى السفر حتى أجعل بين أستارتيه وبينى أبعد الآماد ! ولكن يجب أن أخدم من أحسنوا إلىّ . » قال ذلك ثم بكى ثم ارتحل .

ولم يمض عليه قليل من الوقت فى جزيرة سرنديب حتى نظر إليه على أنه رجل متفوق ممتاز ، وقد أصبح حكما بين كبار التجار وصديقاً للحكماء ومشيراً على هذه القلة من الناس الذين يحبون أن يستشيروا . وقد أراد الملك أن يراه ويسمع منه . فما أسرع ما عرف قيمته ووثق بحكمته واتخذه خليلا . وقد اضطرب زديج لما وجد عند الملك من إلف ومودة ؛ فقد كان فى أثناء الليل والنهار مروعاً بما جرّت عليه عشرة مؤبدار من شقاء . وكان يقول لنفسه : «لقد أعجبت الملك ، أفلا يمكن أن يسوقنى هذا إلى التهلكة ؟ » ولم يكن من الممكن مع ذلك أن يتخلص من لطف الملك ، فيجب أن نعترف بأن نابوسان ملك سرنديب ، ابن نوسناب ابن نابسون ، ابن سنبوسنا كان من خيرة ملوك آسيا ، وكان عسيراً على من تحدث إليه ألا يحبه .

وكان هذا الملك الكريم ممدحاً دائماً مغشوشاً دائماً مسروقاً دائماً ، وكان صاحب بيت المال فى سرنديب قدوة فى ذلك يتبعها الموظفون جميعاً . وكان الملك يعلم ذلك ، وقد غير صاحب بيت ماله غير مرة ، ولكنه لم يستطع تغيير السنة المقررة التى تقتضى أن يقسم دخل الملك إلى قسمين غير متساويين ، يبقى أصغرهما لجلالته ، ويؤول أكبرهما إلى الموظفين .

وقد أفضى الملك نابوسان بهمه هذا إلى زديج . قال له ذات يوم : « إنك تعرف أشياء كثيرة قيمة ، فهل تعرف الطريق إلى أن أجد خازناً للمال لا يخون ؟ » قال زديج : « ليس فى ذلك شك ، إنى أعرف السبيل الأمينة إلى أن أجد لك خازناً نقى اليدين » . قال الملك مأخوذاً وهو يقبله : « ما عسى أن تكون هذه السبيل ؟ » قال زديج : « إنما هى أن تدعو المرشحين لهذا المنصب جميعاً إلى الرقص ، وأيهم كان رقصه خفيفاً نشيطاً فأتمنه على بيت مالك » . قال الملك : « إنك لتمزح ، وإنها لطريقة رائعة يختار بها الأمين على بيت المال . ماذا ! أتزعم أن أحسن الناس وثباً وعبثاً بقدميه هو الخازن الأمين النقى ؟ » قال زديج : « لا أزعم لك أنه سيكون أمهر الخزان ، ولكنى أؤكد أنه سيكون أعظمهم حظا من الأمانة . » وكان زديج يقول هذا فى ثقة وحزم ، حتى خيل إلى الملك أن لديه سرا خارقاً يعرف به دخائل المديرين للأموال . قال زديج : « إنى لا أحب الخوارق ، وقد ضقت دائماً بأصحابها وبالكتب التى تخوض فيها . فاذا أذنت جلالتك لى فى تنظيم الامتحان الذى أقترحه فستعلم أن السر يسير لا عسر فيه ولا التواء . » وقد دهش نابوسان ملك سرنديب حين سمع أن هذا السر يسير سهل أكثر مما كان خليقاً أن يدهش لو قيل له إن السر خارق لقوانين الطبيعة . قال لزديج : « هو ذاك ، فنظم الامتحان كما تشاء . » قال زديج : « دعنى أفعل وستربح من هذا الامتحان أكثر مما تقدر . » وفى اليوم نفسه أعلن باسم الملك أن من يرشح نفسه لإدارة بيت المال للملك نابوسان بن نوسناب فعليه أن يتخذ ثوباً من حرير رقيق ، وأن يسعى إلى قصر الملك فى اليوم الأول من شهر التمساح . وقد سعى المرشحون إلى القصر وكان عددهم أربعة وستين رجلا ، وكانت قد أعدت فى الحجرة المجاورة جوقة موسيقية . وقد أعد للرقص كل شئ ولكن باب الحجرة ظل مغلقاً ، وكان من أراد الوصول إلى الحجرة سلك إليها ممرا ضيقاً مظلماً بعض الشئ . وأقبل حاجب فقاد المرشحين واحداً فى إثر واحد إلى الحجرة من هذا الممر ، وجعل يترك كل واحد منهم فيه منفرداً دقائق . وكان الملك قد عرف سر زديج فعرض كنزه كله فى هذا الممر . فلما انتهى المرشحون جميعاً إلى الحجرة أمر الملك بترقيصهم . ولم ير أحد قط راقصين رقصوا فى غير ظرف ولا خفة كهؤلاء الناس الذين كانوا يرقصون وقد خفضوا رءوسهم وحنوا ظهورهم وألقوا أذرعهم بجيوبهم ، وكان زديج يقول همساً :

« يا لهم من خونة ! » وكان واحد منهم ليس غير ، يرقص رقصاً خفيفاً مرفوع الرأس مطمئن الخط مستقيم القد ممدود الذراعين ثابت الساقين . وكان زديج يقول : « يا له من رجل شريف ! يا له من رجل كريم ! » وقد قبل الملك هذا الراقص المجيد وجعله على خزائنه وعوقب الآخرون وفرضت عليهم الغرامات فى أدق العدل وأقومه ؛ فقد كان كل واحد منهم أثناء اجتيازه للممر قد ملأ جيوبه حتى أثقله ما حمل ، فلم يكن يرقص إلا فى جهد شديد . وقد حزن الملك على الطبيعة الانسانية ؛ إذ رأى بين أربعة وستين راقصاً ثلاثة وستين سارقاً . وسمى الممر المظلم دهليز الإغراء . ولو وقع هذا الحادث فى فارس لسيق الثلاثة والستون رجلا إلى العذاب ، ولو وقع هذا الحادث فى بلد آخر لحوكم هؤلاء الناس أمام محكمة ينفق عليها ثلاثة أمثال المال المسروق ، دون أن تعيد إلى خزانة الملك شيئاً . وفى بعض البلاد الأخرى كان هؤلاء السارقون يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم أحسن الدفاع ، وأن يصبوا غضب الملك على هذا الراقص الخفيف . أما فى سرنديب فلم يقض على هؤلاء الناس إلا بإغناء بيت المال ؛ لأن نابوسان كان رجلا حليما عفوًّا .

وكان كذلك عارفاً للجميل ، فأهدى إلى زديج مالا عظيما أعظم مما سرق أى سارق من خزانة الملك . وقد انتفع زديج بهذا المال ، فأرسل رسلا إلى بابل ليعلموا له علم أستارتيه . وقد اضطرب صوته حين أصدر أمره إلى الرسل وعاد دمه إلى قلبه ، وغشيت عينيه سحابة من ظلمة ، وكادت نفسه تفارقه ، وقد أبحر الرسل ورآهم زديج يبحرون ، فعاد إلى قصر الملك . ولما لم ير أحداً ظن نفسه فى خلوة فنطق لسانه بلفظ الحب . قال الملك : « الحب ! إنه هو الذى يشغلنى . لقد استطعت أن تعرف مصدر حزنى . إنك لرجل عظيم ، وإنى لأرجو أن تدلنى على الطريق التى أعرف بها امرأة أمينة شريفة كما دللتنى على الطريق التى اهديت بها إلى خازن أمين . » وقد ثاب زديج إلى نفسه ، ووعد الملك بأن يعينه على الحب كما أعانه على تدبير المال ، وإن كان أمر الحب أشد عسراً .

الفصل الخامس عشر

العيون الزرق

قال الملك لزديج : « الجسم والقلب . . . » فلم يستطع البابلى إلا أن يقاطع الملك قائلا : « ما أشد شكرى لك لأنك لم تقل العقل والقلب ! فإنا لا نسمع إلا هاتين الكلمتين فى أحاديث البابليين . وما أكثر ما نقرأ من الكتب التى تتحدث عن القلب والعقل ، وقد أنشأها قوم لا حظ لهم من قلب أو عقل . ولكن تفضل يا مولاى فأتمم حديثك . » قال نابوسان : « إن جسمى وقلبى قد خلقا للحب ، وقد رضى الأول ؛ ففى قصرى مئة امرأة قد خصصت لخدمتى ، وكلهن حسان طائعات سابقات إلى ما أريد ، بل محبات للذة أو متكلفات هذا الحب ابتغاء مرضاتى . ولكن قلبى بعيد أشد البعد عن السعادة . فقد تبينت أكثر مما ينبغى أن هؤلاء النساء يمتعن ملك سرنديب ، ولا يفكرن فى نابوسان . ولست أظن بنسائى خيانة أو إثماً ، ولكن أود لو أجد نفساً تخلص لى . ولو قد ظفرت بهذا الكنز لافتديته بهذه المئة من الحسان اللاتى يمتعنى بسحرهن ، فانظر هل تجد فى هذه المئة من السلطانات واحدة أستطيع أن أثق بأنها تحبنى؟ »

فأجابه زديج على نحو ما أجابه حين ذكر له الخزّان : « مولاى ، دعنى أفعل ، وأذن لى فى أن أتصرف فى الكنوز التى عرضتها فى الممر ، وسأرفع إليك حسابها ولن تفقد منها شيئاً » . فترك له الملك الأمر كله . وتخير هو من بين أهل سرنديب ثلاثة وثلاثين رجلا كلهم أحدب ، وكلهم قد منى بقبح بشع ، وتخير كذلك ثلاثة وثلاثين من خدم القصر كلهم رائع الجمال ، وثلاثة وثلاثين كاهناً كلهم فصيح وكلهم قوى ، وترك لهم جميعاً الحرية فى أن يدخلوا على السلطانات فى مقاصيرهن ، وأتيح لكل أحدب أربعة آلاف دينار يغرى بها . فلم يمض اليوم الأول حتى كان الحدب جميعاً سعداء . أما خدم القصر الذين لم يكن لديهم ما يعطون إلا أنفسهم فلم ينتصروا إلا بعد يومين أو ثلاثة أيام .

أما الكهنة فقد وجدوا مشقة أشد ، ولكن ثلاثاً وثلاثين من الصالحات أسمحن لهم آخر الأمر . وكانت للملك نوافذ يشرف منها على هذه المقاصير ، فرأى هذا الامتحان كله وبلغ منه العجب أقصاه . وقد رأى تسعاً وتسعين من نسائه يسقطن بمنظر منه . وبقيت واحدة شابة حديثة لم يدن منها الملك قط . فأرسل إليها أحدب وأحدبان وثلاثة عرضوا عليها أكثر من عشرين ألف دينار . ولكنها ثبتت على الشرف ، وضحكت من هؤلاء الحدب الذين قدروا أن المال يبلغهم ما يشاءون . ثم قدم إليها خادمان هما أروع الخدم جمالا ، فقالت إنها ترى الملك أجمل منهما . ثم أغرى بها أفصح الكهنة ثم أفواهم ، فوجدت أولها ثرثاراً ولم تلتفت إلى ثانيهما. وكانت تقول : « إن القلب هو كل شيء ، ولن أستسلم آخر الدهر لأحدب من أجل ماله ، ولا لشاب من أجل جماله ، ولا لكاهن من أجل فتنته ، إنما أحب نابوسان بن نوسناب ، وسأنتظر أن يتنزل فيحبني . » هنالك غلب الفرح والدهش والحنان على الملك ، فأخذ كل ما قدم الحدب إلى النساء من مال وقدمه هدية إلى السلطانة الشابة ، وكانت تسمى فاليد . ثم أهدى إليها قلبه وكانت خليقة به ، ولم ير قط زهرة الشباب أشد إشراقاً ولا سحر الجمال أشد فتنة للقلوب كما رآهما فيها . والدقة التاريخية لا تسمح بأن نخفى أنها لم تكن تحسن التحية ، ولكنها كانت ترقص رقصاً رائعاً ، وتغنى كبنات البحر ، وتتحدث كآلهة الجمال ، وكان حظها عظيما من الفضيلة والذكاء .

وقد أحبت نابوسان ، وعبدها هو ، ولكن عينيها كانتا زرقاويين ، وكانت زرقة عينيها مصدر شقاء عظيم . وكان فى بابل قانون قديم يحظر على الملك أن يحب امرأة من هؤلاء النساء اللاتى سماهن اليونانيون فيما بعد ذوات عيون المها . وكان زعيم الكهنة قد شرع هذا القانون منذ خمسة آلاف سنة ، أراد بذلك أن يستأثر بخليلة الملك الأول بجزيرة سرنديب ، وجعل هذا القانون جزءاً من دستور الدولة ؛ فما هى إلا أن تسعى طبقات الدولة كلها إلى الملك لترفع إليه احتجاجها . وجرى على الألسنة كلها أن ساعة المملكة قد اقتربت ، وأن الشر قد بلغ أقصاه ، وأن الطبيعة كلها معرضة لخطر عظيم ؛ لأن نابوسان بن نوسناب يحب عينين كبيرتين زرقاوين . وقد امتلأت المملكة بشكاة الحدب ورجال المال والكهنة والنساء السمر .

واتهز الشعب المتوحش الذى يسكن شمال الجزيرة فرصة هذا السخط

عام ، فأغار فجأة على مملكة نابوسان الخير ، وطلب الملك إلى رعيته مالا ، كتفى الكهنة الذين يملكون نصف الدولة برفع أيديهم إلى السماء ، وأبوا أن دخلوها فى خزائنهم ليعينوا الملك ، وأعلنوا صلوات موسيقية رائعة ، وتركوا دولة نهباً للمغيرين المتوحشين .

قال نابوسان : « أيها العزيز زديج أستقذى أنت من هذه الورطة أيضاً ؟ » ل زديج : « حبّا وكرامة ، ستظفر من أموال الكهنة بكل ما تريد . فدع أرض التى أقاموا عليها قصورهم ودافع عن أرضك وحدها . » وقد استجاب بوسان إلى زديج ، فما أسرع ما أقبل الكهنة إليه ضارعين يلتمسون معونته . قد أجابهم الملك بصلاة موسيقية رائعة توسل فيها إلى السماء أن تحمى أرضهم ن العدوان . هناك قدم الكهنة أموالهم ، وانتهى الملك بالحرب إلى غاية سعيدة . كذلك جر زديج على نفسه بمشورته الحكيمة الموفقة وخدمته العظيمة داوة لا هوادة فيها من أكبر رجال الدولة . فأقسم الكهنة والنساء السمر يهلكنه ، وتحالف الحدب ورجال المال على أن ينغصوا عليه الحياة . وما زالوا ه حتى شككوا فيه الخير نابوسان . وقد قضى زرادوشت بأن ما يؤدى من خدمة قل فى حجرة الانتظار ، وبأن الشك والريبة ، ينفذان إلى ماوراء الأبواب . كان كل يوم يتكشف عن اتهام جديد . فأما التهمة الأولى فتدفع ، وأما التهمة لثانية فتمس مسا رفيقاً ، وأما الثالثة فتجرح ، والرابعة هى التى تقتل .

وكان زديج قد ارتاع لما رأى ، وكان قد باع تجارة صديقه سيتوك وحصل موالة ، فلم يفكر منذ ذلك الوقت إلا فى الرحيل ، وأزمع أن يذهب بنفسه يعلم علم أستارتيه . وكان يقول لنفسه : «إن أقمت فى سرنديب دفعنى الكهنة إلى العذاب . ولكن إلى أين أذهب ! سأكون رقيقاً فى مصر ، وسأحرق فى أكبر الظن إن ذهبت إلى بلاد العرب ، وسأشنق فى بابل . ومع ذلك يجب أن أعلم مصير أستارتيه ؛ فلنرتحل ولننظر ماذا ادّخر لى القضاء الكئيب . »

الفصل السادس عشر

قاطع الطريق

بلغ زديج الحدود التي تفصل بين بتراء وسوريا ، فرأى قصراً عظيما خرج منه أعراب مسلحون ، ورأى نفسه وقد أحيط به والأعراب من حوله يتصايحون : « كل ما معك من مال فهو لنا ، أما شخصك فلسيدنا . » وقد أجاب زديج فاستل سيفه ، وكان خادمه شجاعاً فصنع صنيعه . وما هي إلا أن يصرعا من الأعراب أول من تقدم إليهما ليضع عليهما يده ، ثم تضاعف العدد ، فلم يدهشهما ذلك وإنما أزمعا أن يموتا محاربين . وكان رجلان يقاتلان جماعة ضخمة من الناس وموقعة كهذه لا يمكن أن تطول . وكان صاحب القصر واسمه أربوجاد ينظر من إحدى النوافذ ، فلما رأى بلاء زديج ونجدته أحبه ؛ فنزل مسرعاً وأقبل حتى فرق عنه الجماعة وقال : « كل ما مر بأرضي فهو لي ، وكل ما وجدت بأرض غيري فهو لي أيضاً ، ولكني أراك رجلا شجاعاً ، فقد وضعت عنك ثقل هذا القانون العام . » ثم أدخله القصر ، وأمر أصحابه أن يحسنوا العناية به . فلما كان المساء دعاه إلى مائدته .

وكان سيد القصر رجلا من هؤلاء الأعراب الذين يسمون لصوصاً ، ولكنه كان أحياناً يأتي قليلا من الحسنات بين كثير من السيئات : كان يسرق في كثير من الطمع وحب المال ، وكان يعطي في كرم وسخاء . كان شجاعاً في الحرب ، حلو العشرة ، ماجناً على المائدة مرحاً في مجونه ، وكان على هذا كله شديد الصراحة . وقد أعجبه زديج إعجاباً شديداً ، وقد كان حديثه نشيطاً حيا فطال جلوسه إلى المائدة . ثم قال أربوجاد : « إني أنصح لك بأن تنضم إلى جندي ، فذلك خير ما تستطيع أن تصنع ؛ فان هذه المهنة لا بأس بها ، وجائز أن تصل ذات يوم إلى ما وصلت أنا إليه . » قال زديج : « هل لي أن أسألك منذ كم مارست هذه المهنة الشريفة ؟ » أجاب : « منذ شبيبتي الأولى ؛ فقد كنت

خادماً لعربى ماهر ، وكنت أبغض مكانى منه أشد البغض ، وكنت شديد الحنق لما كنت أرى من أن هذه الأرض التى سخرت للناس جميعاً لم يتح لى منها نصيب . فأفضيت بهمى إلى عربى شيخ ، فقال لى : يا بنى ، لا تيأس ، فقد كانت فى قديم الزمان حبة من رمل تشكو مر الشكوى من أنها ذرة ضئيلة فى الصحراء ، فلما مضت عليها سنون أصبحت ماسة ، وهى الآن أبهى ما يزدان به تاج ملك الهند . وقد أثر فىَّ هذا الحديث . كنت حبة الرمل ، فأزمعت أن أصبح ماسة . وقد بدأت فسرقت فرسين ، ثم جمعت حولى بعض الرفاق ، وتهيأت للسطو على صغار القوافل ، وكذلك ألغيت قليلا قليلا ما كان بين الناس وبينى من الفروق . وقد أخذت حظى من متاع هذه الدنيا ، ولعلى أن أكون نلت من الخير أضعاف ما احتملت من الحرمان . وقد ارتفعت مكانتى بين الناس وأصبحت أميراً قاطع طريق ، وأخذت هذا القصر عنوة . وقد هم حاكم سوريا أن ينتزعه منى ، ولكنى كنت قد بلغت من الغنى حدًّا لا أخاف معه شيئاً . ثم بسطت سلطانى على جزء عظيم من الأرض ، وعهد إلى أن أكون جابياً للإتاوة التى تؤديها بتراء إلى ملك الملوك . وقد جبيت الاتاوة ، ولكن لم أؤد منها شيئاً .

« وقد أرسل خازن بيت المال للملك مؤبدار فى بابل حاكماً ما ليشنقنى ، وقد أقبل هذا الرجل ومعه الأمر بشنقى ، وكان يعلم كل شئ ، وقد شنقت بين يديه الأشخاص الأربعة الذين استصحبهم لشنقى . ثم سألته ما عسى أن يغل عليه شنقى من المال ؟ قال : نحو ثلاث مئة دينار . فبينت له أنه يستطيع أن يكسب عندى أكثر من ذلك . ثم جعلته لصا مساعداً ، وهو الآن من خيرة رجالى . وإنك لخليق إن أطعتنى أن تنجح كما نجح . فلم تكن الظروف قط مواتية للسطو كما هى الآن بعد قتل مؤبدار . »

قال زديج : « قد قتل مودبار؟ وإلام صار أمر الملكة أستارتيه ؟ » قال أربوجاد : « لا أدرى ! وكل ما أعرفه هو أن مؤبدار قد جن ثم قتل ، وأن بابل قد أصبحت موطناً للجرائم ، وأن الدولة كلها قد ظهر فيها الفساد ، وأن هناك سبلا إلى العمل ، وأنى قد أبليت بلاء حسناً وحقيقاً بالاعجاب . » قال زديج : « ولكن أضرع إليك فى أن تنبئنى : ألا تعلم من أمر الملكة شيئاً ؟ » قال أربوجاد : « لقد حدثت عن أمير لأركانيا ، وأحسب أنها بين إمائه إن لم تكن قد قتلت فى الموقعة . ولكنى أحرص على الغنيمة منى على الأنباء . وقد أخذت

فى غزواتى نساء كثيرات وبعتهن جميعاً، وأنا أغالى بالحسان منهن دون أن أحتفظ بواحدة منهن أو أسأل عن أبنائهن . وليس من سبيل إلى شراء المراتب ، وإن الملكة القبيحة لخليقة ألا تجد مشترياً . ولعلى قد بعت الملكة أستارتيه ، ولعلها قد ماتت ، لا يعنينى شىء من ذلك ، وأنت خليق ألا تعنى بشىء من ذلك . »
وكان يقول ذلك ويمعن فى الشرب حتى اختلط عليه كل شىء . ولم يستطع زديج أن يعلم منه شيئاً .
فلبث ذاهلا واجماً قد أثقلته الهموم . وكان أربوجاد ممعناً فى شربه ، ملحا فى حديثه ، معلناً دائماً أنه أسعد الناس ، ملحا على زديج أن يجعل نفسه سعيداً مثله . ثم دفعته الخمر إلى نوم هادىء هنىء . وأنفق زديج ليلته مضطرباً أشد الاضطراب . وكان يقول لنفسه : « ماذا ! لقد جن الملك وقتل ! إنى لأرثى له أشد الرثاء . لقد مزقت الدولة ، وقاطع الطريق هذا سعيد . يا للحظ ! يا للقضاء! إن اللص لسعيد ، وإن أجمل من صورت الطبيعة يمكن أن يكون قد مات أبشع الموت ، أو أن يكون قد كتبت عليه حياة شر من الموت ! أى أستارتيه إلام صار أمرك ؟ »
فلما أسفر الصبح جعل يسأل كل من لقيه فى القصر ، ولكن الناس جميعا كانوا عنه فى شغل فلم يرجع عليه أحد جواباً . وكان القوم قد أغاروا وغنموا أثناء الليل ، فكانوا يقتسمون الغنائم . وكل ما استطاع أن يظفر به فى هذا الاضطراب والاختلاط هو الإذن له بالسفر ، فأسرع إلى الرحيل غارقاً فى تفكيره الأليم .
ومضى زديج أمامه مضطرباً قلقاً قد شغل عقله بالبائسة أستارتيه وبملك بابل ، وبخليله كادور ، وباللص السعيد أربوجاد ، وتلك المرأة الجامحة التى اختطفها البابليون على حدود مصر ، ثم كل المصاعب والمصائب التى ألحت عليه .

الفصل السابع عشر

الصائد

فلما كان على مراحل من قصر أربوجاد وجد نفسه على شاطئ جدول صغير وهو يندب حظه و يرى أنه صورة صادقة للشقاء. ولكنه رأى غير بعيد منه صائداً نائماً على الشاطئ ممسكاً فى فتور وبيد كسلى شبكته التى كان كأنه يهملها وقد رفع عينيه إلى السماء وهو يقول:

— إنى لأشقى الناس جميعاً، ما فى ذلك شك. لقد كنت عند أهل بابل أعظم باعة الجبن الأبيض، ثم حل بى الخراب. ولقد كانت زوجى أجمل امرأة أتيحت لرجل وقد خانتنى. وقد بقيت لى دار ضئيلة حقيرة، فرأيتها تنهب وتدمر، وأنا الآن لاجئ إلى كوخ صغير لا أجد سبيلا إلى الرزق إلا الصيد، ولكن لا أظفر بسمكة واحدة. أيتها الشبكة لن ألقيك فى الماء بل سألقى نفسى فيه.

ثم ينهض ويسعى فى هيئة الرجل الذى يريد أن يلقى نفسه فى الماء ليختم حياته.

قال زديج لنفسه: «ماذا؟ أفى الناس من يعدل شقاؤهم شقائى!» ثم كان نشاطه إلى إنقاذ هذا الرجل سريعاً كخاطره هذا، فيجرى إليه فيمسكه ويسأله فى لهجة يشيع فيها الرفق والحنان والتعزية. والناس يزعمون أن الشقاء يخف على الانسان إذا لم يكن وحيداً. ولكن مصدر ذلك فيما يقول زرادوشت ليس هو الدهاء، وإنما هى الحاجة، فالانسان يشعر حينئذ بأنه مجذوب إلى إنسان شقى كما يجذب النظير إلى نظيره، بحيث يصبح ابتهاج الرجل السعيد كأنه إهانة للبؤس. ولكن الشقيين إذا التقيا كانا أشبه بشجيرتين تعتمد كل واحدة منهما على صاحبتها فتثبتان بذلك للعاصفة.

قال زديج للصياد: «لماذا تستسلم للشقاء؟» قال الصياد: «لأنى لا أجد

لى منه مخرجاً . لقد كنت أرفع الناس مكانة فى قرية دير لباك قريباً من بابل ، وكنت أصنع مستعيناً بامرأتى أجود ما فى الدولة من الجبن الأبيض ، وكانت الملكة أستارتيه والوزير المشهور زديج يحبان هذا الجبن أشد الحب . وقد قدمت إلى قصريهما ست مئة قطعة منه . وذهبت ذات يوم إلى المدينة لأقبض الثمن ، فلما وصلت إلى بابل عرفت أن الملكة وزديج قد استخفيا . فأسرعت إلى قصر زديج ولم أكن عرفته قط ، وإذا أنا أرى جند صاحب الخزانة ومعهم أمر ملكى، ينهبون القصر ويدمرونه كأحسن ما يكون النهب والتدمير .فأسرعت إلى مطبخ الملكة ، وهنالك أنبأنى بعض القائمين على طعامها أنها ماتت وقال آخرون إنها فى السجن ، وزعم آخرون أنها لاذت بالفرار . ولكنهم جميعاً أكدوا لى أن ثمن الجبن لن يؤدى إلىَّ . فذهبت ومعى امرأتى إلى الأمير أوركان ، وكان أحد عملائى ، وطلبت إليه أن يحمينا من هذه المحنة . فمنح حمايته لامرأتى ورفض أن يمنحنى إياها ، وكانت أنصع بياضاً من هذا الجبن الذى كان أصل شقائى ، ولم يكن إشراق الأرجوان الذى تصدره مدينة صور أشد بهجة مما كان يشرب بياضها من الحمرة . وهذا هو الذى أغرى أوركان باحتجازها وطردى من قصره . فكتبت إلى امرأتى العزيزة رسالة من بلغ به الحزن حد اليأس . فقالت لمن أدى إليها الرسالة : « إنى لا أعرف صاحبها ! لقد سمعت الناس يتحدثون عنه ، يقال إنه يصنع جبناً متقناً فليحمل إلىَّ بعض هذا الجبن وليؤدى إليه ثمنه . »

« فلما اشتد بى الشقاء أردت أن ألجأ إلى القضاء . ولم يكن بقى لى إلا ستة مثاقيل من ذهب ، فلم يكن بد من أن أدفع اثنين منها إلى رجل القانون الذى استشرته ، واثنين للنائب الذى تولى قضيتى ، واثنين لأمين القاضى الأول . فلما فرغت من هذا كله لم تكن قضيتى قد ابتدئت ، وكنت قد أنفقت من المال أكثر مما يساوى جبنى ومما تساوى امرأتى . فعدت إلى قريتى وأنا أريد أن أبيع دارى لأسترد امرأتى .

« وكانت دارى تقوَّم بستين مثقالا من الذهب ، ولكن الناس كانوا يروننى فقيراً حريصاً على البيع . فساومنى أول من عرضت عليه الدار ثلاثين مثقالا ، وعرض علىَّ الثانى عشرين والثالث عشرة . وكنت مستعدا لإمضاء البيع لكثرة ما كان يشغلنى عن التبصر فى أمرى . ولكن أمير أركانيا

أقبل مغيراً على بابل ودمر فى طريقه كل شىء، ونهبت دارى أول الأمر ثم أشعلت فيها النار.

« فلما فقدت مالى وامرأتى ودارى أويت إلى هـذه الأرض حيث ترانى، وحاولت أن أعيش من صناعة الصيد. ولكن السمك يسخر منى كما يسخر منى الناس فلا آخذ منه شيئاً. وقد كاد الجوع أن يهلكنى، ولولا أنت أيها المعزى الكريم لأغرقت نفسى فى هذا النهر. »

لم يسق الصياد قصته هذه على نسق واحد؛ فقد كان زديج يقاطعه من وقت إلى وقت متأثراً محزوناً قائلا: « ماذا؟ ألا تعلم شيئاً عن مصير الملكة؟ » كان الصياد يجيبه: « لا يا سيدى! ولكنى أعلم أن الملكة وزديج لم يؤديا إلىّ ثمن الجبن، وأن امرأتى قد أخذت منى، وأنى قد صرت إلى اليأس. » قال: « أنا أزعم أنك لن تفقد مالك كله؛ فقد سمعت الناس يتحدثون عن زديج هذا وهو رجل شريف، وأنه إذا عاد إلى بابل كما يأمل أن يعود إليها لؤد إليك أكثر مما لك عنده. أما امرأتك التى ليست على هذا الحظ من الوفاء فانى أنصح لك أن تتخذ مكانها زوجاً أخرى. صدقنى وعد إلى بابل، وسأبلغها قبل أن تصل أنت إليها، فأنا فارس وأنت راجل. فاذا بلغت المدينة فاذهب إلى كادور المشهور وقل له إنك لقيت صاحبه فى بعض الطريق وانتظرنى عنده حتى ألقاك. إمض فعسى ألا تكون شقيا دائماً. »

ثم مضى زديج قائلا: « أيها القوى العظيم أوروزماد إنك لتسخرنى لتعزية هذا الرجل، فمن عسى أن تسخر لتعزيتى؟ » قال ذلك ودفع إلى الصياد نصف المال الذى احتمله من بلاد العرب كلها، وجعل الصياد الدهش السعيد يقبل رجليه ويقول: « إنما أنت ملك منقذ. »

وكان زديج مع ذلك يطلب الأنباء ويذرف الدموع. قال الصياد: « ماذا يا سيدى! أيمكن أن تكون شقيا إلى هذا الحد وأنت الذى يبذل المعروف؟ » قال زديج: « إنى لأشقى منك مئة مرة. » قال الصياد: « ولكن كيف يمكن أن يكون من يعطى أشد شقاء ممن يأخذ؟ » قال زديج: « لأن معظم شقائك يأتى من الحاجة، أما شقائى فمصدره القلب. » قال الصياد: « أيمكن أن يكون أوركان قد اغتصب منك زوجك؟ » فأثارت هذه الكلمة فى نفس زديج ذكرى مغامراته كلها، وجعل يعدد ما ألم به من المصائب،

مبتدئاً بكلبة الملكة ومنتهياً بوصوله إلى قصر أربوجاد . ثم قال للصياد : « إن أوركان خليق أنْ يعاقب ، ولكن العادة جرت بأن أمثاله هم أحسن الناس حظا . ومهما يكن من شئ فامض إلى قصر السيد كادور ، وانتظرنى هناك . » ثم افترقا ، ومضى الصياد يثنى على حظه ، وعاد زديج يلعن حظه لعناً .

الفصل الثامن عشر

الباسليك

وانتهى زديج إلى مرج جميل ، فرأى جماعة من النساء يبحثن عن شئ ويمعنّ فى البحث . فاستباح لنفسه أن يدنو من إحداهن وسألها : ألا يستطيع أن يشرف بمعونتهن على التماس ما يبحثن عنه . قالت السورية : « إياك أن تفعل ؛ فان ما نلتمسه لا ينبغى أن يمسه إلا النساء . » قال زديج : « هذا شئ غريب ، هل لى أن أسألك عن هذا الذى لا ينبغى أن يمسه إلا النساء؟ » قالت : « إنه الباسليك . » قال زديج : « الباسليك يا سيدتى ! وفيم تبحثن عن الباسليك ؟ » قالت السورية : « إنما نبحث عنه لمولانا أوجول صاحب هذا القصر الذى تراه على شاطئ النهر فى أقصى المرج ، فنحن إماؤه ، وقد أصابته علة فوصف له الطبيب الباسليك مطبوخاً فى ماء الورد . وهذا الحيوان نادر لا يستسلم إلا للنساء ؛ فقد أزمع مولانا أوجول أن يتزوج ممن تظفرُ له بالباسليك ، فدعنى أبحث إن شئت ؛ فقد ترى ما أتعرض له إن ظفرت إحدى صاحباتى من دونى بالباسليك . »

وقد ترك زديج هذه السورية وصاحباتها يبحثن عن الباسليك ، ومضى فى المرج يسعى أمامه . حتى إذا بلغ شاطئ الجدول رأى سيدة أخرى مستلقية لا تبحث عن شئ ، وكان قدها يظهر فخما وقد ألقى على وجهها نقاب ، وكانت منحنية نحو الجدول ترسل من فمها زفرات عميقة . وقد أخذت بيدها عوداً صغيراً جعلت تخط به حروفاً على الرمل الدقيق المنبسط بين العشب والجدول . وقد

أحس زديج الحاجة إلى أن يتعرف ما كانت هذه السيدة تخط من حروف؛ فدنا وتبين حرف الزاى، ثم حرف الألف، ثم ظهر حرف الدال، فأخذته رعدة، ولم يبلغ الدهش من أحد قط مابلغه منه حين رأى الحرفين الأخيرين من اسمه. فلبث ساعة ساكناً، ثم قطع الصمت بصوت متهدج قائلا: «أيتها السيدة الكريمة، عفوك عن غريب بائس إذا اجترأ فسألك بأى مصادفة مدهشة يجد هنا اسم زديج.» فلما سمعت السيدة هذا الصوت، وهذه الألفاظ رفعت نقابها بيد مرتعدة، ثم نظرت إلى زديج، ثم صاحت صيحة فيها الحنان والدهش والفرح، ثم صرعتها العواطف المختلفة التى أخذت نفسها من كل وجه فخرت مغشيا عليها بين ذراعيه. وكانت هذه السيدة هى أستارتيه، هى ملكة بابل، هى التى كان زديج يعبدها ويلوم نفسه على عبادتها، هى التى بكى عليها ما بكى، وخاف عليها ما خاف. فظل ساعة لا يملك من أمر نفسه شيئاً، وقد وجه لحظه إلى عينى أستارتيه اللتين، كانتا قد أخذتا تتفتحان فى فتور وخجل وحنان. هنالك صاح زديج: «أيتها القوة الخالدة التى تدبر مصير الناس، أيمكن أن تردى إلىّ أستارتيه؟ فى أى زمان فى أى مكان، فى أى حال ألقاها.» ثم جثا أمام أستارتيه ومرغ جبهته فى التراب عند قدميها. فتنهض ملكة بابل وتجلسه إلى جانبها على شاطئ الجدول، ثم تمسح غير مرة عينيها اللتين كانتا لا تجفان إلا لتستأنفا سكب الدموع. وكانت تستأنف عشرين مرة حديثها الذى كان يقطعه الأنين. وكانت تسأله عن المصادفة التى جمعت بينهما، ثم تصرفه عن الرد عليها بأسئلة أخرى تلقيها عليه. وكانت تبدأ قصة آلامها ثم تقطع ذلك لتعرف من آلام زديج ما كانت تجهل. ثم انتهيا آخر الأمر إلى تهدئة ما سيطر على نفسيهما من اضطراب. وقص زديج عليها فى حديث موجز ما ألم به من الخطوب. ثم قال: «ولكن أيتها البائسة العزيزة كيف أتيح لى أن ألقاك فى هذا المكان المنعزل فى زى الإماء مرافقة نساء أخريات يبحثن عن الباسليك ايطبخ فى ماء الورد تنفيذاً لأمر الطبيب؟»

قالت الحسناء أستارتيه:

— سأدعهن يبحثن عن الباسليك، وسأنبئك بكل ما احتملت وبكل ما أتجاوز عنه للأقدار بعد أن أتاحت لى لقاءك. لقد علمت أن الملك زوجى

قد أنكر أن تكون أحب الناس إلى النفوس . ومن أجل هذا أزمع ذات ليلة أن يشنقك ويسمنى . وقد علمت كيف أذن الله للقزم الأخرس أن ينبئنى بما دبر الملك العظيم . وما كاد الوفى كادور يكرهك على أن تطيع أمرى وتفر من بابل حتى دخل على بعد أن نفذ إلى القصر من باب سرى . ومن هناك اختطفنى وذهب بى إلى معبد أوروزماد حيث خبأنى أخوه الكاهن فى جوف تمثال عظيم تستقر قاعدته عند أساس المعبد ، ويبلغ رأسه قبته . هنالك أقمت كالمدفونة . ولكن الكاهن كان يخدمنى ويوفر لى كل حاجاتى بحيث لم ينقصنى شئ مما لابد منه . ثم لم يسفر الصبح حتى دخل غرفتى صيدلى الملك يحمل شراباً مزاجه سم ناقع من البنج والأفيون والشوكران والخربق وخانق الذئب . وذهب موظف آخر إلى قصرك ومعه حبل من حرير أزرق ، فلم يوجد منا أحد . وأزمع كادور أن يخدع الملك نأقبل إليه يشكونى ويشكوك ، وزعم أنك اتخذت طريقك إلى الهند ، وأنى اتخذت طريقى إلى مصر، فأرسل السعاة فى أثرك وفى أثرى .

« وكان الذين يطلبوننى لا يعرفوننى . ولم أكن قد أظهرت وجهى قط إلا لك بمحضر من الملك وبأمره . فمضوا يطلبوننى على هدى الصورة التى وصفت لهم عليها ، فصادفوا على حدود مصر امرأة لها قامتى ، ولعلها أن تكون أجمل منى . وكانت باكية هائمة . فلم يشكوا فى أنها ملكة بابل ، فحملوها إلى مؤبدار . فلما رأى الملك خطأهم أخذه غضب عظيم ، ولكنه تأمل ملامح هذه المرأة ، فرأى جمالها وبهجتها ، فسكت منه الغضب وأسرع إليه العزاء .وكانت هذه المرأة تسمى ميسوف وقيل لى بعد ذلك إن هذا الاسم معناه عند المصريين الجامحة الحسناء . وكانت جامحة حقا ، ولكن مهارتها لم تكن أقل من جموحها، وقد أعجبت مؤبدار وتسلطت عليه ، حتى أعلن أنها أصبحت له زوجاً . وهنالك ظهر خلقها كله ، فاندفعت فى غير خوف إلى كل ما أوحى إليها خيالها من آيات الجنون . وقد أرادت أن تكره عظيم الكهنة ، وكان شيخاً كبيراً قد أخذه النقرس ، على أن يرقص بين يديها ، فلما أبى اضطهدته أشد الاضطهاد . وقد أمرت صاحب خيلها أن يصنع لها كعكة من الحلوى . وقد اجتهد صاحب الخيل فى أن يقنعها بأنه ليس صاحب هذه الصناعة ، ولكنها أبت إلا أن يطيع ، ثم عاقبته بعد ذلك لأن كعكته أصابها بعض الحريق . وقد اختارت قزمها

لمنصب صاحب الخيل ، وجعلت سياسة الدولة إلى أحد خدم القصر . وكذلك حكمت مدينة بابل ، وكان الناس جميعاً يذكروننى آسفين . أما الملك الذى كان رجلا شريفاً مستقيما إلى اليوم الذى أزمع فيه أن يقتلنى ويشنقك ، فكان يظهر كأنما أغرق فضيلته فيما استأثر به من حب عظيم للجامحة الحسناء . فلما كان يوم العيد المقدس سعى إلى المعبد ، ورأيته جاثياً أمام التمثال الذى كنت أستخفى فيه وهو يستنزل عطف الآلهة على ميسوف ، فرفعت صوتى صائحة به : « إن الآلهة يأبون أن يسمعوا لملك أصبح طاغية ، وهمّ أن يقتل امرأة عاقلة ليتزوج مكانها امرأة خرقاء . » وقد صدم مؤبدار بهذا الكلام حتى اختلط عقله. فكان الوحى الذى ألقيته وطغيان ميسوف كافيين ليفقد الرجل صوابه فلم تمض أيام حتى انتهى إلى الجنون .

« وكان جنونه الذى رأى الناس فيه عقاباً من السماء أول بوادر الثورة. فثار الناس وطاروا إلى أسلحتهم ، وأصبحت بابل التى طال عهدها بالبطالة والترف ميداناً لحرب أهلية منكرة ؛ فأُخرجت من جوف التمثال ووضعت على رأس أحد الأحزاب . وأسرع كادور إلى ممفيس ليردك إلى بابل . ولكن أمير اركانيا لم يكد يعلم بهذه الأحداث حتى أقبل بجيشه ، فكون حزباً ثالثاً فى بلاد الكلدانيين وقد هجم على جيش الملك فأسرع الملك إلى لقائه فى حماقته المألوفة ومعه مصريته الخرقاء . فقتل مؤبدار مطعوناً ؛ وسقطت ميسوف بين أيدى المنتصرين . وأراد سوء الحظ أن يأخذنى أنا أيضاً جماعة من جند اركانيا وأن أقاد أمام الأمير فى نفس الوقت الذى قيدت إليه فيه ميسوف . وقد يتملقك فيما أظن أن تعلم أن الأمير وجدنى أجمل من المصرية ، ولكن قد يسوءك أن تعلم أنه أضافنى إلى حريمه ، وقال لى فى عزم وتصميم إنه سيسعى إلىّ متى فرغ من غارة كان يريد أن يتمها ، فقدّر ألمى . لقد انقطعت الأسباب بينى وبين مؤبدار ، وأصبح من الممكن أن أقترن بزديج ، وهذه الأقدار تسلمنى إلى أمير متوحش.وقد أجبته مع كل الكبرياء التى تتيحها لى منزلتى وعواطفى . لقد سمعت دائماً أن السماء تمنح أمثالى من الناس مزية تتيح لهم إذا نطقوا بكلمة أو نظروا نظرة ، أن يردوا إلى الضعة والاستخذاء كل جرئ يحاول أن يريدهم بسوء . وكنت أتحدث حديث الملكة . ولكنى عوملت معاملة الوصيفة. فلم يلتفت الاركانى إلى ، وإنما قال لخصيه الأسود إنه يجدنى وقحة ولكنه

يرانى حسناء . ثم أمره أن يحسن العناية بى ويحملنى على خطة الخطايا فى الطعام والشراب ، حتى يردنى رخصة مشرقة ، وحتى أصبح أهلا لرضاه حين يتفضل فيمنحنى قربه . وقد أعلنت إليه أنى سأقتل نفسى ، فأجاب ضاحكاً أن الناس لا يقتلون أنفسهم ، وأنه خبير بهذا النحو من الإباء ، ثم انصرف عنى وكأنه رجل قد وضع ببغاء فى حظيرته التى خصصها لغرائب الحيوان . فالى أى هوان دفعت أكبر ملكات الأرض ! بل إلى أى حال دفع هذا القلب الذى كان موقوفاً على زديج ! »

هنالك جثا زديج أمامها وبلل ركبتيها بدموعه . فأنهضته أستارتيه فى حنان ومضت قائلة :

— فكنت أرى نفسى أسيرة عند همجى متوحش ، وخصما لامرأة مجنونة قد حبست معى . وقد حدثتنى بقصتها فى مصر . وقد عرفت من الملامح التى ذكرتها ومن وصف النجيب الذى كان يحملك ، ومن كل الظروف التى أحاطت بهذه القصة أن زديج هو الذى قاتل من أجلها . ولم أشك فى أنك كنت مقيما فى ممفيس ، فأزمعت أن آوى إليها . فقلت لها : « أيتها الحسناء ميسوف إنك أنضر منى جمالا ، وأقدر منى على تلهية أمير اركانيا . أعينينى على الهرب فسيتيح ذلك لك أن تتسلطى وحدك ، وأن تسعدى بالتخلص من منافسة . » وقد دبرت ميسوف معى وسيلة الهرب ، فانسللت ذات يوم ومعى خادم مصرية .

« وكنت قد قاربت بلاد العرب ، ولكن قاطع طريق يسمى أربوجاد يعدو علىّ فيخطفنى فيبيعنى لبعض التجار ، ويحملنى هؤلاء إلى هذا القصر الذى يقيم فيه السيد أوجول . وقد اشترانى دون أن يعرف من أكون . وهو رجل صاحب لذة لا يعنيه إلا أن يعكف على الطعام ، وهو يعتقد أن الله لم يخلقه إلا ليجلس إلى المائدة . وهو ضخم قد تجاوزت ضخامته الحد حتى لتوشك أن تخنقه ، وليس لطبيبه عنده خطر إذا حسن هضمه لما يلتهم ، ولكنه يحكمه حكم الطاغية إذا أسرف على نفسه فى الأكل . وقد ألقى فى روعه أنه سيبرأ من علته إذا أكل الباسليك مطبوخاً فى ماء الورد . وقد وعد السيد أوجول بالزواج أى إمائه تحمل إليه الباسليك . وها أنت ذا ترى أنى أتركهن يجهدن فى استحقاق هذا الشرف ، وما أعرف أنى زهدت فى الظفر بالباسليك بمقدار ما زهدت فيه منذ أذنت السماء لى فى أن ألقاك . »

ثم أفضى كل من العاشقين إلى صاحبه بكل ماتوحيه العواطف التى طال كبتها ، وبكل ماتلهم الآلام والحب للقلوب الكريمة من حنان نبيل ، ورفعت الأرواح الموكلة بالحب حديثهما حتى بلغت به فلك الزهرة .

وقد عاد النساء إلى القصر دون أن يجدن شيئاً . ومثل زديج بين يدى أوجول متحدثاً إليه على هذا النحو : « لتهبط العافية الخالدة من السماء لتعنى بحياتك كلها . إنى طبيب، سمعت بعلتك فأسرعت إليك أحمل الباسليك مطبوخاً فى ماء الورد . ولست أطلب لذلك ثمناً ان اقترن بك ، وإنما أطلب أن تعتق أمة شابة بابلية حملت إلى هذا القصر منذ أيام ، وأنا زعيم أن أكون فى مكانها من الرق إن لم أشف الأمير العظيم أوجول . »

وقد قبل عرض زديج ، وسافرت أستارتيه إلى بابل ومعها خادمة ، وقد وعدته بأن ترسل إليه فى أقرب وقت رسولا ينبئه بكل ما يجرى فى بابل من الأحداث . وكان وداعهما مفعما بالحنان كما كان لقاؤهما .

وقد جاء فى كتاب الزند العظيم أن ساعة اللقاء وساعة الوداع هما أخطر ساعات الحياة . وكان زديج يحب الملكة بمقدار ما كان يؤكد لها حبه ، وكانت الملكة تحب زديج أكثر مما كانت تعلن إليه .

ثم قال زديج لأوجول : « سيدى إن الباسليك الذى أحمله لا يؤكل وإنما تنالك خصائصه من طريق المسام . وقد وضعته فى قربة منفوخة مغطاة بجلد رقيق ، فيجب أن تدفع هذه القربة بكل ماتقدر عليه من قوة وأن أردها عليك. وإذا مضينا على هذا النحو أياماً قليلة فسترى إلى أى حد يستطيع فنى أن يصل . » فلما كان اليوم الأول وجد أوجول مشقة عظيمة فى التنفس حتى ظن أنه ميت من الإعياء . ولما كان اليوم الثانى تعب أقل من أمس ونام أحسن مما نام أمس . ولم تمض أيام ثمانية حتى استرد كل قوته وخفته ومرحه الذى ألفه فى أعوامه السعيدة . قال له زديج : « إنما لعبت بالكرة وأخذت نفسك بالقناعة ، فتعلم أن الباسليك لا يوجد فى الطبيعة ، وأن صحة الانسان رهينة بالقناعة والتمرين ، وأن الفن الذى يتيح للانسان أن يجمع بين الصحة والشره إنما هو فن خيالى يشبه حجر الفلاسفة وطوالع النجوم وسحر الكهان.»

وقد أحس طبيب أوجول بأن زديج قد أصبح خطراً بالقياس إليه ، فاتفق مع صيدلى القصر على أن يرسل زديج يلتمس الباسليك فى العالم الآخر . وكذلك

بعد أن عوقب زديج على إحسانه أصبح الآن معرضاً للموت لأنه أبرأ من العلة أميراً شرهاً . وقد دعى إلى وليمة فاخرة . وكان قد تقرر أن يوضع له السم فى الدور الثانى من أدوار المائدة . ولكنه فى الدور الأول تلقى كتاباً من الحسناء أستارتيه ، فترك المائدة ومضى لوجهه . وقد قال زرادوشت العظيم : « إن الانسان الذى تحبه غادة حسناء ينقذ دائماً من المشكلات فى هذه الحياة . »

الفصل التاسع عشر

المبارزة

كان استقبال الملكة فى بابل مليئاً بالعطف على ملكة حسناء بائسة . وكانت بابل فى ذلك الوقت تظهر هادئة مطمئنة ، فقد قتل أمير إركانيا فى بعض المواقع ، وقرر البابليون المنتصرون أن أستارتيه ستكون زوجاً للأمير الذى يختارونه ليكون لهم ملكاً . وقد أبوا أن يكون أرفع مكان فى العالم وهو مقام الذى سيقترن بأستارتيه ويصبح ملكاً على بابل موضوعاً للدسائس والكيد ، فأقسموا ليملكن على أنفسهم أعظم الناس حظا من الشجاعة والحكمة . وقد أنشئ على فراسخ من بابل ميدان عظيم أحاطت به مدرجات فخمة قد زينت أحسن زينة وأروعها ، وكان على المصطرعين أن يذهبوا إليه مدججين بالسلاح ، وكان لكل واحد منهم من وراء المدرجات بيت يعتزل فيه فلا يراه أحد ولا يرى أحداً . وكان عليهم أن يطاعنوا بالرماح أربع مرات ، وكان على الذين يتاح لهم أن يقهروا أربعة فرسان أن يصطرعوا فيما بينهم ، حتى إذا أتيح لأحدهم أن ينتصر على خصومه جميعاً ويصبح سيد الميدان أعلن أنه هو الفائز فى المسابقة ، ثم وجب عليه أن يأتى بعد أربعة أيام مدججاً بالسلاح ليحل الألغاز التى يعرضها عليه الكهان ، فاذا لم يوفق لحلها لم يرق إلى العرش ووجب استئناف المبارزة من جديد حتى تظفر المدينة بالمنتصر الذى يقهر الخصوم فى الميدان ، ويحل الألغاز أمام الكهنة ؛ لأن البابليين كانوا يرون ألا يملك عليهم إلا من كان شجاعاً حكيما .

وكان يجب أن تحرس الملكة فى أثناء هذه الأيام حراسة شديدة دقيقة، ولا يسمح لها إلا بأن تشهد المبارزة وقد ألقت على وجهها نقاباً، ولكن لا يؤذن لها أن تتحدث إلى أحد من المتنافسين حتى لا تكون محاباة ولا يقع جور.

بهذا كله كتبت أستارتيه إلى خليلها آملة أن يظهر فى سبيلها من الشجاعة والذكاء ما لا يستطيعه أحد غيره. وقد وصل زديج إلى شاطئ الفرات قبيل ذلك اليوم العظيم،وقد سجل شعاره بين شعار غيره من المتنافسين ساتراً وجهه مخفياً اسمه كما يقضى بذلك القانون، ثم ذهب إلى البيت الذى خصصته له القرعة. وكان صديقه كادور قد عاد إلى بابل بعد أن بحث عنه فى مصر بغير طائل، فأرسل إلى بيته لأمةً كاملة كانت الملكة قد بعثت بها إليه، وقاد إليه من عندها كذلك أجمل جواد من خيل فارس. وقد عرف زديج الملكة فى هديتها، فاستمد من هذه المعرفة قوة وثقة وأملا.

فلما كان الغد أقبلت الملكة فجلست تحت مظلة يزينها الجوهر، واكتظت المدرجات بالسيدات وبالرجال من جميع الطبقات، وظهر المتنافسون فى الميدان، وأقبل كل واحد منهم فوضع شارته عند قدم الكاهن الأعظم. ثم أجريت القرعة بين الشارات فكانت شارة زديج هى الأخيرة. وكان أول من تقدم سيد يدعى إيتوباد، وكان عظيم الثراء كثير الغرور قليل الشجاعة، أخرق قليل العقل؛ وكان خدمه قد ألقوا فى روعه أن رجلا مثله يجب أن يكون ملكا. فأجابهم: «إن رجلا مثلى يجب أن يملك.» فسلحوه من رأسه إلى قدمه. وكان يحمل لأمة مرصعة بالخضرة وعلامة خضراء ورمحاً تزينه شرائط خضر. وقد لاحظ الناس حين رأوا سياسته لفرسه أنه ليس هو الرجل الذى قدر له أن يستأثر بصولجان بابل. وقد استطاع أول فارس سعى إليه أن يزعجه عن مكانه، واستطاع الثانى أن يكبه على عجز فرسه وقد ارتفعت ساقاه فى الهواء وامتدت ذراعاه. وقد استطاع إيتوباد أن يستوى فى سرجه ولكن على نحو غريب أضحك منه الناس جميعاً. وأقبل الثالث فلم يتكلف استعمال رمحه وإنما مر إلى جانبه فأخذه من ساقه اليمنى وألقاه على الرمل إلقاء، وأسرع ساسة الميدان إليه ضاحكين فردوه إلى سرجه. ولكن المبارز الرابع يأخذه من ساقه اليسرى ويلقيه على الرمل من ناحيته الأخرى، ثم قيد تشيعه السخرية إلى بيته حيث كان يجب أن ينفق الليل بحكم القانون.

وكان يقول وهو يسعى ظالعاً : « أى مغامرة بالقياس إلى رجل مثلى ! »

وأدى الفرسان الآخرون واجبهم كأحسن ما استطاعوا ، فكان منهم من هزم مبارزين متتابعين ومنهم من وصل إلى أن يهزم ثلاثة . ولم ينتصر على أربعة إلا امير أوتام . ثم برز زديج فأزعج عن خيلهم فرساناً أربعة فى كل رشاقة ممكنة . ولم يبق إلا أن يعرف أيهما سيكون له الفوز : الأمير أوتام أم زديج . وكان الأول يحمل لأمة زرقاء مذهبة وعلامة من لونه ، وكانت لأمة زديج بيضاء . وكانت أمانى الناس كلهم مقسمة بين الفارس الأزرق والفارس الأبيض . وكان قلب الملكة يخفق ، وكانت تتوسل إلى السماء لتنصر اللون الأبيض .

وقد تبادل الفارسان الكر والفر فى خفة ورشاقة وتبادلا طعنات رائعات بالرماح ، وكانا جميعاً ثابتين فى سرجيهما ، حتى تمنى الناس كلهم إلا الملكة أن يكون لبابل ملكان . ثم أجهد الفرسان وانحطم الرمحان ، فعمد زديج إلى هذه الحيلة وهى أنه أسرع فاستدبر جواد الفارس الأزرق ثم وثب فأصبح رديفه على فرسه ، ثم أخذه من خصره فانتزعه من سرجه فألقاه على الأرض ، ثم يأخذ مكانه من السرج ويدور حول أوتام الملقى صريعاً على الأرض . هنالك ضجت المدرجات كلها : « الفوز للفارس الأبيض ! » ويستأثر الغضب بأوتام فينهض ويستل سيفه ، ويثب زديج عن فرسه والسيف مصلت فى يده ، وهاهما هذان فى الميدان يختصمان خصومة تنتصر فيها القوة مرة والخفة مرة أخرى ، وقد أخذ ريش خوذتيهما ومسامير مغفريهما وخرز درعيهما تتطاير إلى بعيد لعنف ما كانا يتبادلان من الضربات ، وكلاهما يضرب بحد السيف وعرضه عن يمين وعن شمال ، على الرءوس وعلى الصدور ، وهما يتأخران ويتقدمان ، ثم يتبادلان التحدى ، ثم يلتحمان ، ثم يأخذ كل منهما بصاحبه ثم ينعطفان كأنهما الحيتان ، ثم يهجم كل منهما على صاحبه كأنه لأسد ، والنار تتطاير فى كل لحظة من وقع ضرباتهما . ثم يثوب زديج إلى نفسه ساعة فيقف ثم يحتال ثم يمر إلى جانب أوتام فيلقيه على الأرض ويجرده من سلاحه ، ويصيح أوتام: « أيها الفارس الأبيض أنت وحدك أهل لعرش بابل . » وقد بلغ الفرح بالملكة أقصاه . ثم يقاد الفارس الأزرق والفارس الأبيض كل إلى بيته شأن المتنافسين جميعاً كما قضى بذلك القانون . وأقبل خدم خرس يحملون إليهم الطعام . . وتستطيع أن تقدر أن قزم الملكة الأخرس هو الذى حمل الطعام إلى زديج .

ثم خلى بينهما وبين النوم ليقبل المنتصر إذا كان الغد فيحمل شارته إلى الكاهن الأعظم ليمتحنها ويعرف صاحبها.

وقد نام زديج وإن كان عاشقاً ؛ لأن الجهد كان قد بلغ منه غايته. أما إيتوباد الذى كان بيته قريباً من بيت زديج فلم ينم ، وإنما نهض أثناء الليل ودخل بيت زديج فأخذ لأمته البيضاء وشارته وترك له لأمته الخضراء. فلما ذر قرن الشمس ذهب إلى الكاهن الأعظم وأعلن إليه أن رجلا مثله هو الفائز . ولم يكن الناس ينتظرون ذلك ، ولكن فوزه أعلن على حين كان زديج لا يزال مغرقاً فى نومه . وقد عادت أستارتيه إلى بابل دهشة قد ملأ الألم قلبها . وكانت المدرجات قد كادت تخلو من النظارة حين استيقظ زديج فالتمس سلاحه فلم يجد إلا هذه اللأمة الخضراء ، فاضطر إلى أن يدخل فيها لأنه لم يجد شيئاً آخر يستر به جسمه . وقد لبس هذا السلاح دهشاً مغضباً وتقدم فى أداته الغريبة هذه.

وجعل كل من بقى فى المدرجات والميدان يستقبلونه ساخرين منه يحيطون به ويواجهونه بالاهانة . ولم يلق أحد قط مثل مالقى من الاهانة المخزية . فنفد صبره وفرق الناس عنه بسيفه ، ولكنه كان حائراً لا يدرى ماذا يصنع. لم يكن يستطيع أن يرى الملكة ، ولم يكن يستطيع أن يطالب بلأمته البيضاء التى سرقت منه ، فلو قد فعل ذلك لفضح سر الملكة . وكذلك اجتمع عليه الألم والغضب والقلق ، وجعل يمشى على شاطئ الفرات مقتنعاً بأن القضاء قد كتب عليه شقاء محتوماً لا مخرج منه ، مستعرضاً فى نفسه مصائبه كلها من المرأة التى كانت تكره العور إلى نكبته فى سلاحه . وكان يقول لنفسه : « هذا جزائى لأنى استيقظت متأخراً . ولو قد نمت أقل مما نمت لأصبحت ملك بابل وزوج أستارتيه . وإذن فالعلم والأخلاق والشجاعة لم تنته بى إلا إلى الشقاء . » ثم أفلت منه شئ من الاعتراض على القدرة الإلهية ، وكاد يؤمن بأن العالم خاضع لقضاء قاس يظلم الأخيار ويسبغ النعمة على الفرسان الخضر . وكان مما يحزنه اضطراره إلى حمل هذه الأمة الخضراء التى عرضت صاحبها لكثير من السخرية . وما هى إلا أن يمر به بعض الباعة فيبيعه سلاحه بثمن بخس ويشترى منه ثوباً وقلنسوة . ويمضى فى هذا الزى مصاحباً شاطئ الفرات ناعياً على القدرة الالهية أنها تظلمه دائماً.

الفصل العشرون

الناسك

وقد لقى فى طريقه ناسكاً قد انتشرت لحيته على صدره ، وتدلت حتى بلغت حزامه . وكان فى يده كتاب يقرأ فيه معنيا أشد العناية . فوقف زديج وانحنى له فى إجلال . وقد رد الناسك تحيته فى وقار ورفق ، حتى رغب زديج فى أن يتحدث إليه . فسأله فى أى كتاب ينظر ؟ قال الناسك : « هو كتاب القضاء ، أتريد أن تقرأ فيه شيئاً ؟ » ثم وضع الكتاب فى يد زديج الذى جعل ينظر فيه دون أن يتبين حرفاً من حروفه على علمه المتقن بكثير من اللغات ، وكان هذا سبباً فى ازدياد حبه للاستطلاع . قال له هذا الأب الرحيم : « إنى لأراك شديد الحزن . » قال زديج : « واحسرتاه ما أكثر ما يحزننى ! » قال الشيخ : « أتأذن فى أن أصحبك لعلى أن أنفعك ؟ فقد استطعت أحياناً أن أشيع العزاء فى نفوس البائسين . » وقد أحس زديج شيئاً من الاحترام لمظهر الناسك ولحيته وكتابه ، ووجد فى حديثه نوراً ممتازاً ، وكان الناسك يتحدث عن القضاء والعدل ، والأخلاق ، والخير الأعظم ، وضعف الانسان ، والفضيلة والرذيلة ، فى بلاغة قوية مؤثرة ، حتى أحس زديج كأنما يجذبه إليه سحر لا يقهر . فألح عليه فى ألا يتركه حتى يبلغ بابل . قال الشيخ : « إنى أطلب إليك هذا الفضل . فأقسم لى بأوروزماد ألا تفارقنى إلى أيام مهما أفعل . » فأقسم زديج ومضيا معاً .

وانتهى المسافران مع المساء إلى قصر فخم . وهناك طلب الناسك الضيافة لنفسه وللشاب الذى يصحبه ، فأدخلهما البواب الذى كانت تظهر عليه شارات السيادة إلى القصر فى شئ من العطف المستخف . ثم قدما إلى رئيس الخدم ، فأظهرهما على جناح صاحب القصر ، ثم أذن لهما بشهود المائدة ، وأجلسا فى أقصاها دون أن ينزل صاحب القصر فيمنحهما طرفه ، ولكنهما طعما كما طعم غيرهما ، وأظهر الخدم لهما رقة وسماحة وسخاء . ثم قدم إليهما لغسل أيديهما

طست من الذهب مرصع بالزمرد والياقوت . ثم قيدا إلى حجرة جميلة أنفقا فيها الليل ، فلما كان الغد أقبل خادم فدفع إلى كل واحد منهما قطعة من ذهب ثم صرفهما .

فلما كانا فى الطريق قال زديج : «يخيل إلىّ أن صاحب القصر رجل كريم وإن كان فيه شئ من كبرياء ، وهو على كل حال حسن الضيافة . » وبينما كان يقول هذا الكلام رأى جيباً عريضاً كان يحمله الشيخ وقد انتفخ انتفاخاً عظيما ، فلما نظر تبين الطست الذهبى المرصع بالجوهر ، وقد سرقه الشيخ . فلم يجرؤ أول الأمر على أن يقول شيئاً ، ولكنه كان فى دهش مؤلم .

فلما انتصف النهار وقف الشيخ أمام دار صغيرة كان يسكنها رجل غنى بخيل ، فاستضافه ساعات من نهار ، فتلقاهما خادم شيخ أشعث لقاء خشناً ، ثم قادهما إلى الاسطبل ، وقدم إليهما شيئاً من زيتون فاسد وخبزاً رديئا وجعة حامضة . فأكل الناسك وشرب راضياً عن طعامه الغليظ ، كما رضى أمس عن طعامه ذاك الرقيق ، ثم اتجه إلى الخادم الشيخ الذى كان يراقبهما ليرى لعلهما يسرقان شيئاً وليستحثهما على الرحيل ، فوضع فى يده الدينارين اللذين تلقاهما مصبحاً ، وشكر له عنايته بهما . ثم قال : أرجو أن تتيح لى التحدث إلى سيدك . » فأدخلهما الخادم دهشاً . قال الناسك : « أيها السيد العظيم ، ليس يسعنى إلا أن أشكر لك فى خضوع نبل لقائك لنا . فتفضل بقبول هذا الطشت الذهبى آية على اعترافى بالجميل . » وقد كاد البخيل يصرع من الدهش . ولم يتح له الناسك أن يفيق من دهشه ، وإنما مضى مسرعاً يتبعه صاحبه الشاب . قال زديج : « ما هذا الذى أراه يا أبت ؟ ما أرى أنك تشبه غيرك من الناس ، إنك تسرق طستاً ذهبياً من أمير تلقانا أحسن اللقاء وتهبه لبخيل عاملك أحقر المعاملة ! » قال الشيخ : «تعلم يا بنى أن هذا الأمير العظيم الذى لا يستقبل الناس إلا غروراً ليظهرهم على ثرائه سيصبح منذ اليوم عاقلا حذراً . وسيتعود البخيل أن يكون مضيافاً فلا تدهش لشئ واتبعنى . » فلم يدر زديج أيصحب أعظم الناس حظا من الجنون أم أعظمهم حظاً من الحكمة . ولكن الناسك كان يتحدث فى ثقة وكان زديج مرتبطاً بقسمه فلم يسعه إلا أن يتبع الشيخ .

فلما كان المساء بلغا دارا متقنة البناء ، ولا يظهر عليها مايدل على الاسراف ولا ما يدل على البخل . وكان صاحب الدار فيلسوفاً قد اعتزل الناس وعكف

على الحكمة والفضيلة ، وكان على ذلك لا يحس مللا ولا سأماً . وكان قد راقه أن يقيم هذه الدار ، وأن يستقبل فيها الغرباء لا مستعلياً ولا مغروراً . فسعى من تلقاء نفسه إلى السائحين وقادهما إلى حجرة وثيرة ليستريحا . ثم أقبل بعد حين فدعاهما إلى مائدة نظيفة وطعام متقن ، وتحدث إليهما رفيقاً متحفظاً عن الثورة الأخيرة التى اضطربت لها بابل . وقد ظهر أنه مخلص للملكة أشد الاخلاص ، وأنه كان يتمنى لو ظهر زديج فى الميدان واستبق مع المستبقين ليظفر بالتاج . ثم قال : « ولكن الناس لا يستحقون أن يملك عليهم رجل مثل زديج » وكان زديج يحمر خجلا ويشعر بأن آلامه تتضاعف . وقد اتفق القوم أثناء الحديث على أن الأشياء فى هذا العالم لا تجرى على ما يحب الحكماء ، وقد أكد الناسك دائماً أن الناس لا يعرفون طرق القدرة الإلهية ، وأنهم يخطئون حين يحكمون على كلٍّ لا يعرفون إلا أيسر أجزائه .

ثم تحدثوا عن الشهوات . فقال زديج : « ما أشد خطرها ! » قال الناسك : « إنما الشهوات هى الرياح التى تنشر قلاع السفينة ، وهى تغرق السفينة أحياناً ، ولكن السفينة لا تستطيع أن تجرى من دونها . إن المرارة تدفع الانسان إلى الغضب ، وقد تجلب عليه العلة ، ولكن الانسان لا يستطيع أن يعيش بدونها . كل شىء فى هذه الأرض خطر ، وكل شىء فى هذه الأرض ضرورى لا بد منه . »

ثم تحدثوا عن اللذة ، وأثبت الناسك أنها منحة من الآلهة ، قائلا : « إن الانسان لا يستطيع أن يعطى الحس ولا الفكرة ، وإنما يتلقى كل شىء تأتيه اللذة والألم من غيره كما يأتيه شخصه هو . »

وكان زديج يعجب حين يرى رجلا قد أتى تلك الأعمال الغريبة يفكر على هذا النحو الدقيق .

فلما أخذ القوم بحظهم من سمر ممتع لذيذ قاد المضيف ضيفه إلى حجرتهما شاكراً لله أن أرسل إليه رجلين على هذا الحظ من الحكمة والفضيلة . ثم قدم إليهما شيئاً من مال بطريقة سمحة كريمة لا تؤذى النفوس . فاعتذر الناسك وودع مضيفه زاعماً أنه يريد أن يسافر إلى بابل قبل أن يشرق النهار . وكان وداعهم رقيقاً ، وكان زديج يشعر بشىء من الاحترام لهذا الرجل الحبيب إلى القلوب .

فلما صار الناسك وصاحبه فى حجرتهما أثنيا ثناء جميلا على مضيفهما . ثم أيقظ الشيخ رفيقه من آخر الليل قائلا له : « يجب أن نرحل ، ولكنى أرى قبل أن يستيقظ الناس أن أترك لهذا الرجل آية على ما أضمر له من حب وإكبار . » قال ذلك وأخذ مصباحاً فأشعل النار فى الدار . وقد روع زديج فجعل يصيح ، وهم أن يمنع الشيخ من اقتراف هذا الاثم المنكر . ولكن الناسك كان يجذبه بقوة لا تقاوم على حين كانت الدار تشتعل ؛ والناسك ينظر إليها من بعيد فى هدوء أى هدوء قائلا : « الحمد لله هذه دار مضيفى قد دمرت تدميراً . ما أسعد هذا الرجل ! » فلما سمع زديج هذا الكلام هم أن يضحك وأن يضرب الشيخ وأن يسبه وأن يمضى لوجهه . ولكنه لم يصنع من ذلك شيئاً ، وإنما خضع لسلطان الناسك وتبعه كارهاً إلى الرحلة الأخيرة .

وقد انتهت بهما هذه المرحلة إلى أرملة محسنة فاضلة ، يعيش معها فتى قريب لها فى الرابعة عشرة من عمره ، وكان جميلا محبباً وكان أملها الوحيد ، وقد ضيفتهما كأحسن ما استطاعت ، فلما كان الغد أمرت قريبها أن يصحب المسافرين إلى جسر قد قطع منذ حين فأصبح عبوره خطراً على الذين لا يعرفونه . ومضى الفتى أمامهما حفيًّا بهما . فلما بلغوا الجسر قال الناسك للفتى : « أقبل فانى أريد أن أشكر لعمتك صنيعها . » ثم يأخذ بشعره ويلقيه فى النهر . ويسقط الفتى ثم يطفو ثم يستخفى فى لجة الماء . هنالك لم يستطع زديج صبراً فصاح : « يا لك من وحش ! يا لك من مجرم لم ير الناس مثله ! » قال الناسك : « لقد وعدتنى أن تصبر على ما ترى . فتعلّم أن تحت هذه الدار التى دمرتها القدرة الإلهية كنزاً عظيما قد ظفر به صاحبها . وتعلّم أن هذا الفتى الذى قتلته القدرة الإلهية لو عاش لقتل عمته بعد عام ، ولقتلك أنت بعد عامين . » قال زديج : « من أنبأك بهذا أيها الهمجى ؟ وهبك قرأت هذا فى كتابك أمن حقك أن تقتل صبيا لم يسئ إليك ؟ »

وبينما كان البابلى يتكلم نظر فاذا الشيخ قد فقد لحيته وظهرت على وجهه ملامح الشباب ، وقد زال عنه ثوب الناسك ونبتت فى جسمه المهيب أجنحة أربعة . قال زديج ، وهو يجثو : « أى رسول السماء أيها الملك الإلهى فأنت إذن قد هبطت من أعلى عليين لتعلم إنساناً ضعيفاً هالكاً أن يذعن لسلطان القضاء الخالد . » قال الملك جسراد : « إن الناس ليقولون فى كل شئ دون أن يعلموا

شيئاً ، وقد كنت أشد الناس حاجة إلى أن تتعلم .» فاستأذنه زديج فى أن يتكلم : « إنى أتهم نفسى . ولكن أأجرؤ على أن أسألك أن تجلو لى شكاً يقوم بنفسى؟ ألم يكن إصلاح هذا الصبى وتقويمه خيراً من إغراقه ؟ » قال جسراد : « لو قد أتيح له أن يكون خيراً وأن يعيش ويتخذ زوجاً لقتل وقتلت معه زوجه وقتل معهما ابنهما . » قال زديج : « ماذا؟ أليس من الجريمة والشقاء بد ؟ أليس بد من أن يلم الشقاء بالأخيار ؟ » قال جسراد : « إن الأشرار أشقياء دائماً ، وإنهم محنة تمتحن بهم قلة من الأخيار مفرقة فى الأرض ، وليس من شر إلا وهو مصدر للخير . » قال زديج : « وما يمنع أن يوجد الخير ولا شر معه ؟ » قال جسراد : « إذن لتبدل الأرض غير الأرض وتتابع الأحداث على أسلوب آخر من الحكمة . وهذا الأسلوب من الحكمة الكاملة لا يمكن أن يوجد إلا فى الملأ الأعلى حيث لا يستطيع الشر أن يرقى . وقد خلق الله مالا يعين من العوالم ليس منها واحد يشبه الآخر . وهذا الاختلاف العظيم آية على قدرته التى لاحد لها ، فليس من ورقتين فى الأرض ولا كرتين فى حقل السماء تشبه إحداهما الأخرى . وكل ما تراه على هذه الذرة الضئيلة التى ولدت عليها قد قدر له مكانه تقديراً حسب النظام الثابت الذى أبدعه القادر على كل شئ . إن الناس يظنون أن هذا الصبى الذى هلك قد سقط فى الماء مصادفة ، وأن المصادفة نفسها هى التى حرقت الدار . ولكن المصادفة لا وجود لها ؛ فكل شئ إما امتحان ، وإما عقاب ، وإما مكافأة ، وإما احتياط . تذكر ذلك الصياد الذى كان يرى نفسه أشقى الناس ، لقد أرسلك أوروزماد لتغير مصيره . أيها الهالك الضعيف لا تعترض على من يجب أن يعبد . » قال زديج : « لكن . . . » وبينما كان يقول «لكن» كان الملك يرقى فى السماء العاشرة . فجثا زديج ورفع إلى القدرة الالهية عبادته وإذعانه . قال له الملك من أعلى السماء : « أسلك طريقك إلى بابل . »

الفصل الحادى والعشرون

الألغاز

مضى زديج فى طريقه هائماً ، وقد خرج عن طوره كرجل سقطت الصاعقة منه غير بعيد . فدخل بابل فى اليوم الذى اجتمع فيه المتنافسون فى بهو من أبهاء القصر ليمتحنوا بتفسير الألغاز ، وليجيبوا على أسئلة الكاهن الأعظم . وقد اجتمع الفرسان جميعاً إلا صاحب اللأمة الخضراء . فلم يكد زديج يظهر فى المدينة حتى اجتمع الشعب من حوله ، ولم تكن العيون تشبع من النظر إليه ، ولم تكن الأفواه تكف عن الثناء عليه ، ولم تكن القلوب تكف عن أن تتمنى له الملك . وقد رآه الحسود فارتعش وحول وجهه ، ثم حمله الشعب إلى مكان الاجتماع . وأنبئت الملكة بمقدمه فتنازعها الخوف والرجاء ، وكان القلق ينهب نفسها نهباً ، ولم تكن تفهم لماذا كان زديج مجرداً من سلاحه ولا لماذا كان إيتوباد يحمل اللأمة البيضاء . فلما رأى المجتمعون زديج ارتفع بينهم ضجيج مختلط . وكان المجتمعون دهشين سعداء لحضره . ولكن لم يكن يؤذن إلا للفرسان الذين شاركوا فى المبارزة بشهود الاجتماع . قال زديج : « لقد بارزت كما بارز غيرى ، ولكن رجلا غيرى يحمل سلاحى فى هذا المكان ؛ وإلى أن يتاح لى الشرف باثبات ذلك أرجو أن يؤذن لى بالمشاركة فى تفسير الألغاز . » وأخذت الأصوات ، فلم يتردد أحد فى قبوله لأن أمانته وصدقه وشرفه كانت لا تزال مستقرة فى القلوب .

وقد بدأ الكاهن الأعظم فألقى هذا السؤال : « ما شئ هو أطول الأشياء فى العالم وأقصرها ، وأسرع الأشياء وأبطؤها ، وأشد الأشياء استعداداً للانقسام وأشدها امتداداً ، وأشد الأشياء تعرضاً للاهمال وأشدها تعرضاً للحزن عليه ، بغيره لا سبيل إلى أن يصنع شئ ، وهو يزدرد كل ما هو صغير ، ويحيى كل ما هو كبير ؟ »

وكان على إيتوباد أن يتكلم ، فأجاب بأن رجلا مثله لا علم له بالألغاز

وحسبه أنه انتصر برمحه . قال بعض المتنافسين إن جواب اللغز إنما هو الحظ . وقال بعضهم هو الأرض . وقال بعضهم هو النور . وقال زديج « إنه الزمان ليس شئ أطول منه لأنه مقياس الأبد ، وليس شئ أقصر منه ، لأنه يقصر عن آمالنا . وليس شئ أبطأ منه للمنتظر ، وليس شئ أسرع منه للمبتهج ، وهو يمتد فى السعة إلى ما لا نهاية ، وينقسم فى الصغر إلى مالا نهاية ، والناس جميعاً يهملونه ، والناس جميعاً يأسفون على ضياعه ، لا يصنع شئ بدونه ، وهو ينسى مالا يستحق الخلود ، ويخلد جلائل الأعمال . » فأجمع القوم على أن زديج قد أصاب .

ثم سئل بعد ذلك : « ما شئ يقبل ولا يشكر معطيه ، وينعم الناس به دون أن يعرفوا كيف ينعمون به ، ويعطونه غيرهم دون أن يعرفوا أين هم منه ، ويفقده الناس على غير وعى منهم ؟ »

فأدلى كل بجوابه ، وقال زديج إنه الحياة . وفسر سائر الألغاز على هذا النحو من اليسر ، وكان إيتوباد يقول : ليس شئ أيسر من هذه الألغاز ، ولو قد أراد لأجاب عليها فى غير مشقة ، وقد ألقيت أسئلة حول العدل والخير الأعظم وفن الحكم ، فكانت أجوبة زديج أقوم الأجوبة . وكان الناس يقولون من حوله إن مما يحزن حقا أن يكون صاحب هذا العقل الممتاز فارساً غير ممتاز .

قال زديج : « أيها السادة العظام ! لقد شرفت بالانتصار فى الميدان ، وإنما اللأمة البيضاء هى لأمتى ، وقد أخذها السيد إيتوباد أثناء نومى . وقد رأى فى أكبر الظن أنها أليق به من لأمته الخضراء . وإنى مستعد أن أثبت أمامكم بثوبى هذا ، وسيفى ، على رغم كل ما يحمل هو من هذه اللأمة البيضاء التى اختلسها منى . إنى أنا الذى أنتصر على الأمير أوتام . »

وقد قبل إيتوباد هذا التحدى واثقاً بنفسه أعظم الثقة . ولم يكن يشك فى أنه وقد حمل الخوذة والدرع والمغفر سينتصر فى غير عناء على خصم ليس عليه إلا ثوب وقلنسوة . وقد استل زديج سيفه وحيا الملكة التى كانت تنظر إليه يتنازعها الفرح والخوف . واستل إيتوباد سيفه ولم يحى أحداً . ثم تقدم إلى زديج كما يتقدم رجل لا يهاب شيئاً . وكان يوشك أن يشدخ رأسه . وقد اتقى زديج هذه الضربة معارضاً بقوة سيفه ضعف خصمه ، بحيث انكسر سيف إيتوباد هنالك هجم زديج على خصمه فأخذ بتلابيبه وصرعه على الأرض ، ثم أنفذ

ذبابة سيفه من ثنايا الدرع قائلا له : «دعنى أجردك من سلاحك و إلا قتلتك .»
وقد دهش إيتوباد لسوء الحظ الذى ألمّ برجل مثله ، وخلى بين زديج وبين سلاحه وقد بدأ فنزع خوذته ، ثم درعه الفخمة ، ثم مغفره الجميل ، ثم لبس هذا كله وجرى فى لأمته هذه حتى جثا عند قدمى أستارتيه . وأثبت كادور فى سهولة أن هذه اللأمة هى لأمة زديج فنودى به ملكاً عن رضا من الناس جميعاً ، وخاصة من أستارتيه التى نعمت بعد كثير من الشقاء بأن ترى عاشقها خليقاً فى رأى العالم كله أن يصبح لها زوجاً . وعاد إيتوباد إلى قصره حيث يدعوه خدمه مولاى، وأصبح زديج ملكاً وأصبح سعيداً . وكان يتمثل فى نفسه ما قال له الملك جسراد : بل تذكر حبة الرمل التى أصبحت ماسة . وقد شكرت الملكة وشكر هو للآلهة هذا الفضل . وترك زديج الجامحة الجميلة ميسوف تطوف فى أقطار الأرض ، وأرسل يدعو قاطع الطريق أربوجاد فرفعه إلى مرتبة حسنة فى جيشه ، ووعده بأن يرفعه إلى أرقى المراتب إن سار سيرة الجندى الشريف ، وأن يشنقه إن عاد إلى قطع الطريق .

ودعى سيتوك مع ألمونا الحسناء من أعماق بلاد العرب ، فجعل على تجارة بابل . وأنزل كادور منزلة تلائم بلاءه ووفاءه فأصبح صديق الملك ، وأصبح زديج هو الملك الوحيد الذى استطاع بين ملوك الأرض أن يكون له صديق مخلص . ولم ينس زديج القزم الأخرس . ومنح الصياد داراً جميلة . وقضى على أوركان أن يؤدى إليه مقدارا ضخماً من المال وأن يرد إليه امرأته ، ولكن الصياد وقد صار حكيما أبى أن يأخذ إلا المال .

ولم تتعز سمير الحسناء من خطئها حين ظنت أن زديج سيصبح أعور، ولم تكف أزورا عن البكاء لأنها همت ذات يوم أن تجدع أنفه . وقد خفف زديج ألمهما بما أهدى إليهما من الهدايا . ومات الحسود غيظاً وخزياً ، واستمتعت الدولة بالسلم والمجد والرخاء . وكان هذا العصر أجمل عصر عرفته الأرض ؛ فقد حكمها فيه الحب والعدل . وكان الناس يحمدون زديج ، وكان زديج يثنى على الآلهة .

وهنا تنتهى المخطوطة التى تقص تاريخ زديج . والناس يعلمون أنه تعرض لمغامرات كثيرة أخرى قد سجلت تسجيلا دقيقاً . فترجو أن ينشرها المستشرقون إن وصلت إليهم

رسائل لفولتير

يتكلم الكاتب ريمون ناف فى كتابه عن «الذوق عند فولتير»[1] ، فيقول إن فولتير فى الواقع هو خير مثـــال لمن يريد أن يعرف الذوق الفرنسى باتجاهاته الشخصية وابتداعاته ومكانه من قرن طال إلى آخر مدى حضارة تطورت . ويقول : « إن من أبرز صفات فولتير إخلاصه ؛ فقد كان دائماً شجاعاً فى الاعراب عن عاطفته مهما كانت نظرته ضيقة . وهو ينشر بلا توان أحكامه ولو كانت معلوماته غير صحيحة أو بدائية . وهو فى الواقع أقل الرجال تعصباً ؛ لأن مبادئ الذوق ليست قواعد يتعصب لها وإنما هو يفضلها . وهذا الاخلاص لم ينفعـه لأنه مكن النقد من أن يتبين فى سهولة أخطاءه ، وطيشه أحياناً ، وأن يقيس حدوده . ولكن هذه الحدود التى يقف عندها فولتير قابلا لها عن عمد ومعلناً لها ، هى مثال نادر للاستقامة . »

وقد يمكن أن نضيف أن هـذه الاستقامة هى أكبر الأسباب فى أن صار فولتير من الكتاب العالميين الذين عرفوا كيف يستخلصون إعجاب غير الفرنسيين قبل الفرنسيين .

والواقع أن السبب فى شهرة فولتير وفى بقاء اسمه على الزمن ، مع أنه نشأ فى القرن الثامن عشر فى زمن كانت فيه التقاليد سائدة ، هو أنه كان بطبيعته وربما كان بظروف حياته ساخراً سليط اللسان ، لاذعاً فى القول والكتابة ، ينظر إلى الحيـاة بغير العين التى ينظر بها أقرانه من معاصريه ، فينفذ إلى قلب الحياة وتتهتك أمام عينيه أستارها ، وتبدو له فى ثوبهـا الحقيقى ، فيكتب عنهـا ويصفها وقد زال سحرها وبدا له وجهها بدون تطرية ولا ألوان .

هـذا ما جعل اسم فولتير باقياً على الزمن بعـد أن مضى عليـه أكثر من قرن ، وهـذا ما يلوح أنه سوف يضمن لاسمه البقاء قروناً

---

(1) Raymond Naves: *Le goût de Voltaire*, Garnier Paris

أخرى . لأنه بهذه النظرة الفاحصة الساخرة التى ترى ما وراء الحجب، قد صار أول رجل حديث نشأ فى غير عصره . ولكى تتبين صحة هذا القول يجب أن نوازن قليلا بين عصر كان يعيش فيه ، وبين عصر نعيش نحن فيه . فقد نشأ فولتير فى فرنسا فى أيام لويس الرابع عشر [1] . وكانت فرنسا فى ذروة ما بلغت من مجد ، وهو مجد مشوب بكل الكوارث التى تنتاب شعباً يساق ليخدم مطامع رجل واحد ، ويعمل هذا الشعب مجهودا ليضيف إلى الرواء الظاهر لهذا الفرد العظيم ؛ فهو شعب عرف الفاقة وحرم التمتع بكل شئ ، وهو شعب كبتت حريته وكتمت أنفاسه فلم يستطع أن يعرب عن حاجته وبؤسه .

لم يكن فولتير من طبقة الشعب بل كان من طبقة مميزة بعض الشئ ؛ فقد كان أبوه مسجلا للعقود ونال شيئاً من الثراء ، فطمع فى أن يعد من طبقة النبلاء . وقد رباه أبوه مسيو أرويه والاسم الحقيقى لفولتير — هو فرانسوا مارى أرويه — فى كلية لويس العظيم ولم يسلم معلمو هذه الكلية الأفاضل من لسانه وسخريته اللاذعة من بعد .

وأخذ فولتير يقبل على الكتابة وعلى الشعر ، وبدأ يطمع فى أن يكون له مكان مرموق بين الشعراء ، فأقبل يؤلف المسرحيات ويقرض الشعر ، وقد تبينت مهارته بصفة خاصة فى الهجاء.

وقد اتصل الشاب الناشئ ببلاط فرساى ، وظل الشاعر الشاب نحو عشر سنوات يعيش فى كنف البلاط وهو يجد بين النبلاء ترحاباً بنكاته اللاذعة وفكاهاته الظريفة ، وسرعة بديهته فى الشعر ، ثم حبه للهو والعبث والمغامرات التى كانت هى الشغل الشاغل لأبناء النبلاء فى البلاط . وكان ينتقل من قصر إلى قصر ، وأحياناً ينتقل إلى قصر من نوع آخر هو سجن الباستيل ، وكانت مهارته فى الهجاء هى السبب فى هذا الانتقال الأخير .

وقد حدث مرة أن وضع بيتين من الشعر يسخر فيهما من الدوق دورليان ، فنفى إلى تول . على أنه لم يلبث أن عفا عنه ومع ذلك لم يرتدع .

لم يكن فولتير يكره الوصى دورليان، وكان يعيش فى كنف أصدقاء الوصى

---

(١) ولد فولتير بباريس عام ١٦٩٤ .

وكثيراً ما دافع عنه من بعد فى حياته، ولكن كانت طبيعته المغامرة ، وشئ من العناد وحب الشهرة ، تدفعه إلى أن يتعرض للوصى ، فلم يلبث أن وضع شعراً فى ذمه . وسرعان ما عرف قائل هذا الشعر ، فقبض عليه وسجن فى الباستيل سنة ١٧١٧ وظل فى هذا السجن نحو سنة كاملة وإن كان قد عومل فيه معاملة كريمة .

خرج من السجن وفى جعبته أول مأساة من تأليفه هى مسرحية «أوديب». وكان من العادة أن من يسجن لا يمكث فى العاصمة الفرنسية بل يذهب إلى الريف بعض الوقت . وقد فعل فولتير ذلك ، ولكنه مالبث أن عاد . ومثلت مسرحيته فنالت نجاحاً غير معتاد ، ومنحه الوصى عليها نوطاً وراتباً . ومنذ تلك اللحظة ترك اسم أرويه واتخذ اسم فولتير . ومن الراجح أنه اسم ضيعة صغيرة تمتلكها أسرته .

ولسنا نريد أن نتتبع أقدام فولتير من شهرة إلى شهرة فى حياته وسط الملاهى التى كانت سائدة فى عصره ؛ فانه من الميسور الاطلاع على تفاصيل حياته فيما أشرنا ونشير إليه من كتب ألفت عنه . ولكن ما نريد أن نسجله هو التحولات الهامه فى هده الحياة .

مات أرويه والد فولتير تاركا ثروة ضخمة ظن أنها ستكفل لابنه العيش الرغيد . ولكن هذا الابن لم يلبث أن بددها فى مشروعات خيالية ، ولكن المركز الذى اكتسبه فى البلاط بمؤلفاته المسرحية التى كانت تمثل فيه والتى كانت تثير دموع الملكة ، عوضه عن هذه الخسارة شيئاً ما إذ خصصت له الملكة راتباً .

ثم حدث حادث كان له شأن كبير فى حياته . ذلك أنه تشاجر مع أحد كبار الأشراف السيد دى روهان . ولا يعلم سبب هذه المشاجرة حتى الآن ، ولكن مما لا شك فيه أن فولتير عرف كيف يستعمل لسانه السليط .

وبعد ذلك بأيام كان فولتير فى ضيافة الدوق دى سوللى ، فاذا بخادم يدعوه إلى الباب ، فخرج فرأى عربة فى انتظاره . فما اقترب منها حتى خرج منها رجال وانهالوا عليه ضرباً ، وكان غريمه على ما يقال واقفاً على الباب يشير على الضاربين بألا يقربوا الرأس فان فيه ما يستحق المحافظة عليه .

وعاد فولتير إلى مضيفه والدموع تنهمر من عينيه ، وقص عليه الحادث، وطلب منه أن يصحبه إلى مدير الشرطة ولكن الدوق أبى ذلك ، لمركز الغريم

أو لعلـه اعتبر الحـادث مهزلة لا قيمة لها .

وقد غضب فولتير لما وجده من إهانة واحتقار ومعاملة تدل على الفارق فى النظرة إلى النبيل و إلى الشاعر ، فأخذ يهدد ويتوعد آل روهان ويبدأ يتعلم السلاح ، فخشوا مغبة أمره وشكوه إلى الوزير طالبين حمايتهم ، فأدى ذلك إلى سجن فولتير فى الباستيل مرة أخرى ، ثم أطلق سراحه بعد قليل على أن يرحل من فرنسا [١] .

وجد فولتير فى انجلترا الحياة نفسها التى كان يجدها فى باريس . وما لبث أن تعرف إلى عظماء الانجليز ، فكانت دار بولنجبروك موئله ، وإليها ترد الرسائل من أهله ، وكثيراً ما كان ينزل فى ضيافة فولكنر واللورد بيتربورو . ووجد أن هذه الجماعة مثقفة تثقيفاً فرنسيا ، وأن حياتهم مطبوعة بطابع فرنسى . وعاش فولتير فى انجلترا نحو سنتين يكتب ويؤلف ويعيش فى الوسط الذى يحبه ، وقد وجد فى الحياة الانجليزية وفى التاريخ الانجليزى مادة لبعض كتبه . ومن أشهر ما نشره من كتب فى ذلك الوقت الرسائل الانجليزية أو الرسائل الفلسفية ، ثم مقـاله عن شعر الملاحم ، وكتابه فى تاريخ شارل الثانى عشر .

وتعد الرسائل الفلسفية ، بالرغم مما فيها من زلات وتحيز وسرعة فى الحكم ، من أحسن ما كتبه فولتير فى سبكها وجمعها بين الخفة والجرأة . ويضعه تاريخه عن شارل الثانى عشر فى المقـام الأول من كـتاب النثر الفرنسى [٢] .

عاد فولتير إلى فرنسا بعد أن قضى سنتين ، وعاد إلى تأليف القصص والمسرحيات . ولسنا هنا فى معرض الكلام على مؤلفاته ، فتلك يلتمس لها ما أشرنا أو نشير إليه من كتب . ولكن اسمه أخذ ينتشر وطارت شهرته إلى أنحاء أوربا . وكان مستمرا على عيشة اللهو والاتصال بالبلاط الفرنسى ، ولكن حياته لم تكن تخلو من مخاطر بسبب ما يضمنه كتبه وأشعاره من نقد لاذع أو هجاء ، يحاول أن يخفيه فلا يلبث أن ينكشف ، وكان فى كل

(١) André Bellessort: *Essai sur Voltaire*, Perrin, Paris

(٢) Morley: *Voltaire*, Macmillan, London

لحظة يضيف إلى أعدائه المخلصين فى عداوته أعداء آخرين ، حتى صارت حياته فى البلاط الفرنسى قلقة أو قل خطيرة ، واضطر فولتير إلى الرحيل عن فرنسا .

إلى أين ؟ إلى مغامرة عجيبة جديدة ؛ فقد كان هنالك ملك شاب تولى عرش دولة من الدول الألمانية كانت ذات مقام ثانوى بين دول أوربا . هذه الدولة هى مملكة بروسيا ، ولقد أخذت هذه الدولة فى السنوات الأخيرة تبدو فى قوة غير عادية بفضل ملكين توليا عرشها ، وكانا يوجهان اهتمامهما إلى تأليف جيش قوى . وهذان الملكان هما والد الملك الشاب الذى أشرنا إليه وجده . أما هذا الملك الشاب فكان وهو أمير لا يرجى منه خير كبير ؛ فقد انصرف إلى الموسيقى والشعر بكليته ، وكان إعجابه بشعر فولتير لا حد له . فما إن تولى عرش بروسيا حتى أخذ يرسل الرسائل والرسل إلى ذلك الكاتب الذى كان يتخذه مثالا فى شعره .

هذا الملك هو فريدريك الذى أطلق عليه فيما بعد فريدريك الأكبر لا لعظمته فى الموسيقى والشعر .

ولسنا نريد أيضاً أن نعرض لهذه الصلة العجيبة بين فريدريك الأكبر وبين فولتير ، فهنالك صفحات وصفحات تستطيع أن تقرأها فى لذة وأن تستفيد منها وأن تضحك منها ، فى كتب عدة ؛ فهى من أمتع ما أسهب فى ذكره الكتاب عن فولتير والكتّاب عن فريدريك . وتستطيع أن تقرأ صفحات ممتعة فى كتاب موروا عن فولتير وفى كتاب اللورد مورلى وفى كتاب بلسور وفى كتاب كارليل الانجليزى ذى اللهجة الألمانية ، وأخيراً فى الكتاب الذى أخرجه فى الأيام الأخيرة لودفيج عن هذه العلاقة خاصة. وكل ما نستطيع أن نشير إليه هنا أنهما افترقا ولم يجدا من العيش بعضهما إلى جانب بعض ما كانا ينتظرانه من ائتلاف . وكان الأمير قارض الشعر يكن وراء مظهر اللهو والعبث رجلا شديداً عنيداً يحب القتال ويهجم على المخاطر. وكانت عين الأديب الساخر ، تستشف طباع الناس وتلتقط نقائصهم بأكثر مما يحب الملك العنيد . ومع ذلك فقد ظل الاثنان يتراسلان على بعد وإن كان الأديب لم يحاول تجربة العيش فى بلاط الملك البروسى مرة أخرى على ما بذل له من وعود .

كان فولتير فى كل هذه الفترة يؤلف ويكتب ، وقد وضع قصصه

الشهيرة ومؤلفاته التاريخية الشهيرة لا سيما كتابه عن عصر لويس الرابع عشر ، وهو مؤلف تاريخي أشاد فيه ومجد ذكر ذلك العصر وقد سبقه بمؤلف سماه رسالة عن العادات . وزار فولتير عدداً من الدول الأوربية ، فذهب إلى روسيا وكتب تاريخ روسيا فى عصر بطرس الأكبر ، ثم اتخذ له بعد هذه السياحات الطويلة مقاماً فى جنيف . إذ أن الملك أظهر غضبه عليه لمقامه الطويل فى البلاط البروسى وأبى أن يدعوه إلى باريس .

وفوق المرتفعات التى تطل على جنيف اشترى داراً واتخذها مقاماً له ، وبعد سنين اشترى قصراً فى فيرنى على مقربة من جنيف أيضاً ، وفى هذا القصر قضى حياة سعيدة يعيش وسط نساء من معارفه وتقوم بالعناية به ابنة أخيه مدام دينى ، وهى امرأة قصيرة بدينة كثيرة اللغط ليست بالجميلة ولكنها غزلة ، وكان الكهل متعلقاً بها وكان يعاملها معاملة الابنة . ومن هناك كان فولتير يوالى أسور ضياعه فى فرنسا ، ويرسل برسائله وأقواله إلى أنحاء أوربا فيضحك لها الناس جميعاً ويحزن لها أولئك الذين تعرضوا لسخطه .

وكان فولتير يهتم بالأمور العامة اهتماماً كبيراً وتدخله فى قضية كالاس وقضية سيرفون ودفاعه عنهما فيما اعتقده حقا ومهاجاته للسلطة الفرنسية مهاجمة عنيفة وهو يشرف على الثمانين من عمره ، صفحات عجيبة فى تاريخ ذلك الرجل العظيم .

إذا كان فولتير لم يجد تقديراً من أصحاب السلطة بل وجد معارضة متزايدة ، فان زيارته لباريس فى آخر أيام حياته دلت دلالة كبيرة على منزلته فى قلوب الناس . فلقد قرر أخيراً أن يذهب إلى باريس بالرغم من غضب البلاط ، فذهب إليها فى سنة ١٧٧٨ بعد أن انقطع عن رؤيتها ثلاثين عاماً وقوبل فى حماسة منقطعة النظير كانت مما ساعد على انتهاء حياته المديدة فى ٣٠ مايو سنة ١٧٧٨ إذ خبا مصباحها الضعيف تحت ضوء شمس هذه الحماسة

وما زال الناس يتتبعون حياة فولتير وآثاره ، وما زالوا عاملين على لنشر كل مايعثرون عليه من كتاباته . وقد نشر أخيراً (فى أبريل الماضى) مسيو بول سان — كلير — دافيل رسائل لفولتير لم تنشر من قبل ، فأحببنا أن ننقل بعض هذه الرسائل للقراء ، وهى تدور حول بعض الأمور الخاصة بضيعته ولكى نبين أهمية هذه

الرسائل نذكر كلمة صاحبها فى تقديمه لها ، إذ قال :

« فى حيازتى ثلاث وأربعون رسالة من فولتير أرسلها إلى مسيو فابرى الذى كان عمدة لبلدة جى ومديراً لحسابات برجونى ، والحائز لرتبة فارس من ملك فرنسا . وكان هذا العدد من الرسائل حتى سنة ١٩١٣ ملكاً لمدام أدمسون دى لوريس ، واسمها قبل الزواج إما فابرى ، فهى سليلة الرجل الذى أرسل إليه فولتير رسائله . وعندما توفيت مدام دى لوريس ، انتقلت هذه الرسائل لإحدى بناته التى تزوجت من أبى فى زواجه الثانى ، ومنها وصلت هذه الرسائل إلىّ ، وقصد صحتها إذن ثابتة .

« ولقد نشرت المراسلات العامة لفولتير لدى الناشر هاشيت وبينها ثلاث وعشرون رسالة أرسلها فولتير إلى مسيو فابرى فى المجلد الثالث والعشرين وما يتبعه . وأصول سبع وعشرين رسالة من الرسائل التى نشرت هى بين الثلاث والأربعين رسالة التى أمتلكها ، فليس من الفائدة إعادة نشرها . وبين الخمس والثلاثين رسالة الباقية ما هو مجرد بطاقات قصيرة . وأما الرسائل الأخرى فموضوعاتها متنوعة جدا ، وأكثرها يتعلق بمسائل شخصية لفولتير وابنة أخيه مدام دينى وبمشاكلهما العديدة مع مندوبى الزراعات العامة ، والبعض الآخر يتعلق بالمصالح العامة لبلاد جى ، والبعض فيه توصية للمسيو فابرى على بعض من يحميهم فولتير أو على بعض التاعسين . ولم تكن تفاهة الموضوع أو جفافه ليحول دون ظهور تلك الروح المرحة اللاذعة التى هى من صفات صاحب الرسائل .

« وإذا كان هذا العدد الصغير من الرسائل غير كاف فهو يلقى بعض الضوء على فولتير صاحب الأرض ، وفولتير دافع الضرائب ، وفولتير الذى أسس صناعات وعمل لإحياء البلد الصغير الذى اختاره . وباضافة هذه الرسائل إلى ما سبق نشره من رسائله العامة يمكننا أن نحدد بعض صفات سيد فيرنى .

« وأقدم هذه الرسائل تحمل تاريخ سنة ١٧٥٩ وأحدثها فى فبراير سنة ١٧٧٦ .

« ويظهر أن عدداً قليلا من هذه الرسائل كتبه فولتير بخط يده والعدد الآخر بخط إما مدام دينى وإما فاجنيير سكرتيره .

« أما دور فابرى وهو وكيل المندوب لحسابات بورجونى فى بلاد جى فهو يعادل ممثل السلطة المركزية ، أى إنه يكاد يكون مديراً ، ويظهر

أن مسيو فولتير صاحب ضيعة فيرنى كان على أحسن علاقة معه كما يبدو من الرسائل .

« ولكى نفهم هذه الرسائل يجب أن نتذكر أن الضيعة التى كان يمتلكها فولتير بين سنتى ١٧٥٥ و ١٧٦٥ ، واسمها دليس كانت على أبواب جنيف فى أرض تابعة لمدينة جنيف وتفصلها الحدود عن فرنسا ، وكانت إدارة المزارع العامة المليئة بالكتبة وهى التى يشكو منها فولتير دائماً فى جهة ساكونى على مقربة من فيرنى التى تملكها فى سنة ١٧٥٨ . وكان هؤلاء الكتبة يراقبون دائماً خروج المنتجات التى كان صاحب ضيعة دليس يخرجها من فرنسا آتياً بها من فيرنى .

«وعلى بعد ١٠٠٠ مترا تقريباً فى الشمال الغربى من فيرنى توجد قرية موتر ، وكان قسيسها اسمه الأب أنسيان ويحمل له فولتير حقداً شديداً . »

ع ٠ م ٠

سيدى

على أثر الترخيص الذى يحمل توقيع وكيل إدارة الحسابات فى ١٤ ديسمبر ، وهو الذى عرضه اليوم فى ساكونيه خادمى الذى يحمل هذه الرسالة ، أرسلت إلى خدامى وأتباعى لكى يحملوا إلى أربعة وعشرين شوالا من القمح من فيرنى . ولكن رئيس الحراس وقف القمح والركائب زاعماً أنى لم أمنحه الكفاية من القمح فى هذه السنة لخبزه . فأتشرف بأن أعلنك بهذا النبأ باسمى وباسم مدام دينى .

إن حامل هذه الرسالة يحمل الترخيص ، وهذه المبالغة فى قلة الحياء تستحق العقاب . فألتمس منك ياسيدى فى هذه المسألة الصغيرة أن تشملنى بالعطف الذى أنتظره منك ، وأن تكتب إلى الادارة بساكونيه بالطريقة المناسبة . وإنى دائماً مدين لأفضالكم .

وأملى أن تصلك أنباء سارة قبل عيد الفصح عن المذكرة التى عهدت فيها إلى .

هل تخبرنى عن الجانب الذى تؤيده فيما يتعلق بحرية البلاد ؟ إن أصحابنا على استعداد دائماً ولن يسوءه أحد أن يرسل الأشرار إلى الجبال .

وهذه يا سيدى العزيز صورة الاعلان الذى كتبته مدام دينى مساء أمس ٢٥ وأرسلته فى صباح ٢٦ إلى

ساكونيه ، وقد أرسلت أسس إلى الادارة العامة للحسابات فى ديجون وإلى رئيسها فى باريس وإلى المراقب العام هذه المذكرات التى أرسلها إليك.

ويقال علناً إنهم فعلوا بنا هذه المضايقة لأننى أتدخل فى العمل على تخليص المديرية . ولا أعلم من الذى أذاع أن من الواجب أن نتصل فى أمر الملح بإدارة الزراعات العامة . ويقال إن السيد سيديو هو الذى شجع الموظفين على هذا الاعتداء نحوى ونحو مدام دينى — ولقد كتبنا التماسا سنرفعه للملك عند الحاجة . وبالرغم من مرضى فلن أترك هذه المسألة . ومن المؤكد ، كما ورد فى تصريح مدام دينى الذى هو الحقيقة بعينها ، أن الموظفين على غير الصواب . فقد أرسلت مدام دينى سكرتيرها فى الساعة التاسعة صباحاً لكى يسجلوا الترخيص فى ساكونيه . ولقد تم ذلك بوساطته ، ومع ذلك فان الموظفين لم يذكروا هذا الأمر الأساسى فى المحضر الذى حرروه . ولا شك أن هذه المسألة غير اللائقة يراد منها مضايقتنا وإغضابنا ، وهى تنطوى على عداوة سرية من السهل ملاحظتها . ويقال إن مدير بلدة ماران قد تشدق بأن الملح سيظل حيث هو بالرغم منك وأنك ستندم على إجراءاتك . ولست أستطيع القول بصحة ذلك النبأ . ولست متأكداً إلا من صداقتك وحكمتك ، كما أنى متأكد من ودك وصداقتك الحقيقية لخادمك المخلص المطيع .

٢٦ يناير سنة ١٧٦٠

فولتير

أرسل إلى مسيو دويو يا سيدى يقول إنه بعث إليك بأصل الوثيقة المستخلصة من دار المحفوظات بجنيف ، ومنها ترى أن المكان الذى ارتكبت فيه الجنحة المتهم بها المسمى لنشون كانت تابعة لقضاء جنيف ثم ضمت إلى جلالة الملك ، وقد أرسلت صورة من هذا القرار لمسيو ديكورتى الذى ذهب للاستشفاء بمياه فيشى ، وأرسلت صورة أخرى للرئيس الأول لبرلمان ديجون الذى تفضل فكتب فى الحال إلى مندوب الملك فى جى موصياً بالعناية بما كتبته .

فألتمس منك يا سيدى أن تستعلم فى الحال من مسيو دويو دى لنشون كيف لم تصلك الأوراق التى قال لى إنه

أرسلها إليك . وعلى كل حال سترى يا سيدى أنه ليس من العدالة أن أكون ضحية تعنت بلدية جى ، ولو أنه كان من سوء حظى أن دفعت هذه النفقات التى لا أدان بها مطلقاً لماقدرت أبداً على استردادها ، فهم يريدون أن يكلفونى نفقات كبيرة من كل جهة لمجرد أن كان من سوء حظى أن أمتلك أراضى فى فرنسا . وإنى لأعتمد على صداقتك . أما صداقتى فستجدها فوق كل مظنة وإن لى الشرف فى أن أكون حقا يا سيدى العزيز خادمك الخاضع المطيع .

دليس ٢٨ يونية سنة ١٧٦٠

فولتير

لى الشرف يا سيدى بأن أقدم لك واحداً من خير الصناع الفنانين فى أوربا ، وهو مقيم فى فيرنى ويمكنه إصلاح الساعة الكبيرة فى جى وليس هناك من يعادله غير رجل واحد فى جنيف . وأعتقد أنك ترى معى أنه يجب تفضيل استخدام السيد فوشيه من سكان فيرنى الذى اتخذ الجنسية الفرنسية على أحد أهل جنيف ، وسأكون ضامناً له . وأعتقد أنه لاينبغى مناقشة الصانع الفنان فيما يطلبه من ثمن .

ولى الشرف مع ما أكنه من صلة الاحترام بأن أكون خادمك الخاضع المطيع .

فيرنى ٢٠ يوليه سنة ١٧٧٠

فولتير

سيدى

لى الشرف أن أرسل إليك الأوراق المرافقة لهذا الخطاب دون أن أطلب منك أية رعاية ؛ إذ أنى لا أعرف إلى أى حد تمتد المزايا التى يتمتع بها السويسريون . ولا أريد مطلقاً غير القضاء العدل .

ولى الشرف مع ما أكنه من صلة الاحترام بأن أكون خادمك المطيع .

فولتير

سيدى

ـ يوجد فى فيرنى جزاران أحدهما يدعى فرانسوا إيفيت وهو يذبح أبقارا جيدة جدا وقلما يذبح جاموساً . والرأى العام يتهم رجلا اسمه ابراهام مينييه كان فيما سبق فى جهة برينييه ويعده رجلا غشاشاً ، ومما لا شك فيه أنه سينشر الأمراض فى جهته الصغيرة لو ترك وشأنه أكثر من ذلك . وهو يفضل أن يعدى المقاطعة بأكلها على أن يتركها .

وأعتقد أن فى هذا خطراً عاجلا حتى إنه ليكون من حسن التدبير طرده من الجهة . وأكل هذا الموضوع لحكمتك ونشاطك .

ولى الشرف مع ما أكنه من صلة الاحترام بأن أكون خادمك المطيع.

فيرنى ٦ فبراير سنة ١٧٧٣

ڤولتير

سيدى

يقال إن هنالك حاجة إلى رجل يدير بعض أعمال الطرق الكبيرة . وأقدم لك السيد بربرا فهو ذكى نشيط ، وأعتقد أنه يلائمك . ولست أطلب منك أن تفضله إلا فى حالة وجود هذا العمل .

ولى الشرف مع ما أكنه من صلة الاحترام بأن أكون خادمك المطيع .

فيرنى ٢٣ مارس سنة ١٧٧٣

ڤولتير

سيدى

لقد عدت إلى دارى فى اللحظة التى غادرتها أنت . ولقد علمت بما أبديته من عطف . وإنى أرسل لك عقد الهبة التى أعطيناها لويزيه — وهى حركة خدمنا بها رجلا ناكراً للجميل .

وكلمة المجاورة التى استعملها مسجل العقود المخادع لا يمكن أن تنطبق على منزل لويزيه الذى يبعد عن الطريق

فهو قد يكون قريباً من الطريق ولكنه فى الواقع على بعد أربعة وعشرين أو خمسة وعشرين قدماً ، فلا يمكن أن يكون متاخما له فالمنزل لا يقع على حافته .

والساحة التى يقع عليها منزلا كارى ولويزيه اللذان بناهما السادة دى بوديه كانت ملكاً لهؤلاء السادة. فاذن كل مابقى من هذه الساحة عاد إلى مدام دينى التى ورثتهم .

فكلمة المجاورة التى استعملها المسجل استعمالا خاطئاً لايمكن فى نظرى أن تضعف من حقوق مدام دينى . ومعناها كما هو واضح أن المنزل مجاور للساحة الصغيرة المتاخمة للطريق الكبير ، ولم تتنزل مدام دينى قط عن هذه الساحة . ولقد وضع دينى فيها حظيرة للخنازير صنعت من أخشاب قذرة تضايق لها الجيران ، فأخبرت لويزيه بأن ليس من حقه إقامة هذه التخشيبة فرفعها ، مما يدل على أنه كان فى ذلك الوقت يعرف تماماً أن الساحة ليست ملكاً له . هذه ياسيدى الأسباب التى أدلى بها لكى تضفى عليها حكمتك وطيبتك وألتمس أن تعيد إلىّ هذا العقد المرافق .

ولى الشرف مع ما أكنه من صلة الاحترام بأن أكون خادمك المطيع.

فولتير

سيدى

إذا أردت أن تشرفنا بالعشاء يوم الاثنين أو الثلاثاء مع المريض الكهل فسيكون ذلك أول مرة يجلس فيها إلى مائدة العشاء منذ ثلاثة شهور .

لقد وصلتنى إجابات دقيقة من حضرة المراقب العام على التماسات كنت رفعتها إليه ، وسيكون من الخير أن أعرف آراءك وآراء مسيو ديفيرنى عن جميع المسائل التى ستتكلم فيها .

فى بلدة فيرسى رجل أمين اسمه بوزيه يطلب عملا بادارة الملح . فاذا كان هذا العمل لم يعط لغيره ، وإذا كان لا يزال فى الوقت فسحة ، فانى أتقدم بالتوصية على هذا الرجل الذى تكلموا عنه بالخير وهو قدير على خدمتك .

ولى الشرف مع ما أكنه من صلة الاحترام بأن أكون خادمك المطيع .

فيرنى ٩ فبراير سنة ١٧٧٦

فولتير

سيدى

لى الشرف بأن أرسل لك رسالة قس مانس . فهذا الرجل عنيد ، وهو لا يعنى بوساطتك فى قلة حياء . وأرجوك يا سيدى أن تتدخل لتحمله على أن ينتظر خمسة عشر يوماً . فالمفهوم أنه الآن ممنوع بأن يأتى بسلع من ليون ولا يمكن تصريف هذه السلع فى جنيف إلا بخسارة كبيرة . وفضلا عن ذلك فهذا القس الجشع المشاحن الذى يضطهد الفقراء هو أحق بعقوبة تردع أمثاله من أن ينال نقوداً . وإنى أرجو فى كلمة ألا يحمل فلاحى فيرنى نفقات جديدة فى حين نتخذ نحن إجراءات مناسبة .

إن الحادث الذى حدث لامرأة فقيرة أسكنها فى ضيعة فيرنى على سبيل الاحسان وهو أن الكتبة استولوا على قمحها الذى أشعلنا فرن القصر من أجله، لهو برهان جديد على الخدمة الكبيرة التى تسديها للبلاد ؛ إذ ترسل هذا القطيع من الموظفين الذى يرهب مديريتنا الصغيرة إلى الجبال ؛ نخير لهم أن يكونوا زملاء للذئاب والدببة . وإذا أمكن أن يعين السيد أنسيان قسا لهم أيضاً فان ذلك يكون مناسباً جدا .

ولى الشرف من أعماق قلبى يا سيدى بأن أكون خادمك المطيع .

فولتير

من هنا وهنالك

آثار الدولة المعينية فى جوف اليمن

قام علماء الآثار والتاريخ بدراسات شتى لمختلف الحضارات القديمة ، فذكروا بعض الشئ أو أكثره مما بحثوا فيه عن الحضارات الصينية والهندية والفرعونية والأشورية واليونانية والرومانية وغير ذلك ، وبقيت حضارة اليمن، أو حضارة سهول القسم الجنوبى من شبه الجزيرة العربية فيما قبل التاريخ ، مجهولة إلى يومنا هذا ، ولم يعرف عنها إلا القشور التى لا تؤدى إلى معرفة تلك الحضارة معرفة صحيحة .

فبعد أن تمكن الصيدلى الفرنسى أرنو T.J. Arnaud أن يكون أول باحث وصل إلى منطقة سبأ فى عام ١٨٤٣ وحصل على نقوش مارب ، كلفت الأكاديمية الفرنسية للنقوش والفنون الجميلة المستشرق الفرنسى جوزيف هالفى Joseph Halévy البحث عن النقوش الحميرية ، فقام فى شتاء عام ١٨٦٩—١٨٧٠ برحلته المشهورة إلى اليمن ، وزار مناطق سبأ والجوف ونجران ، وعاد بنتائج عظيمة وجديدة فى ذلك الوقت من نقوش ومعلومات عامة ، كانت ولا تزال هى المرجع الوحيد إلى يومنا هذا عن الجوف بصفة خاصة . أما المناطق الأخرى مثل سبأ وظفار وحضرموت وغيرها فقد حظيت بزيارات عدة من المستشرقين والرحالة المختلفين ، وظلت منطقة الجوف فى زوايا النسيان ، أو كأنها منطقة حرام على العلم والعلماء مدى ثلاث أرباع قرن ، حتى أتاحت الظروف للكاتب أن يجول فى الجوف ويدرسه مرتين فى عامى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ ، وبذلك سيكون لنا من هذه الدراسات الحديثة مرجع جديد عن مهد الدولة المعينية .

ويمكن القول بأن هالفى قام بدراسته تحت ظروف سيئة جدا فى هذه الرحلة المذكورة . ومع أنه تزيا بزى يهودى يمنى ، فقد كان يكتب ملاحظاته وينسخ النقوش على قصاصات من الورق على هيئة شريط يلفه على أصبعه ، وأحياناً كان يكتب على كم قميصه ، وكان يخفى أوراق مذكراته فى الأرض حتى يعود لمكانه خشية التفتيش الذى تعرض له مراراً،

وكان أهالى الجوف يرتابون فيه لبحثه عن الآثار والنقوش ، فتعرض للقتل غير مرة ، ولهذا كان يخشاهم ويتملكه الخوف والاضطراب النفسانى. وقد اتضح لنا الآن أن نتائج هالفى تحت هذه الظروف السيئة قد أصبحت ناقصة مبتورة ومشوهة .

ويجدر بالذكر أن المستشرق النمساوى إ . جلازر Eduard Glaser زار اليمن أربع مرات فيما بين سنى ١٨٨٢ ، ١٨٩٢ بتكليف من الأكاديمية الفرنسية أيضاً وأكاديمية براغ ، ومرتين على نفقته الخاصة ، ولكنه لم يتمكن من زيارة الجوف خوفاً على حياته من القبائل الذين كانوا يقتلون معظم الرحالة ، فعلم البدو طريقة طبع النقوش على ورق الاستمباج Estampage وأحضروا له بعض نقوش الجوف ، وأمكنه أن يصحح بعض أخطاء هالفى ، ولم يتمكن من أن ينشر إلا القليل من النقوش لعدم دراية البدو الدراية الفنية التامة بطبع تلك النقوش،ولتصرفهم فى تنويع أماكن مصادرها وعددها أيضاً .

وقد جمع هالفى فى كل رحلته ٦٨٥ نقشاً من سبأ والجوف ونجران ، وما على طريقه بين هذه المناطق ، منها ٤٨٦ نقش خاصة بالجوف فقط . وظهر لنا أن كثيراً من عدد هذه النقوش مجزأ من نقوش قليلة ، وأن سطور نقوش كثيرة اختلفت أوضاعها بالتقديم أو التأخير ، وأن سطوراً بل نقوشاً بأكملها لم ينسخها قطعاً ، وإلى غير ذلك مما اتضح لنا حديثاً من الصور الفوتوغرافية التى حصل عليها الكاتب وما نسخه فى رحلتيه أثناء عامى ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ . ومن مجموعة هذه النتائج الأخيرة سنقدم بلا شك للباحثين فى النقوش والآثار العربية قبل الاسلام عوناً كبيراً فى دراساتهم التاريخية ، ونتيح لهم دراسة الخط المسند الذى قد يساعد على حل مشكلة إثبات تاريخ الدولة المعينية وهل هى كانت قبل سيدنا سليمان والملكة بلقيس فى القرن العاشر قبل الميلاد أو بعد هذا التاريخ .

والآثار المعينية الباقية كثيرة ، وقاست كغيرها من الآثار العربية القديمة الأخرى فى شرق الهضبة باليمن على حين نجد غرب الهضبة أو التهامة خالية من الآثار تمام الخلو . وإلقاء نظرة على طول الخط الشرقى لهضبة اليمن ترينا أن دولة معين قامت فى شمال هذا الخط ، ودولة سبأ تأسست فى وسطه ، ودولة ظفار فى جنوبه . وتعليل وضع هذه الدول قدماً

فى شرق الهضبة كان لا بد راجعاً إلى الأسباب الآتية :

أولا — ارتفاع سطح السهل الشرقى إلى ما مقدار متوسطه ١٢٠٠ متر عن سطح البحر وهو ارتفاع عظيم ، فى حين أن أقصى ارتفاع فى التهامة لا يزيد عن ٣٥٠ متر عن سطح البحر ، يساعد على انتشار السكان فى وسط صحى أحسن .

ثانياً — جفاف هذه المنطقة الشرقية ، وتباين النهايتين العظمى والصغرى فى الحرارة اليومية ، من دواعى التفضيل للمعيشة على التهامة حيث تكون الرطوبة فيها عظيمة جدا لتقارب نهايتى الحرارة بسبب جوارها للبحر الأحمر .

ثالثاً — اتساع رقعة الأرض فى الشرق والجنوب الشرقى إلى مدى مئات الكيلومترات بما فيها الربع الخالى وحضرموت ، حيث تغمرها سيول الأمطار الوفيرة القادمة من الهضبة بكميات غرينية عظيمة فتساعد على زيادة الزراعة وكثرة المراعى ووفرة الخيرات ، ويتبع ذلك العمران . وهذا ما لا يتيسر فى الغرب حيث عرض التهامة يكون بالغاً نحو ٦٠ كيلومتر ، وتربتها متأثرة فى كثير من مساحاتها بالملوحة الناشئة عن رشح ماء البحر الأحمر .

فلهذه الأسباب مجتمعة مر طريق القوافل قديماً بشرق اليمن ، وارتقت الحضارات فى الشرق بسبب جودة الطقس ووفرة الزراعة وكثرة المراعى وانتشار السكان وتبادل المعاملات التجارية وتعهدات النقل البرى بالجمال ، فكانت بذلك الأمة اليمنية قديماً (أو قوم عاد) حلقة الاتصال بين أمم أواسط وغرب آسيا وبين شمال الجزيرة العربية وساحل البحر الأبيض المتوسط ومصر .

وقد ترتب قديماً على تركيز هذه الحركة التجارية فى اليمن مع ما فيها من إنتاج زراعى أيضاً ، أن انتقلت هذه الأمة من حياة البدو الخالصة أو الرعاة إلى الحياة الرفيعة ، فأسسوا المدن العظيمة على الطريق ، وأنشأوا المعابد الضخمة . ولما فكر بعض الطامعين فى غزو البلاد لاستغلال ثرواتها أقيمت الأسوار الضخمة بالأحجار الهائلة بقصد الدفاع ، وفيها فتحات لتصويب السهام مما هو باق إلى وقتنا هذا .

ويتبين لنا من هندسة بنائهم ، أنهم كانوا على شئ كبير من الفن والذوق مع البساطة وعدم التعقيد ،

وأنهم قد نقلوا طريقة البناء بالحجر والحفر عليه عن قدماء المصريين إذ كان الاتصال التجارى بينهم ذا شأن عظيم . ويظهر لنا من تسجيل قصصهم وتقديم قرابينهم وبعض تواريخهم كتابة على الأبنية بعد إقامتها ، إما بالحفر أو بالتبريز ، مع تناسق القياس في الأبعاد والأحجام وغير ذلك ، أنهم كانوا أهل علم وخبرة ودقة . ويتضح لنا من بعد الجبال التى أتوا بأحجار البناء منها ، وطريقة قطعها وصقلها مع ضخامة حجمها ، أنهم كانوا أصحاب قوة وبأس وعزم ، وتدل آثار معابدهم على أنها كانت فى داخل المدينة وخارجها ، وكانت التى بالخارج مقامة دائماً على مسافة يسيرة من الركن الشمالى الشرقى للمدينة . ولعل ذلك كان عن عقيدة تشبه ما كان يتخيله قدماء المصريين من أن سماء الجهة الشمالية الشرقية تحوى حقول الخيرات الكثيرة فى الحياة الأخرى ، وأن كل فرد سينال منها نصيبه بمقدار ما يقدمه للمعبود فى الحياة الدنيا وهو الموضوع بهذا الركن المذكور . وأمكننا أن نجد قبور بعض الخرائب فى الركن الجنوبى الغربى . ولعل ذلك يساير اعتقاد المصريين بأن الموتى يقطنون عالماً غربياً . كذلك كانت لهم فى العقائد الدينية رموز للروح كالثعبان والبومة والكلب والتيتل والبقرة وعنقود العنب وغير ذلك مثلما كان لقدماء المصريين . كما كانت لهم نقوش زخرفية ولكنها بدائية ، وكذلك صناعة نحت التماثيل المرمرية . وكلتاهما لم يصل إلى حد الكمال الذى بلغه المصريون . ونقطع بأنهم لم يستعملوا الألوان كما استعملها المصريون وغيرهم وكذلك لم يستعملوا سوى الأحجار الجيرية والرملية وبالاختصار : قد يكشف الدرس فى المستقبل عن علاقة أو تشابه إلى حد ما بين آثار اليمن وآثار الفراعنة .

ويبدو لنا من مساحة مدنهم القديمة أنها كانت لسكنى الأشراف وذوى المكانة من رجال الدولة وأسرهم ، وكذلك لتحصيل المكوس ، ولخزن غلات الأرض لسنى الجدب ، ولإقامة الطقوس الدينية . أما جمهور الشعب فلا بد أنه كان يعيش فى حالة البداوة كما كان قبل عصر العمارة ، وكما هى أكثر حاله الآن .

وتدل بعض الآثار المعينية الشامخة الباقية للآن على أنها قد تأثرت كثيراً فيما مضى بالعوامل الطبيعية ، فتهدم الكثير منها . وأهم هذه العوامل الاغراق من سيول الأمطار الشديدة

الجارفة ، والزلازل التى زعزعت الكثير من الأبنية أو أحدثت بها تشققات عميقة وكبيرة ظاهرة . ففى خربة آل همدان بالجوف بقايا معبد قديم يسميه البدو الآن « بناة عاد » (أى بنيان عاد) وكانت بعض أعمدته لا تزال قائمة حتى سنة ١٩٤٤ ، ثم أتى عليها سيل عظيم جدا لا يقل عن سيل العرم وشاهده الكاتب فى سنة ١٩٤٥ ، وطغى طغياناً شديداً، على تلك المبانى فتخربت وفقدت شكلها الأصلى .

وكلا العاملين (السيول والزلازل) كانا سبباً فى هجرة السكان قديماً على موجات متتالية من أثر الخوف والهلع من جهة ، ومن إصاباتهم فى أنفسهم وفى أموالهم من جهة أخرى ، إلى الشرق والشمال وغيرهما من جهات الجزيرة . ولما جاء عصر انحسار الأمطار ، ولمدة سنوات متتابعة ، ولمرات متكررة على غير ما ألفوه فى بدء عهدهم فتسبب لهم القحط ، وتغير الرخاء والنعيم إلى شقاء وجحيم ، وتبدلت جنتهم بخمط وأثل وأراك كثير وشىء من سدر قليل ، نزحوا فى موجات أخرى إما إلى الجهات الشمالية وغيرها ، وإما إلى الداخل نحو الهضبة ، فقلت آثارهم فيها وتفرقت ، ثم امتد الباقون بالعمران من الناحية المجدبة فى الشرق شيئاً فشيئاً إلى حيث وفرة الأمطار على قرب الهضبة (أى التهامة). ثم ظهر الاسلام وانعدمت بذلك أو تنوعت واختلفت آثارهم . هذا عدا بعض اعتبارات أخرى لها قيمتها فى أسباب الهجرة رغم اختلاف العوامل السابقة الذكر ، مثل ازدياد عدد السكان وازدحامهم وإغارة البعض على مواقع البعض الآخر ، وكثرة الحروب بينهم، وانتشار الفتنة فيهم ، وعدم استتباب الأمن ودخول عناصر غريبة عليهم ، وفوضى الاحتلالات الأجنبية من الرومان والأحباش والفرس .

من هذا التشتت والانحلال فى قوم عاد ، ولعدم الأمن على التجارة بطريق القوافل ، ولما كان من غلوهم فى تحصيل المكوس وأجور النقل لاحتكارهم وسائله ، ولجملة أسباب أخرى طبيعية واجتماعية ، ثم لوصول الرومان إلى معرفة مواقيت النقل البحرى المناسبة من فصول السنة بالبحر الأحمر ، لهذا كله مات طريق القوافل وتحول عن شرق اليمن . ولم يكن تحول الطريق هو العامل الأول الذى أمات دول الشرق .

ومما يجدر بالذكر أن الأبعاد كانت موحدة غالباً فى تأسيس المدن قديماً ، فالمسافات فيما بينها كانت فى منتهى

الدقة مما يدل على أن ذلك يتصل اتصالا وثيقاً برحلات القوافل وتسهيل حمايتها أو إقامتها أو تموينها على طول الطريق . وكذلك كان توحيد هذه المسافات لعوامل محلية هامة أخرى فى ذلك الزمن ، مثل إعطاء الأنباء أو تبليغها ونقلها بينهم بالاشارات أو الأصوات . ولما حاق بها الدمار والهلاك نأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، وبعدت تلك المسافات بعداً شاسعاً ، صار الارتحال فيها خطرا ومهلكاً . وكان ذلك مصداقاً لقوله تعالى : « وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . »

وثبت لنا من دراسة الشكل الخارجى لبقايا تلك الآثار المعينية أنها تمثل ثلاثة عهود :

العهد الأول — وأحجار بنائه هى الأصلية الثابتة إلى وقتنا هذا كما بناها قوم عاد .

والعهد الثانى — وأحجار بنائه متراصة فى غير تنسيق بعد هدم حصل ، ونقوشها تبعثرت وأوضاعها قلبت ، مما يدل على أن ذلك كان عصر فوضى وعبث وحروب وقعت حوالى فجر الاسلام .

والعهد الثالث — وأحجار بنائه صغيرة ، وأدخلت مادة الطين فى إقامتها وتركيبها ، وهذا حصل بعد ظهور الاسلام حتى القرن السادس الهجرى .

وقد أصبحت هذه الآثار معروفة « بالخربات » لأنها مهجورة ولا يرغبون فى سكناها (إلا فى بعض حالات نادرة مثل زوال الآثار وبقاء الكومة الترابية وقيام البناء الحديث عليها) ، وذلك إما للنزاع على تملكها وكسب ما بها من كنوز قوم عاد ، وإما تأثرا بالدين لأنها أماكن حلت بها لعنة الله .

ونلاحظ أن هذه الخربات مقامة على أكوام صناعية من الطين تعلو نحو ١٠ مترا عن مستوى أرض الجوف وذلك كان بلا شك لحماية أنفسهم من سيل المطر ، مثلما كان يفعل المصريون لحماية بعض قراهم من فيضان النيل .

ويطلق البدو على آثار هذه الخرائب أسماء مختلفة ، منها آثار الكفار ، وآثار الأولين ، وآثار عاد ، وآثار حمير ، وآثار الجاهلية ، وآثار هلالية .

وقد تيسر للكاتب أن يزور أو

يقف على معالم خمس وعشرين خربة فيدرسها دراسة مستفيضة من مختلف النواحي والأغراض العلمية إلى حد ما ، ومنها إحدى عشرة خربة بها عشرون ومائتا نقش ، والباقي ليس بها نقوش ، ومنها تسع خربات فقط زارها هالفي ونوه عنها في تقريره .

وحالة هذه الآثار المعينية ، بصفة عامة ، لا بأس بها إلى الآن ، ولو أن كثيراً منها قد تهدم بفعل السيول ، وأصاب بعض الحفائر تعرية بفعل السيول أيضاً فصارت مطمعاً للأهالي، وطمس بعضها في الرمال ، أو حصل لها تلف بفعل الأهالي الذين ينزعون الأحجار للاستعانة بها في بناء منازلهم وغيرها . كما أن الأهالي يعتقدون اعتقاداً راسخاً بتوارثهم ملكية هذه الآثار عن أجدادهم بني حمير وينقبون كثيراً في هذه الخرائب للبحث عن الكنوز ، ويسافرون إلى عدن بما يجدونه من تماثيل مرمرية وعملة من مختلف المعادن، وأختام ذهبية وحجرية، وحبات قلادات من عقيق وأقراط وفصوص خواتم وغير ذلك من التحف الصغيرة ، أو بما يقدرون على حمله في أمتعتهم من الأحجار المنقوشة لبيعها أو يبيعونها لتجار بصنعاء كوسطاء للبيع في الخارج . وكثيراً ما يتفننون في تنويع مصادرها ليهولوا في مشقة السفر إليها ، وليرغموا فيها ، ويغروا المشترى برفع أثمانها . وقد جمع رجل فارسي Parsée في عدن على ممر الأيام مجموعة عظيمة من الآثار الحميرية بين سبئية ومعينية وغيرها ، وهي مجموعة لا توجد في أكبر المتاحف . ويا حبذا لو اقتنتها إحدى الأمم العربية . وكذلك كادت تزول معالم بعض النقوش الثابتة لعدم وقايتها من المؤثرات الطبيعية .

وهكذا تتناثر آثار اليمن بين مختلف الأيدي والمتاحف (كما كان الحال بمصر في القرون الماضية) دون القطع بمصدرها ؛ لأن البدو هم الذين أجروا الحفر وليست هيئات علمية منظمة . وهكذا أيضاً تندثر آثار اليمن شيئاً فشيئاً في الرمال بفعل العواصف ، أو تزول باستغلال الأحجار في الأبنية الحديثة . وعلة ذلك أن حكومة اليمن تبيح للأهالي التنقيب ، ولا تحظر الاستغلال ولا تمنع البيع . وبهذا تفوت على العرب صيانة بقية التراث العتيد لقصة طويلة عن قوم عاد ، وقوتهم ثم هلاكهم ، والتي لا زلنا نجهلها ونجهل العبرة بها .

محمد توفيق

شهرية العلم

العلوم عند العرب

اختلف الناس كثيراً فى تقدير ما للمدنية العربية من أثر فى العلوم والفلسفة ، فمنهم من يرى أن العرب لم يكونوا فى الواقع إلا ناقلين عن اليونانيين وأنهم لم يضيفوا إلى علم هؤلاء إلا شيئاً قليلا لا يؤبه له ، وأنهم لو لم يقوموا بنقل المؤلفات اليونانية إلى العربية لوصل العلم اليونانى إلى أوربا بطريقة أخرى كما حدث فى أول النهضة الأوربية . ويرى آخرون أن للعرب فضلا كبيراً فى إحياء هذا التراث العلمى ، وأنهم لم ينقلوه فحسب بل كان لهم فضل شرح الفلسفة اليونانية ، وأنه لا يكفى لفهم أفلاطون أن تعرف اليونانية بل يجب أن تعرف قدراً كبيراً من الفلسفة ، وأن فهم الأوربيين لهذه الفلسفة اليونانية لم يكن ليتم لولا التعليقات الدقيقة والشروح الوافية التى قام بها العرب .

ومما زاد هذه المسألة تعقيداً ما أحاط بها من عوامل الكرامة القومية والاعتبارات الدينية. فمن الغربيين من لا يعترف للعرب بفضل ما على المدنية كأنهم عالة على الفكر البشرى . ولعل ذلك بقية من آثار القرون الوسطى حين كان العرب خطراً على أوربا وكان الاسلام خطراً على المسيحية ، وحين كان بعض المسيحيين يعتقدون أن الطعن فى الاسلام ضرب من ضروب التقوى . وكذلك أسرف بعض الشرقيين فى تقدير فضل العرب على العلوم لما فى ذلك من إرضاء للعزة القومية . وليس من شأننا أن نتأثر بمثل هذه العوامل ؛ فدراستنا موضوعية بحتة ، والوطنية العربية اليوم أهدأ أعصاباً وأثبت أسساً من أن تتأثر بمثل هذه البحوث أو هكذا يجب أن تكون . والغربيون أبعد ما يكونون اليوم عن أن يخشوا الاعتراف بما للاسلام من فضل فلن يضير ذلك ما بقى من المسيحية فى قليل أو كثير .

ومن السخف أن تتخذ مثل هذه

المسائل مجالا للمفاضلة بين الأمم أو بين المفكرين فى الأمة الواحدة . فالنتاج الفكرى نتيجة لعوامل كثيرة جداً ، أهمها درجة نمو العقل الانسانى فى العهد الذى يعيش فيه العلماء ، وإنما يتفاضل الرجال بما فيهم من صفات عقلية وشخصية خاصة بهم بصرف النظر عن قيمة ما ينتجون . ولعله لم يبق من طب أبقراط أو الرازى شئ فى الطب الحديث ، وهما مع ذلك يعدان فى الطبقة الأولى من الأطباء .

ليس الغرض من هذا البحث المفاضلة بين أمة وأخرى ، وإنما غايتنا منه أن نضع المدنية العربية فى موضعها من التاريخ العام؛فهى لم تكن ظاهرة شاذة قائمة وحدها بل هى جزء من تطور الفكر البشرى ، وأثر العرب فى هذا التطور هو مفخرتهم الكبرى.ولا يقاس هذا الأثر بما تركوا من مبتكرات علمية ، بل يجب أن يقاس بمعيار آخر سنبينه فيما بعد .

ولتقدير هذا الأثر حق قدره طريقان: طريق البحث فى التفاصيل وفروع المسائل ،وطريق آخر هو دراسة التاريخ العام للتفكير العلمى وتحديد موقع المدنية العربية منه .

أما الطريق الأول وهو ما اتبعه الباحثون حتى الآن فهو عندى طريق غير مجد ، وذلك أن ندرس المؤلفات اليونانية والعربية وأن نتبين ما زاد العرب فى العلوم اليونانية . ومما لاشك فيه أن مثل هذا البحث يدلنا على أن العرب علموا من مسائل الضوء والحساب والأمراض والعقاقير والكيمياء ما لم يكن اليونان يعلمون عنه شيئاً ، ولكن مجموع هذه المسائل على أهميتها لايعد شيئاً كبيراً ولايمكن استقصاؤها. ولو استطعنا أن نقوم بهذا الاستقراء فانه على صعوبته لن تكون له قيمة فى التدليل على أثر العرب فى العلوم . فمن السهل مثلا أن نثبت للرازى فضل التمييز بين الحصباء والجدرى ، ولذلك أهميته فى تاريخ الطب ، ولكنه لا يساعد على تقدير قيمة العلم العربى فى جملته .

والذى يجعل هذا البحث التفصيلى عقيما اعتبارات تتعلق بطبيعة العلم فى القرون الوسطى نورد بعضها فيما يلى :

١ — لم يكن الابتكار غاية من غايات علماء ذلك العصر ، فقد كان للعلم حدود واضحة ، وكان للتفكير قواعد ثابتة لا يحيد عنها ، وكانوا يعتقدون أن كل حقيقة جديدة يجب أن تقع داخل هذه الحدود ، وكانت غاية العلم أن ينجح العالم فى تفسير كل جديد تفسيراً يدخله فى حدود

النظريات القديمة . فاذا اختلفت المشاهدات والمنطق وجب أن تؤول المشاهدات ؛ لأن المبادئ الفلسفية لايمكن بداهة أن تكون خاطئة. فليس من الدهش ألا يكون العرب مبتكرين ، بل إن الابتكار كان يعد حينذاك بدعة ونقصاً وخروجاً على العلم .

٢ — كان من أخص صفات علماء القرون الوسطى من عرب أو لاتينيين الايمان بالمنقول وتقديس كل ما ورد عن الفلاسفة القدماء ، وكان للقدم وحده قيمة كبيرة ، وكان طبيعيا أن يجتهد كل عالم فى أن ينسب آراءه هو إلى القدماء ، وهذا مادعا المؤلفين الغربيين أن ينسبوا إلى جابر بن حيان كثيراً من آرائهم فى الكيمياء وإن لم تكن من أعماله. والكيمياء كانت فى أشد الحاجة إلى أن تدعم نظرياتها بمثل هذه الوسيلة ؛ لأنه لم يكن لها سند من الواقع ، ونسبة الرأى إلى القدماء تضفى عليه ثوباً من الحكمة . ولم يكن ذلك منهم ادعاء أو كذباً أو تمويهاً مقصوداً، ولكنها عقلية خاصة. والمؤلفون فى القرون الوسطى كانوا يعتقدون أن الرأى الذى يرونه حقا لا بد أن يكون قد عرفه القدماء وإن لم يصل إليهم نص يدل على ذلك ، وكانوا يرون أن الحكمة شائعة بين الحكماء ، فكانوا لا يرون غضاضة أن ينسبوا إلى أفلاطون من الحكمة ما لم يخطر له على بال . ولعلهم كانوا يرون أن الرأى الصائب إن لم يكن قاله أفلاطون فقد كان يصح أن يقول به ، وكان يستوى عندهم أن يقولوا قال أفلاطون أو قال بالينياس أو قال أحد الحكماء ، كل ذلك عندهم بمعنى إذ المهم أن ينسب الرأى إلى فيلسوف قديم . والمحدثون تزعجهم هذه العقلية الغريبة التى لا تعنى بالدقة فى التفكير ولا فى النقل ولكنها صفة عامة فى علماء القرون الوسطى ، يستوى فى ذلك العرب وغير العرب ، وذلك يجعل من المستحيل تحقيق ما ينسب إلى المؤلفين وتحديد ما هو عربى وما هو يونانى أو لاتينى .

٣ — من المستحيل أن ينقل علم من أمة إلى أخرى إلا أن تكون هذه الأمة قد بلغت من التقدم الفكرى ما يؤهلها لاستيعاب العلم المنقول . ومن الصعب أن يتصور الانسان أن أمة من الأمم تعنى بالعلم والفلسفة كما عنى العرب وتشغف بهما كما شغفوا دون أن تصبح هذه العلوم جزءاً من حياتها . إنما ساءت سمعة العرب العلمية عند من يظنون أن الشرح والتعليق أعمال ثانوية لاقيمة لها . وهو سوء فهم لطبيعة العلوم فى القرون الوسطى ؛ إذ

الواقع أن الشرح والتعليق كانا كل مظاهر العلم فى ذلك العصر، ولم يكن للعلم أن يتعدى الشرح والتعليق، وكان الذى يجرؤ على أن يجاهر برأى جديد لا يعد عالماً مبتكراً وإنما يعد غير عالم بما قال الأولون، وهو عندهم الجهل كل الجهل. والروايات مستفيضة عن تمكن هذا التفكير العجيب من أهل القرون الوسطى. فقد ذكروا أن أحد أطباء جامعة بادوا عرض على أستاذه أنه يريد أن يبحث مسألة بعينها، فقال له أستاذه: «لاتتعب نفسك فقد قرأت كل ما كتب أرسطو وجالينوس فلم أعثر على شئ يتعلق بهذه المسألة، ومن العبث أن تبحث على شئ لم يعرفه أرسطو ولا جالينوس.» فهذا العيب العقلى ليس مقصوراً على العرب ولا صفة خاصة بهم، ولكنه عيب عام ناشئ عن طبيعة العلم فى ذلك العصر، وهى عقلية ليست عربية ولا غربية، بل هى عامة فى تاريخ كل أمة، وهى مظهر من مظاهر الايمان القوى، ولابد من وجودها فى كل مدنية.

ثم إن العرب لو كان نقلهم للعلم اليونانى نقلا آليا لكان علمهم به واحداً على مر القرون. ولكن العلم الذى ينمو ويتقدم لا بد أن يكون علما حيا. والذى يقارن بين الكتب الطبية المتقدمة كالذخيرة والمتأخرة كالقانون يجد فرقاً كبيراً وتقدماً رائعاً بين العهدين. ولو كان علمهم علماً ميتاً ماتم هذا التقدم. بل الواقع أن كتاب القانون على ما بينه وبين الطب اليونانى من الشبه الكبير يفوق من حيث تنظيمه ووضوحه ودقته كل ما كتب اليونانيون فى الطب.

الواقع أن كل مدنية لا بد أن تمر بعهد كلاسيكى هو عهد الابتكار والتنظيم الفكرى، وهو العهد الذى يتبين فيه العقل طريقه إلى التفكير المستقيم، والذى يتم فيه تنظيم الفوضى التى تنشأ عن الجهالة البدائية. والعهد الكلاسيكى فى كل مدنية هو عهد إيجاد القواعد، وتحديد معانى الألفاظ والمصطلحات، وتلمس المبادئ التى ينشأ عنها التفاهم بين أهل البيئة الواحدة. ومن هنا كان العنصر الغالب على كل تفكير كلاسيكى هو العناية بالتنظيم وتحديد كل شئ. وقد قام اليونان بخلق هذا العهد الكلاسيكى فى المدنية التى قامت فى حوض البحر الأبيض وأوربا.

ويتلو هذا العهد فى تاريخ كل مدنية عهد سكون يحسبه الناس خمولا أوانحطاطاً، وهو ليس كذلك بحال من الأحوال، إنما هو عصر الايمان بالعلم

الكلاسيكى ؛ إذ لا بد أن يصل الناس بهذا النوع من التفكير إلى أقصى غاياته قبل أن تتبين لهم حدوده أو خطؤه . ولا تبدأ ثورة الناس عليه إلا بعد أن يستنفدوا كل ما فيه من فائدة. ولا يمكن أن ينتقل العلم طفرة من الدور الكلاسيكى إلى العلم الموضوعى التحليلى الحديث، بل لا بد من استيعاب الفكر للعقلية الأولى حتى يصل الناس منها إلى أقصى ما يمكن أن يبلغوه. وقد حمل العرب عبء هذا العهد الذى لا بد منه لنمو الفكر البشرى وتطوره. ومن سوء حظهم أن هذا الدور ليس باهراً وليس فيه من الانتاج الايجابى المبتكر ما يساعد على تقديره حق قدره عند العلماء المعاصرين .

ولتطور المدنيات مظاهر أعمق بكثير من شرحنا هذا ، وأثر الواحدة فى الأخرى معقد جدا ، ولكنا أردنا التبسيط . وأبسط النظريات فى شرح التطور الفكرى العام أن ننظر إلى الفكر البشرى على أنه كائن حى واحد، وأن أجزاء معينة منه تقوم بدور معين فى وقت خاص من أوقات النمو ، ويكون لكل جزء نصيب واضح جدا فى هذا التطور . فاذا كان اليونان قد قاموا بالدور الكلاسيكى فقد قام العرب بدورهم فى العهد الثانى الذى لم يكن بد من وجوده تهيئة للأذهان للدور الثالث الذى قام به الغربيون . ولم يكن لأحد هؤلاء أن يسبق الآخرين أو أن يقوم بدوره قبل أن يمهد له السلف طريق التقدم . ولا يمكن أن يعاب على العرب أنهم لم ينشأ بينهم تفكير لم يكن العقل البشرى مستعدا له حينذاك .

ولكن العرب أقبلوا على الفلسفة اليونانية بحماسة عجيبة وقوة فهم ، وبلغوا بها فوق ما بلغ اليونانيون أنفسهم . ولا يمكن أن يكون ذلك شأن من كل همه النقل . وليس عيباً أنهم لم يزيدوا فى علم اليونان كثيراً ولم يغيروا من طريقة تفكير هؤلاء ؛ فهو بطبيعته علم محدود . وكل علم كلاسيكى من طبيعته أنه لا يقبل الامتداد إلا إلى درجة محدودة .

ولو لم يوجد العرب لبدأت النهضة الأوربية فى القرن الرابع عشر من حيث بدأ العرب فى القرن الثامن الميلادى ، ولاضطر جاليليو أن يبدأ حيث بدأ جابر بن حيان ؛ إذ لابد لهذه الفلسفة القديمة أن تبلغ أقصى مداها قبل أن يزهد الناس فيها ليبدءوا عصراً جديداً . ومن الخطأ أن نظن أن جاليليو لو عاش فى القرن الثامن لقام بنفس العمل الذى قام به فى النهضة الأوربية ، بل الذى لا شك فيه أن عمل العلماء يتوقف

كله أو أكثره على العصر الذى يعيشون فيه .

ولعل هذا الشرح يدلنا على أن المدنية العربية ظاهرة طبيعية لم يكن بد من قيامها حين قامت ، وأن العرب قاموا بدورهم فى تاريخ الفكر البشرى بأقصى ما يكون من الحماسة والفهم والعلم ، وأنه لم يكن لهم أن يزيدوا فى العلم اليونانى إلا قليلا لأن ذلك لم يكن من أغراضهم ، وأنهم أبعد مايكونون عن أن يكونوا مجرد ناقلين . والذين يفهمون تطور العقل البشرى حق الفهم لابد أنهم يدركون أن قيام العرب بشرح الفلسفة الكلاسيكية أمر هام جدا لم يكن منه بد قبل أن تتهيأ العقول للتفكير العلمى الحديث ، ولولاهم لتأخرت المدنية الحديثة قروناً عديدة .

محمد كامل حسين
أستاذ جراحة العظام بكلية الطب

شهرية الاجتماع

الأزمة الاقتصادية فى بريطانيا

[يسائل الكثيرون عن الأزمة الاقتصادية فى بريطانيا العظمى ، وإلى أى مدى بلغت ، وما هى المشكلات التى تعترضها ، ومتى ينتظر لها التخلص من هذه الأزمة ، وهل هى أزمة شاملة طاحنة . وكنا نقرأ فى ذلك بحوثا ، ولكن أكثرها يقتصر على بعض وجوه هذه الأزمة ، والبعض ملىء بالاصطلاحات الفنية التى تسبب للقارىء عناء . ولكننا قرأنا أخيرا بحثا قيما لكاتب فرنسى واقتصادى معروف هو مسيو روبير شفارتز ، كتبه تحت عنوان « انجلترا تكفر عن ذنوبها » . وهو مكتوب باسهاب ووضوح ، وكتبه من لندن إذ زارها لدراسة موضوعه ، فرأينا نقله لقراء المجلة .]

إن الأزمة فى بريطانيا العظمى التى دخلت فى شهر فبراير الماضى فى أشد أدوارها ، ناشئة من سببين : أحدهما التقهقر المستمر فى الصناعات الأساسية الثلاث — وهى الفحم والحديد والقطن — وكانت هذه الصناعات منبع قوة البلاد وثروتها . والسبب الثانى تكون دين عظيم خارجى على بريطانيا بين سنتى ١٩٣٩ و١٩٤٥ مما أخل بميزانها الحسابى . ولقد اجتمع عليها قدم أداة الانتاج ، مع كونها أصبحت مدينة للخارج ، فصار مركزها خطيراً ، ولابد أن يزداد سوءاً على مر الشهور إلا إذا حدثت معجزة .

لم يكن التقهقر فى الصناعات الأساسية ابن الأمس . وإذا فتحنا الكتاب الذى نشره أندريه سيجفريد فى سنة ١٩٣١ تحت عنوان « أزمة انجلترا » فانه يتبين لنا إلى أى حد كان نقده لنظام الصناعة الانجليزية وأداتها وطرقها صحيحاً ، ينطبق على ما هو حادث بعد ستة عشر عاماً . ومعنى هذا أن بريطانيا لم تنجح هذه الفترة فى قطع تلك المسافة التى سبقها بها منافسوها فى الخارج ، وكانت كبيرة حتى فى سنة ١٩٣١ . والواقع أن مركزها النسبى ازداد سوءاً منذ ذلك العهد . فلقد وقفت الحرب وقفاً يكاد يكون كاملا كل تجديد فى أداتها الصناعية ، وكان من الضرورى أن

يتم هذا العمل قبل سنة ١٩٣٣ . وأدت الحرب أيضاً إلى إهمال الأداة القائمة . فاذا قارنا بين ماتنتجه صناعتها وما تنتجه الصناعات الدولية فاننا نجد الصناعة البريطانية قاصرة بشكل واضح من جميع الجهات . ولكن قد يقال إن ذلك ليس الحقيقة بأكملها — وقد نزعم أن الاحصاءات ليست دقيقة — ومع ذلك فان ذلك لا يسد الفرق الشاسع الذى يفصل بين الأرقام البريطانية وأرقام منافسيها الأساسيين فى الصناعة، وأهمهم الولايات المتحدة . وقد جاء تقرير بلات عن صناعة القطن فى سنة ١٩٤٣ ، وتقرير رايد عن صناعة الفحم فى سنة ١٩٤٤ ، فأظهرا بجلاء انحطاط الوسائل الفنية فى هاتين الصناعتين مما أدى إلى عدم كفاية إنتاجهما الاقتصادى . وفيما يتعلق بصناعات الحديد ، اتفق الخبراء على أن فى هذه الصناعة عددا كبيرا من المصانع القديمة بمعداتها . وتعتمد بريطانيا اليوم كل الاعتماد على الولايات المتحدة فى تجديد أداتها . وهذا يذكرنا أيضاً بما كتبه مسيو سيجفريد فى سنة ١٩٣١ : « فى القرن التاسع عشر كان مهندسو العالم بأسره يذهبون إلى انجلترا ليتعلموا أحدث طرق الصناعة، ولكنهم اليوم يذهبون إلى أمريكا وإلى ألمانيا ، ولن يذهبوا أبداً إلى درهام وإلى نورثمبرلاند أو بلاد ويلز . » ومن الحق أن نقول إن الدخل المالى للمصانع الأساسية فى صناعة الحديد مرضى ، ولكن ذلك ناشئ عن أن هذه الصناعة هى فى الواقع احتكار . وهى تحدد على ذلك كمية إنتاجها بطريقة صناعية ،وتتمتع بحماية جمركية قوية . ويقدر العارفون أنه لكى تستطيع هذه الصناعة أن تجيب طلبات مستهلكى الحديد ، ينبغى لها أن تزيد مقدرتها فى الانتاج من ٣٠ إلى ٤٠ فى المائة . ولما هددت هذه الصناعة بالتأميم ، وضعت فى مارس سنة ١٩٤٦ مشروعاً لتجديد المصانع ، وتنظيم الصناعة ، وينتظر منها فى شكلها الحالى ، أن تزيد مقدرتها على الانتاج ، بما لا يتجاوز اثنى عشر ونصف فى المائة . وهذا يدل على أن عقول المسيطرين على هذه الصناعة تهتم بالاعتبارات المالية ، مثل بقاء الأسعار مرتفعة بطرق صناعية، أكثر مما تهتم ، كما كانت فى الماضى ، بضرورة انتاج نتاج اقتصادى جيد . فنرى من ذلك أن روح المغامرة قد اختفت ، فهم يبعدون الفكرة التى تؤدى إلى استمرار فائدتهم بنقص الأسعار ، وما يجره ذلك من زيادة الاستهلاك .

فالمسيطرون على هذه الصناعة ، التى صارت بمثابة الاحتكار لفئة قليلة ، يعارضون فى القضاء على المنتجين الذين يحصلون على أرباح باهظة ، وكان من الواجب أن تكون مصانعهم وآلاتهم منذ زمن بعيد ، فى يد تجار الحديد الخردة .

ومع ذلك لم يكن للتقهقر الصناعى نتائج خطيرة مثل ما كان فى صناعة الفحم . فقد كان تاريخ هذه الصناعة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى يبعث على الأسف . ففيه من كل أنواع الشرور : إضراب ، وعطلة طويلة واسعة النطاق ، وقلة الأيدى العاملة الناشئة من وقف تجنيد عاملى المناجم ، والقلة المستمرة لانتاجها (وقد نزلت من ١١٧٢٠٠٠ فى سنة ١٩٢٤ إلى ٦٩٢٠٠٠ فى سنة ١٩٤٦) ونقص فى عدد ما يخرج من الأطنان بالنسبة للرجل وللأداة ، فنزل مجموع ما أخرج من الفحم من ٢٦٧ مليون من الأطنان فى سنة ١٩٢٤ إلى ١٨٩ مليون فى سنة ١٩٤٦ (ونزل أكثر من ذلك فى سنة ١٩٤٥ إلى ١٧٤ مليون) . وكان إنتاج العامل بأداته فيما تحت الأرض لا يزيد على طن واحد فى سنة ١٩٤٦ ، يقابله طن وربع طن فى سنة ١٩٣٨ ، ولأول مرة صار الاستخراج لا يكفى لحاجة الاستهلاك الداخلى . أما إصدار الفحم — وهذا ما تشعر به فرنسا جيداً — فقد وقف فعلا ، مع أنه فى سنة ١٩٣٨ كان يمثل ٧٣ فى المائة من صادرات الفحم فى العالم . على أنه من الحق أن نقول إن الاستهلاك الداخلى قد زاد لأن الاقتصاد الانجليزى يمر فى فترة يسير فيها العمل بلا انقطاع .

ولقد انقلب هذا الموقف الخطير فى إنتاج الفحم إلى كارثة أثناء شتاء ١٩٤٦ — ١٩٤٧ ، وهو من أشد فصول الشتاء التى عرفتها انجلترا منذ خمسين سنة برداً . وكان المخزون من الفحم يبلغ ١٥٫٣٩٠٫٠٠٠ طن فى أول سنة ١٩٤٦ فنزل إلى ٨٫٣٤٣٫٠٠٠ طن فى نهاية يناير سنة ١٩٤٧ ، وهذا الرقم لا يكاد يمثل استهلاك أسبوعين فى فصل الشتاء . فصار الانتاج الصناعى فى البلاد منذ تلك اللحظة تحت رحمة أقل الحوادث شأناً ؛ ووقعت هذه الحوادث ، فلقد تساقطت الثلوج غزيرة على هيئة غير معهودة مما سبب الاضطراب فى وسائل النقل . ومنذ ٩ فبراير من هذه السنة أدى انقطاع التيار الكهربائى إلى وقف الإنتاج الصناعى مدة تقرب من ثلاثة أسابيع على ثلثى الأرض البريطانية .

فى أحرج أوقات أزمة الوقود نشرت الحكومة كتاباً أبيض بعنوان « بيان اقتصادى لسنة ١٩٤٧ » وهذا الكتاب الأبيض يذكر أن ٢٠٠ مليون طن من الفحم هو أقل كمية ضرورية لسير الاقتصاد البريطانى . ولكى يمكن الوصول إلى هذا الرقم يجب حشد ٤٠٠,٠٠٠ عامل من عمال المناجم لكى يكون مايخرجونه حول ٧٣٠,٠٠٠ وحتى فى هذه الحالة يجب على مستهلكى الفحم فى غير الصناعة ومستهلكى القوة الكهربائية أو الغاز أن يخضعوا لقيود شديدة .

ولقد تم تأميم المناجم منذأ ول يناير من هذه السنة . وأدى ذلك فعلا إلى تحسن الجو الأدبى للصناعة بعض الشئ ؛ فصار الحشد للعمل أكثر سهولة ، وأخذت نسبة الأطنان التى تستخرج فى الارتفاع . ولكن التنظيم الفنى لمصانع الفحم هو عمل يتطلب مدة طويلة ، وهو يشمل تركيز الاستغلال الموزع على وحدات عديدة صغيرة فى المناجم التى هى أكثر إنتاجاً ثم استبدال الأدوات بما هو حديث ، لا سيما وسائل النقل فيما تحت الأرض . وتنفيذ هذا البرنامج يستغرق مايزيد على عشر سنوات . فالتأميم إذن هو حل يتطلب زمناً طويلا ، ولكنه لايحل المشكلة السريعة وهو الوصول باستخراج الفحم إلى ٢٠٠ مليون طن ، وهى الكمية الضرورية . و يمكن إيجاد حل لذلك ، ولكن هذا الحل يؤدى إلى الاختناق الاقتصادى ؛ فان كل شئ يتوقف على الفحم : إنشاء الصناعات الأساسية ومنها صناعة الفحم نفسه ، و إعادة تجديد الصناعات الأخرى ، وتجديد المخزون للمستهلك ، وبدون ذلك يستمر نظام التوزيع إلى الأبد ، وانشاء عدد كاف من المساكن لحل الأزمة الحادة فى السكن الناشئة عن تدمير مايقرب من أربعة ملايين بيت تدميراً كليا أو جزئيا فى أثناء الحرب . ثم لضرورة أشد إلحاحاً من ذلك ، هى زيادة الصادرات ، وبدونها يستحيل على بريطانيا العظمى أن تعادل ميزانها الحسابى وتضمن للجزيرة ، الغاصة بالسكان بأكثر مما تحتمله ، الواردات الضرورية من مأكولات ومواد أولية.

اضطرت بريطانيا العظمى لكى تكسب الحرب أن تستدين من الخارج فبلغ دينها ما يقرب من ٥٠٠٠ مليون من الجنيهات . وهذا الدين يزيد الآن بكثير على قيمة ما لها من الأموال التى تستثمرها فى الخارج . وقد قدرت فى سنة ١٩٣٨ بما قدره

٣٦٩٢ مليون من الجنيهات . ولقد اضطرت فى مبدأ الحرب إلى تصفية جزء كبير من هذه الأموال المستثمرة — ما يقرب من ١١٢٠ مليون من الجنيهات — فى ظروف كانت فى بعض الأحوال تعتبر من الكوارث .

وما يهم بنوع خاص ، فضلا عن ضياع رأس المال الذى يستثمر لآجال قصيرة على الأقل ، فقد جزء هام من الايرادات التى تأتى كل فترة من استثمار رأس المال فى الماضى وكانت تؤدى إلى موازنة الميزان الحسابى . وكانت هذه الأموال تأتى فى شكل فوائد وأرباح على رأس المال . ولقد تبين حتى قبل الحرب أن فى هذا الميزان عجزاً (عجز ٧٠ مليوناً فى سنة ١٩٣٨ وعجز ٤٣ مليوناً فى المتوسط للسنوات الثلاث من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨) ومعنى ذلك أن بريطانيا العظمى كانت قد ابتدأت تمس رأس مالها ، وإن كان ذلك بنسب بسيطة . ولكن فى سنة ١٩٤٦ قدر العجز بنحو ٤٠٠ مليون من الجنيهات أى أكثر من عشر مرات لمتوسط السنوات السابقة للحرب . ومع ذلك فهذا الرقم لا يترجم إلا قليلا عن سوء الحال العميقة التى حاقت بميزان المعاملات الجارية . فأولا ليست الايرادات الواردة من رءوس الأموال فى الخارج هى التى أصيبت وحدها بانقطاع شديد ، بل كذلك انخفضت الايرادات من النقل البحرى التجارى انخفاضاً كبيراً بسبب ما فقد فى حمولة السفن أثناء الحرب . ومما لا ريب فيه أن نشأة بحرية تجارية أمريكية بلغت مبلغاً ضخماً فى أثناء الحرب العالمية الثانية يجعل من المشكوك فيه أن تسترد بريطانيا ما خسرته فى هذا المجال . ومما يزيد العجز أن نفقات الحكومة البريطانية فى الخارج بلغت ٣٠٠ مليون من الجنيهات فى سنة ١٩٤٦ أمام ١٦ مليوناً فيما قبل الحرب (منها ٢٢٥ مليوناً على النفقات الحربية و ٣٨ مليوناً نفقات الاحتلال فى ألمانيا للادارة المدنية) وبالرغم من كل الوسائل التى اتخذت لضغط المصروفات فان هذه النفقات تبلغ نحو ١٧٥ مليون من الجنيهات فى سنة ١٩٤٧ . ولكى ننتهى من هذا العجز البالغ ٤٠٠ مليون ، يجب أن نذكر أنه مجرد عملية حسابية بين حسابات دائنة ومدينة . والحقيقة أن مثل هذه الحسابات ليست دقيقة ، إذ أن الحساب الدائن مقدر كما هو الحال بعملة هابطة ولا يمكن تحويلها ، فى حين أن الديون تمثل حسابات تدفع بالذهب أو بالدولار . فاذا نظرنا إلى هذا الاعتبار فان العجز فى سنة ١٩٤٦

يزيد كثيراً على ٤٥٠ مليون من الجنيهات . وإذا فرض أن مجموع هذا العجز سيقل حتى يبلغ ٣٥٠ مليون فى سنة ١٩٤٧ ، كما يقدر الكتاب الأبيض الحكومى ، فان العجز بالعملة الصاعدة يكون أزيد بكثير من هذا الرقم . ويظهر من إحصاء نشر أخيراً أن بريطانيا تشترى فى الواقع ٤٨ فى المائة من وارداتها بالقيمة فى بلاد ذات عملة قوية ، ولكنها لا تبيع لهذه البلاد إلا ١٨٫١ فى المائة من صادراتها . (وفى منطقة الدولار وحدها تبلغ هذه النسب ٤٢ و ١٤ لكل من الصادرات والواردات .)

لقد ظلت بريطانيا العظمى منذ نحو قرن ذات ميزان تجارى فيه عجز ، ولكن هذا العجز كان يغطى بالصادرات غير المنظورة وبايرادات أموالها المستثمرة فى الخارج . وقد ارتفع مجموع هذه الواردات من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٨ فى المتوسط السنوى إلى ٣٥٢ مليون من الجنيهات ، وكانت تغطى تسعة أعشار العجز فى الميزان التجارى . وفى سنة ١٩٤٦ بلغت هذه الايرادات ١٢٠ مليون من الجنيهات ، وهو مبلغ تستهلكه وتربى عليه النفقات الحكومية فى الخارج . وفى سنة ١٩٤٧ قدر لهذا الباب زيادة ٧٥ مليوناً ، ولكن هذا الحساب يقدر إصدار مواد تجارية بمبلغ ١٢٠٠ مليون من الجنيهات ، وهو رقم يمثل ١٤٠ فى المائة من حجم الصادرات فى سنة ١٩٣٨ . وهذا الحساب قائم على ارتفاع الأثمان الذى حصل منذ ذلك العهد . ولكن مما يلاحظ أن فى ثلاثة الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٤٦ لم يكن حجم الصادرات إلا ١١٢ فى المائة فى سنة ١٩٣٨ ، ولكى تبلغ بريطانيا ١٤٠ فى المائة يجب فى سنة ١٩٤٧ أن تحقق زيادة قدرها ٢٦ فى المائة بالنسبة لسنة ١٩٤٦ . ولما كان لا الفحم ولا الحديد يستطيعان أن يقدما زيادة يعتد بها للتجارة الخارجية للبلاد ، فان الجهد الأكبر سيقع على عاتق الصناعات الميكانيكية والكيميائية والكهربائية والراديو — كهربائية . ومثل هذه الزيادة فى الصادرات صارت أمراً مشكوكا فيه أكثر مما كان بعد وقف الانتاج الصناعى فى فبراير . ولابد من أن يكون لهذا الحادث تأثير سيزداد الشعور به فى الشهور المقبلة .

فاذن لتحقيق ما رسمه الكتاب الأبيض لسنة ١٩٤٧ يجب أن تحدث معجزة . ومع ذلك فان رقم ١٤٠ فى المائة فى الحجم ليس إلا تكأة متوسطة ، فالتقدير العام أنه لكى توازن

حسابات انجلترا يجب أن يبلغ حجم الصادرات ١٧٥ فى المائة من حجمها فى سنة ١٩٣٨ ؛ وبعد أن أصبحت صناعتا الفحم والحديد لا يعتمد عليهما فى هذا المجال ، يجب على الصناعات الأخرى أن تضاعف صادراتها بالنسبة لما قبل الحرب . على أن انجلترا ليست البلد الوحيد الذى يعمل للدفع بصادراته . وقد صار من المؤكد أن مجموع حجم التجارة العالمية أقل بالنسبة لسنة ١٩٣٨ ، ولذلك يجب ألا يبنى أمل على تعادل الميزان إلا إذا زاد حجم التجارة العالمية نفسها . وقد يقال إن ذلك مستطاع من الوجهة النظرية ، لا سيما إذا نجحت الولايات المتحدة فى مجهوداتها بجعل التجارة العالمية ذات بناء متشعب . ولكن نجاح برنامج الولايات المتحدة الاقتصادى يقوم على أن تقلب الولايات المتحدة سياستها التجارية والجمركية ، وأن ينشأ فى ميزانها التجارى زيادة دائمة فى الواردات . ومع ذلك فان حزبها الجمهورى الذى يؤيد الحماية الجمركية تأييداً شديداً ، وحزبها الديمقراطى الذى هو أكثر تساهلا ، كلاهما لا يفكر فى تغيير أساسى مثل هذا . ولو فعل لمضت سنوات قبل أن يظهر تأثير البرنامج الأمريكى .

والواقع أن عامل الزمن يقوم بدور حاسم فى الأزمة البريطانية . ومما لا شك فيه أن بريطانيا تعيش الآن بالدين . فالعجز فى ميزانها التجارى قد غطته بقروض استدانتها فى سنة ١٩٤٦ من كندا (١٢٥٠ مليون دولار) ومن الولايات المتحدة (٣٧٥٠ مليون دولار) ولو استمرت المطالب على أموالها سائرة على المنوال الحالى ، فان هذه القروض تنفق فى مدى سنة أو ثمانية عشر شهراً من الآن . وإذا لم يتم تعادل الميزان الحسابى فى هذه الفترة — ومن غير الراجح أن يتم هذا التعادل مطلقاً — فيجب إما أن تقترض قروضاً أخرى ، وإما أن تخفض الورادات بنسب كبيرة . وليس الاحتمال الأول أو الثانى مما يبعث على الرضا .

ومما يزيد الحالة اشتداداً أن بريطانيا لكى تدفع ثمناً للحصول على القرض الأمريكى قد تعهدت بأن تسمح بحرية التعامل بالعملة الأجنبية فيما يأتى :

أولا : المبالغ التى تعود الى الولايات المتحدة فى معاملاتها الجارية مع بريطانيا وينفذ هذا الشرط فى الحال .

ثانياً : المبالغ من هذا النوع التى تحصل ببلاد أخرى ، على أن ينفذ

هـذا الشرط من ١٠ يوليه سنة ١٩٤٧ . وفى الوقت الحاضر يكون معنى هذا، التعهد بتقديم دولارات ، وينشأ عن ذلك غرامة إضافية قد تحمل الميزان الخارجى على تقدير التيمس من ١٠٠ إلى ١٥٠ مليون من الجنيهـات . يضاف إليه أن بريطانيا قد تعهدت فى المادة ٩ من الاتفاق الأمريكى الانجليزى بأن تمتنع عن تحويل مشترياتها فى الخارج نحو البلاد التى لا تمانع فى تسوية حساباتها بالجنيه . فهذه المادة تقضى عليها بأن تحافظ على الحالة القائمة فى التوزيع النسبى لأنواع الواردات ، وإن اضطرت إلى خفض الكمية العمومية لهذه الواردات . وهكذا لكى تدفـع بريطانيـا ثمناً لقرض هو فى الواقع غير كاف فى مبلغه ، اضطرت لقبول تعهدات مضرة بها ، حتى تعتبر فى عالم الاقتصاد أنها وضعت فى أغلال من حديد . فهى إذن فى موقف لا يقل اليوم حرجاً عما كان فى ابتداء سنة ١٩٤١ قبل قانون الاعارة والتأجيرة .

فالمشكلة التى يجب على بريطانيا حلها ، هى فى الجملة تحويل اقتصادها فى مدة لا تزيد على خمسة عشر شهراً تقريباً ، إلى الخدمات الجديدة عليها التى يقوم بها البلد المدين . وفى اتجاه معاكس نرى الولايات المتحدة فى مدى ثمان وعشرين سنة بين ١٩١٩ ، ١٩٤٧ ، لم تنجح فى أن تقوم بدور البلد الدائن ، مع أنه من المؤكد أن الانسان يكون أقل ألماً حين يكون عبداً للرخاء منـه حين يكون للفقر . ولذلك كان من غير الراجح أن تستطيع بريطانيا توطين نفسها على هذا الدور ، وأن تجرى على خلاف الساعة .

إذا نظرنا إلى الأسباب النفسية ، فاننا نرى أن العبء الواقـع على بريطانيا العظمى هو أثقل من مجرد فحص العوامل الاقتصادية وحدها . فبالرغم من الضربة الاقتصادية التى حدثت فى فبراير فان الشعب البريطانى ظل فى مجموعه لا يشعر بالخطر المحدق به . فالتفكير فى المستقبل وهمومه هو دائماً وفى كل مكان ، يشغل النخبة المتعلمة . وإذا كانت هذه النخبـة كبيرة نسبياً كما هو الحال فى انجلترا — إذ بيع من كتاب البيان الاقتصادى نحو ٣٠٠,٠٠٠ نسخة — فان السواد الأعظم من السكان لا يستمد معلوماته عن الموقف الاقتصادى بقراءة الوثائق الرسمية ؛ فهو لا يستعمل الاحصاءات مقياساً اقتصاديا ، وإنما ينظر إلى حركة

الأعمال . وهذه الحركة لم تكن بأزهى منها منذ سنة ١٩٢١ ، ومنها نرى مظهراً خادعاً من الرخاء . فقد اختفت العطلة كل الاختفاء أثناء الحرب ، وهبط عدد المتعطلين إلى ٦٣ ألفا فى يونيه سنة ١٩٤٤ على حين كان فى سنة ١٩٣٧ مليونا وخمسمائة وخمسين ألفاً مع أن تلك السنة كانت سنة رخاء . وبالرغم من الهزات التى نشأت عن تسريح الجنود فان هذا الرقم ظل أقل من أربعمائة ألف فى فبراير من هذه السنة ، وجاءت الأزمة فى الفحم فاذا بهذا الرقم يقفز إلى ٢,٣٣٤,٠٠٠ فى مدى أسبوعين ، ومنذ تلك الفترة عادت الأعمال ، وانخفضت العطلة انخفاضاً مستمراً وسريعاً . ويمكن أن يقال فى مدى طويل إن الطلب فى سوق العمل يزيد على العرض .

ومن هذا الأمر ظلت الثقة فى العمل الكامل لدى العمال باقية لم تمس لحد ما ، وظل العاملون فى المناجم يتمتعون بحقهم الأسبوعى فى العمل ، الذى انقص إلى أربعين ساعة وهذا من أول مايو . وقد طلب عمال السكك الحديدية من جهتهم فضلا عن زيادة الرواتب ، أسبوع الأربعين ساعة للميكانيكيين والسائقين ، و٣٥ ساعة لموظفى الادارة . وإذا كان ارتفاع كلف المعيشة مما يسوغ زيادة الرواتب ، فان القلة الظاهرة فى الأيدى العاملة بالنسبة للعدد والانتاج ، وهو ما أشار إليه الكتاب الأبيض ، يجعل النقص لساعات العمل غير مناسب . فالمطالبة بزيادة أوقات الفراغ فى انجلترا اليوم يماثل الأحوال التى كانت سائدة فى فرنسا فى سنة ١٩٣٦ ، وإذا كان الآن لا يوجد تهديد بالغزو فأنه يوجد تهديد لا يقل خطورة ، هو الجوع والانهيار الاقتصادى . فعندما يكون فى حالة اقتصادية عسر عام فى الموارد ، بالنسبة للحاجات الضرورية ، فليس من المستطاع أى علاج دون زيادة عامة فى الانتاج . والحقيقة أن مستوى المعيشة فى انجلترا يجب أن يهبط ويجب أن تطول ساعات العمل ، وذلك لمدة تزيد على عشر سنوات تقريباً ، قبل أن تستطيع البلاد العودة إلى حياة أوسع وأمتع .

وإلى أن يسد الفرق بين الموارد والمطالب يجب أن يوضع سلم تفضيلى وينفذ بشدة . ومن يقول بالتفضيل يقول بالتضحية . فيجب إذن الاتفاق على توزيع التضحيات . وفى هذا الميدان يجب أن تتخذ الحكومة دور الحاكم المستبد . ومع ذلك لم تظهر

الحكومة البريطانية حتى الوقت الحاضر على الأقل إلا حياء شديداً ؛ فهي لا تريد أن تحدث ألماً مهما كان خفيفاً لناخبيها ولا لمعارضيها . فهي قد رفضت حتى الآن وضع قيـود على استيراد أشرطة السينما الأمريكية . وإذا كانت قد زادت من رسوم الدخان في ميزانية سنة ١٩٤٧ — ١٩٤٨ فانها لم ترد أن تتخذ الاجراءات الوحيدة التي تكون فعالة في خفض ما ينفق من دولارات تشترى بها الدخان الأمريكاني إلى أقل حـــد ، وهي تقييـــد وارداته وتوزيعه بالبطاقة . فمن يوليـه إلى ديسمبر سنة ١٩٤٦ لم تشتر بريطانيا آلات صناعية من القرض الأمريكي إلا بما يعادل واحداً من عشرين ، في حين أن الدخان استهلك ٣٢ في المائة . وهذا الرقم مبالغ فيه حتى مع تذكرنا أن المحصول الأمريكي يباع عادة في النصف الثاني من السنة . وترفض الحكومة أيضاً تجنيد الأيدي العاملة كما كان متبعاً أثناء الحرب . وهي تصر على الفرق بين الجماعات الديمقراطيـــة والجماعات التي تتولى فيها الدولة جميع الأمور . ومع ذلك فان الحالة الآن ليست أقل خطورة منها أثناء الحرب . ولا تزال الحكومة تسمح لأولئـك الذين لهم مقدرة على السياحة بمبالغ من العملة كبيرة في سخائها ، مع أنه في هذا الوقت لا مسوغ لغير سياحات الأعمال . والخلاصة أن الحكومة تتجنب كل التضحيات التي هي مؤلمة حقاً ، في حين أنه من الواضح للذين يفكرون أن لا بد لها من الاقدام على ذلك ، إما قريبا أو بعيدا .

والحقيقة أن الهبوط في مستوى المعيشة في انجلترا أمر لا يمكن تجنبه . والأزمة التي كانت في فبراير هي بدء لمحنة كبيرة . فانه عند ما تضطر أمة بأكملها إلى أن تنقص لمن معيشتها ، فـلا يمكن تجنب هزات اقتصـادية واجتماعية وسياسية . والطريقة الوحيدة لتقليل هذه الهزات إلى الحد الأدنى هي اتخاذ إجراءات داخلية أساسية من الآن.

أما أمام الخارج فيجب على انجلترا أن تراجع مركزها ، وأن تتعود موقف المدين . وتبتدئ بأن تترك مركز التبعية الاقتصادية نحو الولايات المتحدة (وهذا هو الشرط الأساسي كي تستأنف سياسة مستقلة خارجية وهو ما يحتاج إليه العالم جداً). ولقد ظلت الولايات المتحدة مدة طويلة تسلك مسلك الدائن العنيد ، الذي يحـرم مدينـه كل الوسائل التي يستطيع بها الدفع ، ثم يشكو من أنه لا يدفع ؛ فقد حان الوقت لأن تسمع

أمريكا صوت الحكمة ، وتذكر الدرس الذى ألقاه الدكتور شاخت حين قال إن المدين الذى يقترض مبالغ كبيرة جداً يقبض على زمام دائنه . وذلك رأى واقعى وليس مجرد حكمة . فاذا كان مما لا يتفق مع الأخلاق أن المدين يستعمل هذا الدرس للنصب على دائنيه، كما فعلت ألمانيا ، فانه من المشروع أن يستفيد المدين منه ليعود إلى رخاء أكبر فيجد الوسائل للوفاء بديونه .

وفى الشهور القادمة سيكون على دائنى انجلترا ، وعلى رأسهم الولايات المتحدة ، أن يختاروا بين سياستين : إما أن يضيقوا الخناق على مدينهم فتقف الدفعات الخارجية ، وإما أن يمنحو مهلة لكى يستطيع أن يسترد رخاءه . وفى العالم الذى نعيش فيه ليس من المؤكد — ويا للأسف — أن تتغلب الحكمة على الشره .

من وراء البحار

ألمانيا وموقفها السياسى فى الوقت الحاضر

يعقد الحلفاء المنتصرون المؤتمرات للنظر فى مستقبل ألمانيا . ولقد كان آخر هذه المؤتمرات مؤتمر موسكو الذى انتهى إلى الإخفاق ، ومن الطبيعى — على قول مجلة « العالم اليوم » ، عدد يونيه — ألا يكون صوت ألمانيا نفسها مسموعاً فى هذا الأمر ؛ فان الأحقاد التى تولدها الحرب من شأنها ألا تؤدى إلى المهادنة . وليس من العجب إذن أن يتخذ المنتصرون دور الحاكمين بأمرهم فى هذه المفاوضات . ولكن وضع شروط الصلح مع ألمانيا و إمضاء هذه الشروط هو الخطوة الأولى فى ضمان السلامة لأوربا . ولكى ننفذ هذه الشروط يجب أن يكون تعاون الألمان خالصاً . والسياسى الألمانى الذى يتكلم اليوم إنما ينطق بلسان ألمانيا فى الغد . فما هو موقفه ونظرته نحو المسائل التى تهم بلاده الآن وفى المستقبل ؟

لكى نجد الجواب على هذا السؤال يجب أن نصف تيارات الفكر السياسى فى ألمانيا . ولعلنا نجد فى هذه التيارات شيئاً من الفوضى . لقد قضى اتفاق بوتسدام بأن « يسمح لجميع الأحزاب السياسية الديمقراطية بحقوق الاجتماع والمناقشة العامة وأن تشجع هذه الأحزاب » . ولكن هذا النص يفسره كل من الحلفاء الغربيين والروس تفسيراً مختلفاً . ففى الغرب اعترف الحلفاء بأحزاب كثيرة ، حتى لقد تمثل كل اتجاه فى الرأى العام فى هذه الأحزاب التى اتخذت اسما سياسيا خاصا ، فى حين أنه لم يسمح فى المنطقة الروسية لغير أربعة أحزاب بالعمل فى مبدأ الأمر ، ثم خفض هذا العدد إلى ثلاثة . فالصورة السياسية لألمانيا اليوم يظهر فيها خط صناعى يسير من الشمال إلى الجنوب ، فى جانب منه يسمح للرأى العام بالتنوع وباسماع صوته ، وفى الجانب الآخر يسير الرأى العام على وتيرة واحدة . فهذا التقسيم بين الشرق والغرب فى ألمانيا ، وهو تقسيم ظاهر فى المناقشات الدولية بأسرها ، قد صار جزءاً ثابتاً فى الحياة السياسة الألمانية.

يوجد فى ألمانيا اليوم أربعة أحزاب هامة : الشيوعيون ، والاشتراكيون

الديمقراطيون، والمسيحيون الديمقراطيون، والأحرار الديمقراطيون . وشجع الروس فى منطقتهم الحزب الشيوعى بكافة الوسائل ، ولقد قضى زعيما هذا الحزب وهما فالتر ولبرخت وفيلهلم بيك سنوات طويلة فى المنفى بروسيا السوفيتية ، وعادا فى سنة ١٩٤٥ وهما مشبعان بالمركسية الأصيلة . وشخصية الأول منهما يكتنفها شئ من الغموض ؛ فهو يتحدث قليلا جدا فى المجتمعات العامة؛ ولكن يقال إنه الرأس المدبر الذى يعتمد عليه الروس فى السير بسياسة الحزب . أما بيك فهو كهل يزيد عليه سنا بعشرين سنة . وهو زميل قديم للبنختت وروزا لكسمبرج الزعيمين الشيوعيين المشهورين بألمانيا . وكان عضواً شيوعيا معهما فى الرايشستاغ قبل حكم النازى . وهو خطيب الحزب الشيوعى الآن والذى يتكلم باسمه . وبرنامج هذا الحزب يقوم على ثلاث مسائل هامة : اتحاد ألمانيا بدستور مركزى ، ووضع نظام اقتصادى لها أساسه تأميم الصناعات والمرافق العامة، ثم الصداقة مع روسيا .

وليس للحزب الشيوعى كثرة حتى فى المنطقة الروسية . ولذلك ابتدأت فى سنة ١٩٤٥ دعاية واسعة لضم الاشتراكيين الديمقراطيين إليه، والجناح اليسارى من هذا الحزب الأخير لا يمانع فى ذلك . واستعملت فى ذلك كل وسائل الدعاية التى كان يستعملها النازى فى الماضى . وأخيراً ، فى أبريل سنة ١٩٤٦ ، أعلن رسمياً انضمام الحزب الاشتراكى الديمقراطى إليه ، وتكوين وحدة من الحزبين سميت حزب الاتحاد الاشتراكى ، بزعامة كل من بيك الزعيم الشيوعى وأوتو جروتفول زعيم الاشتراكيين الديمقراطيين . وبذلك لم يعد للحزب الأخير وجود مستقل فى المنطقة الروسية . وحاول الشيوعيون مثل هذه المحاولة فى غرب ألمانيا ولكن مجهوداتهم لم تكلل بالنجاح . وآخر ما قاموا به من جهود هو ضم الشيوعيين الغربيين إلى حزب الاتحاد الاشتراكى بالمنطقة الروسية ، وليس فى هذا الأمر غير تغيير فى الاسم ، ولكنه يدل على المداورات التى يقوم بها الشيوعيون للتسلل إلى المنطقة الغربية .

أما الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى غرب ألمانيا فهو يقوم بدور هام تحت زعامة كورت شوماخر ، ومركز رياسته فى المنطقة البريطانية . وزعيمه كان عضواً فى الرايشستاغ ، وقد عمل فى أيام حكومة فيمار لإيقاظ حركة العمال ، ووضع فى معسكر اعتقال أيام النازى مدة عشر سنوات ، وخرج ظافرا

ومحترماً ؛ ولكن المحنة التى مرت به جعلت حياته مريرة . ولعل ذلك هو السبب فيما يتهم به من تعصب .
و برنامج حزبه يقوم على ثلاث مسائل أساسية : اتحاد ألمانيا فى ظل حكومة مركزية مع إعطاء سلطة إدارية للولايات ، وتأميم الصناعات الأساسية، وضمان الحرية الفردية والسياسية ، وأهم مسألة يعنى بها الحزب هى المسألة الثالثة ، وهى التى تفرق بينه وبين الشيوعيين .

وقد اتهم الخصوم السياسيون شوماخر بأنه أداة للحكومة البريطانية؛ ولكن هذا غير حقيقى . و إذا كان حزب العمال البريطانى يعطف على الاشتراكيين الديمقراطيين فانه لا يعمل للتأثير فيهم .

أما الاتحاد المسيحى الديمقراطى فهو حزب جديد تألف فى سنة ١٩٤٥ ، وليس له جذور سابقة فى التاريخ الألمانى ، و برنامجه ليس ثابتاً فهو يختلف باختلاف المناطق . و يمكن أن يقال بوجه عام إنه يدعو إلى النظر نظرة مسيحية نحو السياسة ، وتشجيع المجهود الفردى ، و إنشاء دستور قائم على مبادئ ائتلافية . ويتزعم جناحه اليسارى يعقوب كايزر ببرلين ويعده الشيوعيون خصماً شريفاً ، وكان فيما سبق من أعضاء نقابات العمال . وحاول فى سنة ١٩٣٣ أن يدافع عن استقلال نقابات العمال أمام النازى ولكنهم هزموه . على أنه لم يهاجر بل ظل يعمل للاتصال بالعناصر المقاومة للنازية . واشترك فى سنة ١٩٤٤ فى المؤامرة على هتلر . ولم يصبه ما أصاب المؤتمرين إذ اختفى تسعة أشهر فى أحد الأقباء . على أن آراء كايزر الاشتراكية تختلف اختلافاً كلياً عن الآراء الرجعية التى يعتنقها أدناور زعيم الجناح الأيمن للحزب فى المنطقة الغربية . وهو رجل قد جاوز السبعين من عمره ، وورث كل تقاليد البرجوازية الألمانية العتيقة ؛ فهو يعبد فكرة الجهود الفردية ويكره الفكرة الاشتراكية ، ويكره أكثر منها روسيا السوفييتية . والقسم البافارى من هذا الحزب منقسم أيضاً إلى شطرين .

وهذا الاختلاف فى آراء أعضاء هذا الحزب يدل على أساس قوته وضعفه . فهو قوى من جهة العدد لأنه يجمع كل الساخطين ، ويقال إن بينهم جماعة من النازى السابقين ، أى إنه يجمع كل الذين يريدون أن يكون لهم صوت مسموع فى السياسة من غير التقيد ببرنامج . وضعيف لأنه لا يستطيع أن يعتمد على استمرار أعضاء الحزب فيه .

وأما حزب الأحرار الديمقراطى فليس قويا وتتوقف أهميته على شخصية زعيمه فيلهلم كولز ، وهو رجل جاوز السبعين وشغل عدة مناصب فى ألمانيا قبل النازية ، فكان وزيراً للداخلية بحكومة فيمار ، وكان فى سنة ١٩٢٧ رئيساً لجمعية الأمم . ولعل تجاربه السياسية والدبلوماسية هى التى تجعله نافذ البصيرة فى الأخطار التى تهدد بلاده . فبينما نرى السياسيين الألمان فى غرب ألمانيا يحملون على قلة الحرية فى المنطقة الروسية ، (وهم لا يجرءون على مهاجمة روسيا نفسها) وبينما الشيوعيون يحملون على دسائس الرأسماليين الغربيين ، فان كولز يقف هادئاً يقدر هذا النضال بين الشرق والغرب وتأثيره فى بلاده ؛ ويتخذ موقفه على أنه جسر بين فكرتين ، فهو يريد أن يتخذ طريقاً وسطاً ؛ فاذا كانت ألمانيا لا تستطيع التخلص من النفوذ الأجنبى فهى ستنقسم حتما إلى قسمين . وهو يؤيد بشدة الصداقة مع روسيا ، ولكنه يريد ألا يفقد صداقة بقية العالم . وحزبه يرث تقاليد الحزب الديمقراطى القديم ويؤيد المجهود الفردى مع الاحتفاظ بألمانيا دولة متحدة ولكن غير مركزية .

وعند ما افتتح مؤتمر وزراء الخارجية فى موسكو فى ١٠ مارس ، كانت ألمانيا تنتظر قرارات تمس وجودها . فهل تعمل كأمة واحدة أو كدولتين ؟ ولقد تقدم المسيحيون الديمقراطيون فى برلين ودعوا الأحزاب الأربعة الأخرى إلى اجتماع يرسلون فيه ممثلين الأحزاب للبحث فى أغراضهم السياسية والاقتصادية ، ووضع برنامج مشترك يقدم لوزراء الخارجية ، فقبل حزب الاتحاد الاشتراكى وحزب الاشتراكيين الديمقراطيين . ولكن شوماخر اهتبل هذه الفرصة للحملة على الحزب الأول ؛ وانتهت محاولة جمع ألمانيا فى صوت وطنى واحد بالاخفاق . ومع ذلك فقد تتبع الألمان أنباء مؤتمر موسكو بلهفة كأنهم سجين ينتظر حكم القضاة عليه .

والمسألة الكبرى التى يعلق عليها الألمان أهمية هى : ما الذى يتألف منه الصلح العادل ؟ وما هو الدين الذى يشعر الألمان بوجوب وفائه للعالم ؟ وهل هم شاعرون بخطئهم فى إثارة الحرب أم سيسلكون المسلك الذى سلكوه بعد فرساى ؟

أما مسألة الاعتراف بخطئهم فى إثارة الحرب ومسئوليتهم عنها ، فتختلف فى غرب ألمانيا عنها فى شرقها . فالشيوعيون الألمان يتخذون وجهة النظر الروسية أساساً لهم ، ويقدرونها

بالضرر الذى سببته ألمانيا للاتحـــاد السوفييتى . فهم لا ينكرون مسئولية ألمانيا عن الحرب ، ولـكنهم يرون أن الضرر فى تلك الحرب أصاب روسيا ، وأن نصيب الحلفاء الغربيين فى تلك الحرب كان ضئيلا .

أما فى المنطقة الغربية حيث تشجع حرية الرأى فان الكثير من السياسيين يحاولون أن يشركوا فى التبعة البلاد الأخرى . فهم يقولون إن العالم رأى أخطار النازية بادية للعيان ولـكنه لم يعمل على وقفها ؛ بل كانت الدول الكبرى تتملقها . ومعنى ذلك أنهم يتهربون من تبعة الحرب . وإذا كانوا يشعرون بأنه من الواجب أن يدفعوا ثمناً لسياسة ألمانيا النازية،فانهم يحاولون أن يكون الثمن بسيطاً . ولعل هـــذا الاختلاف فى الرأى بين الألمان فى المنطقتين هو نموذج للاتجاه المختلف فى كل مسألة تمس مستقبل ألمانيا . وقد نسوق مثالا آخر من مقال كتبه أخيراً تيودور شتمزر من المســـيحيين الديمقراطيين ؛ وكان حتى الانتخابات الأخيرة رئيساً لوزارة مقاطعة شلزفيك هولشتين . فقد أبدى أسفاً على أن ألمانيا لم يعد لها كيان أمام القانون الدولى ، وأنها معرضة لـكل أنواع الاستغلال التى تعد غير مشروعة فى الأحوال العادية . وهو يتكهن بأن الشعب الألمانى سيخضع إزاء هـــذه الحالة لسياسة هتلر القائلة إن القـــوة هى الحق . ولذلك يلح على وزراء الخارجية المجتمعين فى موسكو بأن يقيموا تسويتهم على أساس ميثاق الأطلنطى ، وألا يميزوا بين الغـــالب والمغلوب .

أما الشيوعيـــون فهم يتـــأثرون موسكو ويرددون أقوالها . ولقـــد وجدت الحملة التى أثارها الروس على الدول الغربية فى مبدأ المؤتمر صدى أميناً فى الصحافة الشيوعية الألمانية . ولا تزال الحملة مستمرة على المعارضين لفكرة اتحاد ألمانيا .

ولعل مسألتى التعويضات والحدود هما أهم مسألتين تمسان الرأى العام الألمانى مباشرة . ولقد وجدت النازية أذناً صاغية بسبب معالجة هاتين المسألتين فى معاهدة فرساى ، ومبدأ دفع التعويضات مقبول بوجه عام فى ألمانيا ؛ ولكن الألمان ليسوا على استعداد لإمضاء تعهد دون أن يتبينوا حقيقته . ولقـــد ترددت أصوات الاحتجاج فى المنطقة الغربية على سياسة نزع الآلات من غير أن يعرف الألمان متى تقف هذه السياسة . وهذه المسألة تخلق الآن جوا من اليأس بين السكان الذين

عرفوا آلام الحياة . أما فى المنطقة الشرقية فقلما ترتفع أصوات الاحتجاج على هذه السياسة ولا على سياسة نقل الصناعات إلى ملكية الروس . ويرى الشيوعيون أنه يجب ألا تخشى ألمانيا التعويضات كما يقدرها الروس إذا تقدم الاقتصاد الألمانى تقدماً صحيحاً . والخطر الحقيقى على هذا الاقتصاد ناشئ عن تدخل الدول الغربية واستغلالها على أيدى الرأسماليين والمحتكرين .

على أن الأحزاب جميعاً تتفق على ضرورة بقاء أراضى الرور والراين والسار ألمانية ، وإعادة النظر فى الحدود الشرقية المؤقتة الآن . وقد كانت الحدود البولونية نقطة من نقط الخلاف القليلة بين الشيوعيين الألمان والاتحاد السوفيتى . غير أن الأحزاب فى المنطقة الغربية ومنهم الشيوعيون يطالبون بتعديل الحدود الشرقية بشدة ، على حين يستعمل الشيوعيون فى المنطقة الروسية منتهى الرقة فى هذه المطالبة .

وفى إقليم السار يوجد لهذه المسألة وجه آخر ؛ فان فيه حركة قوية تؤيد الانفصال الاقتصادى عن ألمانيا . وهذه الحركة التى يناهضها الشيوعيون داخل السار ، وتناهضها جميع الأحزاب خارجه ، قائمة فى الحقيقة على أغراض نفعية صرفة . فان الاتحاد الاقتصادى مع فرنسا معناه الطعام والعمل والرخاء نسبياً ، ولكن ليس هنالك مايدل على الرغبة فى الانفصال السياسى . ومن الراجح أنه إذا تحسنت الأحوال الاقتصادية فى ألمانيا فسيندم أهل السار على هذه الحركة الانتهازية .

فالمستقبل مظلم ، ولايحتمل أن تجد معاهدة الصلح موافقة من الألمان ، وما يتبع هذه الموافقة من تعاون ، إلا إذا كانت المعاهدة غير شديدة الوطأة على غير المنتظر . ولو تحقق هذا ، والراجح أنه لايتحقق ، فمن الصعب التكهن بأن أمة منقسمة داخلياً كألمانيا فى الوقت الحاضر ، وخاضعة لنفوذ الأجانب ، تستطيع أن تعمل شيئاً ، غير أن تكون عنصر اضطراب فى سبيل التقدم السلمى لأوربا .

ظهر حديثا

عقلي وعقلك للأستاذ سلامه موسى (دار الكاتب المصرى)

لسنا فى حاجة لأن نقدم الاستاذ سلامه موسى لقراء هذه المجلة . بل لسنا فى حاجة لأن نقدمه لقراء اللغة العربية ؛ فهو رجل قد خدم هذه اللغة بفكره ما يقرب من أربعين سنة ، كتب أثناءها وألف وترجم وحرر ؛ فهو لم يعمل منذ صباه الأول إلا فى عالم الكتابة صحفيا أو مؤلفاً . ولقد كانت كتبه تقابل دائماً بلهفة من جمهور متعطش ، أكثره من الشباب ؛ فأخرج العشرات من الكتب التى تدور حول موضوعات عرف دائماً أن سلامه موسى يفكر فيها ، ويديم الاطلاع على تطوراتها . فسلامه موسى إذن كاتب له طابعه الخاص وتفكيره الخاص ومجاله الخاص .

أما هذا التفكير فيمكن الوقوف على سره من مقالاته العديدة التى نشرها عن حياته ، وظهرت فى مجلة «الكاتب المصرى» . فقد عنى فى هذه الأيام بأن يدون مذكراته عن ماضيه ودراساته واتجاهاته . ومنها نعرف ذلك الخليط من المعرفة الذى انغمس فيه سلامه موسى فى بدء حياته ، وكيف أنه أقبل على هذه المعرفة فى نهم . وليس لهذه المعرفة من ضابط؛فهى خليط كما قلنا ، غير أنها تتميز بصفة واحدة هى أنها كانت جديدة — كلها أو أكثرها بحوث جديدة فى وقته ، أو هى على الأقل جديدة على وطنه ، بحيث إنه عندما كان فى هذا الوطن قبل رحيله إلى أوربا لم يكن يعرف عنها شيئاً . ولا شك فى أن الاتصال الفكرى فى ذلك الزمن لم يكن بالسرعة القائمة الآن . فنحن الآن لا نتأخر فى العلم بالتيارات المختلفة والاتجاهات التى تقوم فى أوربا وأمريكا إلا ببضعة شهور ، هى الزمن الذى يستغرقه خروج الكتب من المطابع فى أوربا ، ونقلها إلى الأسواق ، ثم إرسالها إلى السوق الشرق ، ثم عرضها فى هذه السوق . أما فى الزمن الذى تفتحت فيه عينا الصبى سلامه موسى فلم يكن هذا الاتصال وثيقاً كما هو الآن . فاذا وصل

الشاب سلامه موسى إلى أرض أوربا اتجه بكليته إلى ما هو جديد أو على الأقل جديد لديه .

ولا شك فى أن عقلية الأستاذ سلامه موسى كانت على استعداد لذلك؛ فهو إلى الآن وقد سلخ الستين لايزال يجنح إلى الموضوعات الجديدة . وقد أقول فى صراحة إن الأستاذ سلامه موسى لا يهمه أن يكون التفكير ناضجاً ، أو أن يكون العلم الذى يعنى به ثابتاً موطداً ، بقدر ما يهمه أن يكون جديداً . فهو رجل يجرى وراء الجديد ويخلبه هذا الجديد ما له من نظر بعيد . وهذه ميزة له أو خاصة من خواصه ، وهذا سر إقبال الشباب عليه . فالأستاذ سلامه موسى إذن رجل لم يعرف الكهولة ، ولا يمكن أن يعرفها ، فهو فى شباب متجدد بأفكاره ، وإن كان حكم السن أحياناً يؤثر فى هذا الشباب المزيف ، فيحمل فى طياته مسحة عصبية ، قد تبدو لغير المدقق نوعاً من نشاط الشباب فى كتاباته .

ولقد كان طبيعيا ، إذ شرحنا ما فى طبيعة الأستاذ سلامه موسى من حب وولع بالجديد ، أن يتجه فى كتاباته كثيراً إلى العلم ويتكىء عليه . فالعلم قد نهض فى القرن العشرين نهضة كبيرة وتطور تطوراً عظيما ، وهو فى كل يوم فى تغير وتجدد . ولذلك نرى الأستاذ سلامه موسى يحتضن النظريات العلمية الجديدة التى تجذبه إليها طبيعته ، ويتكلم عنها فى كتبه فى عبارته السلسة ، وبيانه الواضح الذى لا تعقيد فيه ؛ فيقرب نظريات العلم إلى جمهور ناشئ متعطش للمعرفة . وهو يتكلم عن هذه النظريات فى حب ودهشة ، أقرب شئ إلى دهشة الطفل البرئ ، مما له أثر خلاب فى عقول هؤلاء الشباب الناشئين . وهذا هو ما أسداه وما ظل يسديه الأستاذ سلامه موسى إلى قارئ اللغة العربية .

وكتاب «عقلى وعقلك» الذى نشرته دار الكاتب المصرى اليوم هو كتاب غير موفق فى عنوانه ؛ فهذا العنوان لا يدل بحال على الكتاب وما فيه من مباحث بل يضعه فى مكان دون مرتبته .

فالكتاب فى حقيقته مجموعة خلاصات للبحوث الجديدة التى تمت بصلة لعلم النفس ، ومباحثه المختلفة ، منها ماثبتت صحته علميا ، ومنها ما لا يزال فى طور البحث يتجادل فيه العلماء ؛ والأستاذ سلامه موسى يقدم لنا خلاصة لكل ذلك . وأعتقد أنه أخطأ إذ قال فى مقدمته بأن الكتاب توسعة للبحوث التى تعرض لها فى كتابه « العقل الباطن » ؛ لأن كتاب

العقل الباطن هو فى رأيى مقال واحد طال بعض الشئ فصار كتاباً .

أما الكتاب الذى وضعه اليوم فهو متعدد الفصول والنواحى ، وفيه خلاصة ، لا أقول إنها وافية ولا أقول إنها مشبعة ، ولكنها تحرك شهية القارئ إلى البحث والاطلاع إذا أراد، وتضع تحت يده خلاصة لنظرة عاجلة كى يفسر جملة أو عبـارة تعنّ له فى قراءاته إن أراد .

ولكى نقيم الدليل على هذا القول ننقل عناوين بعض فصول الكتاب : العقل والمخ — الغرائز والعواطف — الغريزة الأصلية — الجسم يؤثر فى العقل — العقل يؤثر فى الجسم — طبيعة التفكير — الذكاء والعبقرية — المزاج النفسى — اللغة والتفكير — الأحلام ومغزاها — الكابوس وأسبابه — الايحاء والتنويم النفسى — مركب النقص — الضمير — المجتمع البشرى — العاطفة والوجدان — الانعكاسات المعدولة — الحياة الجنسية — النفس السليمة — التحليل النفسى — الزيغ الجنسى — النظر السيكلوجى للإجرام — الشخصية السيكوباثية — النيوريوز — السيكوز، وعشرات غيرها من موضوعات .

ولقد كنا نود أن نثنى على دار الكاتب المصرى للصورة التى أخرج فيها الكتاب كما أثنينا فى مواقف عدة ، ولا ريب فى أن الطبع بلغ الاتقـان الذى عرف عن هذه الدار ، ولكننا نعتقد أن القطع الذى اختارته الدار لهذا الكتاب — وهو القطع الكبير — غير موفق .

كولومبا لبروسپير ميريميه تعريب الدكتور محمد غلاب (دار الكاتب المصرى)

نهضت مدرسة الأدب التى عرفت بالمدرسة الرومانطيقية فى القرن التاسع عشر، وكانت هذه الحركة الجديدة تعارض ما عرف بالنزعة الكلاسيكية . فلقد ظل الأدباء والشعراء الفرنسيون ردحاً من الزمن يتبعون فى تآليفهم أسلوب كتب القدماء من أدباء اليـونان والرومان ، ويأخـذون أنفسهم بما وضعه قدماء الناقدين من قواعد قالوا بوجوب اتباعها لـكى يكون العمل الأدبى ذا قيمة . فهذه القواعد التى تجد خلاصة لها فى كتب أرسطو لا سيما كتابه البويطيقا ، والتى أجملها هوراس الشاعر اللاتينى فى كتابه عن فن الشعر ، والتى اقتبسها بوالو الفرنسى فى نصائحه عن قرض

الشعر ، هى التى ظلت سائدة بين الكتاب والشعراء الفرنسيين وحاكمة عليهم إلى أوائل القرن التاسع عشر ، وهى التى أدت بأديب كبير مثل فولتير أن يصف شاكسبير الشاعر الانجليزى العظيم بأنه متوحش ؛ لأن مسرحياته لا تتبع القواعد التى وضعها اليونان للشعر المسرحى أو التى ظن أن اليونان وضعوها .

وفى أوائل ذلك القرن بدا اتجاه معاكس ؛ فقد مل الناس تلك القيود التى تحرمهم الاستمتاع ، ومل الكتاب تلك القيود التى تغل من أيديهم ، فقامت حركة ثورية جديدة هى الحركة التى عرفت بالرومانطيقية . ولسنا نريد تفصيل هذه الحركة ، وإنما نقول إجمالا إن هذه الحركة تؤيد ذكر كل شئ فى الكتابة ، وألا يتقيد الكاتب بقيود لا معنى لها كوحدة الزمن والموضوع وغير ذلك مما وضعته قواعد الأدب القديم . وأقبل الناس وزاد اهتمامهم بهذا اللون الجديد من الأدب ، ووجد الكتاب والشعراء آفاقاً واسعة جديدة فارتادوها فى نهم .

ولا ريب فى أن الأدب الفرنسى الرومانطيقى تأثر تأثراً كبيراً بمؤلفات الأمم الأخرى ، وكان لشاكسبير بنوع خاص تأثير فى تلك الحركة ، ولم يعد الفرنسيون ينظرون إليه نظرة ڤولتير .

ويعتبر بروسبير مير يميه بين جماعة هذا المذهب .

ولكن مما يلاحظ على مير يميه فى قصتيه « كولومبا » و« كارمن » أنه لم يحاول أن يغرق فى غرابة الموضوع كما فعل بعض الأدباء من أنصار مذهبه ، بل إنه فى القصتين مصور واقعى بارع ولكنه اختار حياة قوية دفاقة فى موضوع روايتيه .

ولسنا نتعرض لرواية « كارمن » الآن فان موضوعها معروف ومشهور ، ولكن حرارة هذا الموضوع هو اختياره لواقعة أقامها فى أسبانيا تلك البلاد البهيجة بين بلاد أوربا التى تشرق عليها شمس تكاد تكون كشمس الشرق حامية وفيها حرارة ؛ ولذلك كان أهلها مندفعين فى عواطفهم شديدين فى ميولهم .

وفى « كولومبا » أيضاً اختار تلك الجزيرة الواقعة إلى جنوب فرنسا حيث يعيش أهلها عيشة فيها كثير من البدائية ؛ فهم قوم يحبون الحياة ويحبون الشمس الدافقة ويحبون الانتقام . وكولومبا هى الفتاة التى تقمصت فيها روح أهلها والتى تعرف معنى الثأر الذى يتوارثه الأبناء عن الآباء وضرورة خضوع الأبناء للحياة ومقتضياتها . فكما أنهم غنموا بأن خرجوا

إلى نور هذه الحياة من آبائهم ، فعليهم غرم بل واجب القيام بثارات أولئك الآباء .

فهى قصة شيقة سريعة فى القراءة تتدفق منها الحياة تدفقاً ، وقد وجدت ناقلا أميناً فى الأستاذ محمد غلاب ، كما وجدت ناشراً يخرج هذه القصة الشيقة فى صورة جميلة .

حرية الرأى للدكتور رياض شمس (مطبعة دار الكتب المصرية)

الدكتور رياض شمس معروف فى الأوساط الأدبية على أنه صحفى ممتاز ، وهو أستاذ الصحافة فى الجامعة الأمريكية ، وهو معروف أيضاً بشدة تمسكه بالمذهب السياسى الذى يعتقده حتى لقد عرف السجون فى سبيل رأيه ، ولكن الخاصة تعرفه على أنه باحث قانونى ؛ فهو فى كتابه عن الحرية الشخصية أظهر مقدرة فائقة فى معالجة هذا الموضوع من الوجهة القانونية . وكان هذا الموضوع الذى هو رسالته التى نال بها الدكتوراه من أحسن ما أخرجه البحث القانونى فى النهضة القانونية الحديثة .

وهو اليوم يتابع بحثه بكتابه الجديد «حرية الرأى» وهو بحث دقيق وطويل يقع فى جزأين ويشغل نحو ٧٢٠ صفحة . وقد عالج المؤلف حرية الرأى من جميع وجوهها ولكنه التزم البحث القانونى والطريقة القانونية فى عرض الأمور ، فلم يعدل إلى الانشاء أو البحث الاجتماعى كما ينتظر ممن مارس مهنة الصحافة طويلا . وهو فى طريقته يدل على أن الصلة لم تنقطع بينه وبين البحث القانونى . والواقع أن هذه الصلة لم تنقطع ؛ فان اشتغال الدكتور رياض شمس بالصحافة كان اشتغالا متقطعاً وكان كثيراً ما يحال بينه وبين العمل بسبب تعصبه لمذهبه كما أسلفنا . وأما صلته بالقانون فلم تنقطع قط ؛ فقد كان دائماً يعمل محاميا نابها ، ومع ذلك فكثيراً ما تحول كثرة مشاغل المحامى عن البحث . أما الدكتور رياض شمس فانه نهم فى الاطلاع والبحث . وإن مجرد إلقاء نظرة عابرة على هذا البحث الجليل الغزير لتدل على ما بذله من جهد وعناء فى إخراج هذا الكتاب الذى هو الأول فى بابه فيما نعتقد من حيث اقتصاره على موضوعه وبحث هذا الموضوع فى دقائقه وتفاصيله ، مقارناً بين التشريع المصرى وشرائع الأمم

الأخرى، وفاحصاً فى كل نقطة اتجاه القضاء واتجاه الشراح. ولذلك نعتقد أن هذا الكتاب سيظل لمدة طويلة المرجع الأساسى فى موضوعه.

ولقد كتب المؤلف بعد المقدمة الطريفة التى كتبها معالى الدكتور محمد كامل مرسى باشا مقدمة تمهيدية فى حرية إعلان الرأى، فبحث فى الأساس الدستورى لهذه الحرية والضمانات الدستورية لها، ثم انتقل إلى القيود الدستورية لحرية إعلان الرأى.

ثم عالج القيود القانونية لحرية إعلان الرأى، فتكلم عن المبادئ العامة وجريمة الرأى وعقوبات الجرائم التى تقع بوساطة الصحف، ثم عرج على القيود القانونية لحرية إعلان الرأى فتكلم عنها فى ظل القوانين الوضعية والجرائم الناشئة عنها سواء وقعت من الأفراد أو من الصحف.

وفى الجزء الثانى من مؤلفه تكلم عن التنظيم الاجرائى لحرية إعلان الرأى بوساطة المطبوعات قبل نفاذ الدستور وبعد نفاذه، ثم تكلم على قانون المطبوعات المعمول به وعلى تنظيم شؤون الصحفيين.

وختم هذا الكتاب بفهرس لأهم الألفاظ وفهرس آخر بالمراجع. ذلك عدا ما أشار إليه فى ثنايا مؤلفه من مئات الكتب والبحوث والأحكام بحيث يعد الكتاب موسوعة شاملة لدقائق هذا الموضوع الجليل فى المؤلفات القانونية العربية.

ولا بد لنا أن نثنى على المؤلف ثناء جميلا؛ لأنه مع عمله طويلا فى الصحافة، والكثير من تفصيلات هذا البحث مما يهم الصحافة بوجه عام، فان قلمه لم يندفع مرة اندفاع الصحفى، بل ظل محافظاً على سمة العلماء فى البحث، وكان إذا أبدى رأياً فى موضوع من الموضوعات لم يجد له سنداً من حكم أو فقه أبداه فى اعتدال كان فى الواقع لا ينتظر منه، أو قل إنه ينتظر منه بعد مؤلفه الجليل فى الحرية الشخصية.

وإن كان لنا أن نبدى بعض الملاحظات فان هذه تنصب على الطبع. فلسنا نعلم ما السبب فى أن طبع هذا الكتاب أقل من المعهود عادة فى مطبعة دار الكتب المشهورة بدقتها وجودة طبعها بين المطابع المصرية. وقد لاحظنا قليلا من الأخطاء المطبعية كما لاحظنا خطأ قد يكون مطبعيا أيضاً فى كثير من العبارات الافرنجية وهو ما يجب أن يعالج فى الطبعة الثانية من هذا الكتاب الذى ننتظر كما قلنا من قبل أنه سيظل لسنوات مرجعاً أساسيا فى موضوعه، وننتظر له لا طبعتين بل طبعات.

حسن محمود

فى مجلات الشرق

من الحجاز

المنهل عدد ٧ مجلد ٧

فى العدد السابع من المجلد السابع لمجلة « المنهل » التى تصدر فى مكة بحث طريف للأستاذ محمد محمد أبو شهبة حول تفسير القرآن الكريم . وقد بحث فى مدارس التفسير وتكلم بإسهاب عن المدرسة المكية وعن أئمتها مبتدئاً بذكر عبد الله بن العباس رضى الله عنهما ، ثم ذكر تراجم قصيرة عن أعلام هذه المدرسة : مجاهد بن جبير وعطاء بن أبى رباح وعكرمة مولى بن عباس وغيرهم من الأئمة فى التفسير .

وقد ابتدأ الأستاذ الشيخ عبد الوهاب الدهلوى بحثاً طريفاً يراد به التعريف بالكتب المؤلفة عن الحرمين والطائف وجدة . وابتدأ هذا البحث بذكر طائفة من الكتب المصنفة عن مكة المشرفة مرتبة على حروف الهجاء .

وكتب الأستاذ مصطفى اندرقيرى مقالا عن أندونيسيا وتاريخها وحالتها الاجتماعية والأدبية ، وهو مقال له تتمة فى أعداد قادمة .

وأوردت المجلة القسم الأول من محاضرة ألقاها الأستاذ السيد أحمد العربى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

وفيه تتمة لدراسة أدبية عن الأصمعى كتبها الأستاذ عبد الرحمن عثمان . وفيه غير ذلك طائفة من البحوث والأنباء الأدبية الطريفة .

الامل عدد ١٧

فى العدد ١٧ من السنة الأولى من هذه المجلة بحث للأستاذ رفيق فاخورى عن كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى ، وهو بحث طريف واف .

وفيه نشيد وضعه الأستاذ عطاالله

مغامس للجامعة العربية ، وقصيدة للأستاذ بدر الدين حامد ؛ وبحث للأستاذ عبد الله عبد الدايم « ابن عربى صوفى أم حكيم إشراق » وهو يميل إلى القول بأن ابن عربى حكيم إشراقى أكثر منه متصوفاً فهو يرى أن « الشرط الأول من شروط حكمة الإشراق وهو اعتقاد الوصول إلى المعرفة النظرية الفلسفية عن طريق الالهام متوافر لدى ابن عربى » . ثم يؤيد رأيه « بوحدة المصادر التى سقى منها هو والتى سقت منها حكمة الاشراق . »

وفى العدد مقال عن النقد والمشروعات النقدية الدولية ، للأستاذ ضياء الدين مندو ، وفيه عدة بحوث أخرى طريفة .

من العراق

الغرى عدد ١٩

فى مجلة « الغرى » التى تصدر بالنجف العدد ١٩ مقال افتتاحى عن العناية بالجيل وأنه من أهم الواجبات الوطنية . وتقول المجلة : « إن من أول واجبات الأمم التى تعنى بمستقبلها ، والشعوب التى تهتم ببناء كيانها وتسعى جهدها لاشادة مجدها ، وتبذل كل ما فى استطاعتها لإعلاء شأنها ، هو أن تهتم بمستقبلها سالكة مختلف الطرق والوسائل ، وباذلة أقصى الجهود ، متخذة مختلف التدابير لوضع الخطط اللازمة للعناية بجيلها الناهض ، والاهتمام بنشئها المتصاعد ، وبتربيته وتوجيهه التوجيه المطلوب . فعلى سواعد الجيل ، تشاد دعائم الوطن وعلى جهوده يبنى كيان الأمم . » ولذلك هو يدعو إلى بذل كل ما يمكن من جهود لإنشاء جيل صالح للبلاد ولما تحتاج إليه من شتى المشروعات التى تتوقف عليها حياة البلاد .

وفى هذا العدد مقال بقلم الشيخ محمد على اليعقوبى عن الحاج سالم الطريحى النجفى ، وهو يتكلم عن أسرته التى استوطنت النجف منذ أكثر من أربعة قرون واشتهر منهم غير واحد من الأعلام . وقد أتى فى هذا المقال بشئ من شعر الطريحى ونوه بأدبه .

ونادت الآنسة سمية فرج رزوق فى

متال بضرورة إنشاء جامعة عراقية . وتابع السيد عبد الرزاق الحسني بحثه عن العراق فى ظل المعاهدات ، وهو الفصل الثامن الذى نشره فى هـذه المجلة . وتكلم الأستاذ عبد الهادى المختار عن القتـل السياسى فى التاريخ الاسلامى ، وفى هذا المقال الذى هو الثالث والثلاثون تكلم عن عمر بن أبى الصلت الذى طوح بحياة ابنه وحياته وعرض فلذة كبده للمخاطر والأهوال حبا فى الجاه وسعياً وراء السلطان ، فتدور الدائرة على ولده وعليه .

وفى العدد قصيدة للسيد مصطفى جمال الدين اسمها « الربيع الشاعر » . وفيه متابعة للبحث عن ذوى الأثر فى التاريخ والأدب من الغلاة ممن نشأ فى العصر الأمـوى وأول العصر العباسى ، وهو بحث عميق متتابع للاستاذ عبد الحميد الدجيلى . وفيه عدا ذلك بحوث طريفة واستقراءات تاريخية عديدة .

العدل الاسلامى عدد ١ و ٢

افتتحت مجلة « العدل الاسلامى » التى تصدر بالنجف عددها ١ و٢ وهو فاتحة السنة الثانية بمقـال لرئيس تحريرها الأستاذ هادى العصامى تكلم فيه عن المبادئ التى تعمل لها المجلة . وهـو يقـول : « نحن نحـاول قدر إمكاننا أن نخرج « العدل الاسلامى » إخراجاً صحيحاً جامعاً بين تطور الفكر الاسلامى ونظامه العالمى الذى خـدم الانسانية من عامة نواحى الحياة ، وعرف الانسـان مقـامه الحقيقى من المجتمع وصرفه عما لا يجديه نفعاً ويحول دون ارتقـائه فى الحيـاة والذى يجرى مع الزمن ويماشى كل عصر . »

ويلى هذا المقال الافتتاحى مقـال بقلم الدكتور السيد مصطفى جواد عن المشكلة الكبرى للأدب العصرى ، فهو يقول : « يذهب الفريق الأكبر من كبار أدباء العصر إلى أن أدب الطبقات ، وخصوصاً الطبقة المترفة الارستقراطية ، قد دالت دولته وذهب زمانه لأنه أدب الحكمة الموروثة والسياسة المؤتمة . ومن الحق أن الأدب فى اصطـلاح القدماء تباعدت حدوده واتسعت أقطاره حتى دخـل فيـه الحساب والموسيقى والمساحة ، فكان مشتملا على أكثر المعارف الاسلامية ومعارف الولاية ، والتصرف والكتابة بمعناها الدولى ، وكان لفظ الأديب محتملا لكل مايستوعبه الأدب المذكور . » ولكن

الادب العصرى أخذ حده من الأدب الغربى . ومن أهم أنواع الأدب الغربى أدب القصة ، فبأى لغة يجب على الأديب أن يكتب القصة ؟ هذا مايتعرض له الكاتب فى بحثه ويبحثه بحثاً طويلا ، ثم يخلص إلى القول بوجوب استئصال الأمية لازالتها « والتخلص من آدابها ، وهى جهل لغة العرب وقلة حضور مجالس الأدب ، وعدم الاحتواء على ثروة لغوية تعين طالب الأدب وقارئه على فهم تعابير وألفاظ لابد من استعمالها لاجراء القصص مجراه الطبيعى . فيجب علينا أن نعالج هذا الداء لكى نضمن سلامة الأدب ونماءه ولاسيما أدب القصة » .

وفى العدد كلام عن فتوى للامام كاشف الغطاء فى تحريم الأفيون. وكتب السيد محمد جعفر الحسينى مقالا عن نظرة خاطئة لفيلسوف ، وهذا الفيلسوف هو روسو — أوزان زاك روسو كما جاء فى المقال — وأما الخطأ الذى يأخذه عليه كاتب المقال فهو قوله إن العلوم والصنائع بانتشارها أثرت فى فساد الأخلاق ويقول : « إن هذا الفيلسوف يعترف بأن للروح غذاء مناسباً لتجرد وجوده ، فهل فى إمكانه إنكار كون العلم غذاءه الوحيد ؟ إن غريزة الاستطلاع محسوسة لا تقبل الجحود ، والعلم غنى عن التعريف والعقل يحكم بحسنه وقبح الجهل » .

وفى العدد قصيدة طويلة للاستاذ محمد جواد الدجيلى . وفيه بحث للأستاذ حسن الجواهرى موضوعه « من هو المثقف » وفيه كثير من البحوث المفيدة ، منها بحث طريف فى دولة البرامكة .

الجزيرة عدد ١٥

فى العدد ١٥ من مجلة «الجزيرة» التى تصدر فى الموصل مقال افتتاحى عن دولة الفكر بقلم الأستاذ ذى النون الشهاب ، وهو تكملة لمقال نشر سابقاً وفيه يحذر الأديب ثم يقول : « وكنا بنجوة عن هذا الحذر لو أخلص كل أديب لفنه وآثر جودته على كل شئ واستطاع أن يثبت للدنيا والناس مقدار تلك الشعلة الالهية المذكاة فى روحه لا يعوقه عائق الأرعن ولا ينكسه عن خطته مثبط مأفون ، بل يتخذ شرعة طريقته فى فنه غاية الغايات دون تعد على حقوق غيره فى مملكته الفكرية ؛ لأن لكل حداً مرسوماً ومنهاجاً معلوماً

تكون من ارتباطها وشد بعضها أزر البعض للأمة صراطاً إلى الوحدة مستقيما . »

وفى هذا العدد بحث عن الشاعر المعروف الأستاذ أحمد الصافى النجفى بقلم الأستاذ فيصل مجيد ديدوب، وفيه موالاة لعدة بحوث ابتدئت فى أعداد سابقة ، منها بحث للأستاذ صديق الدملوجى عن الشيخ عدى بن مسافر الأموى ، و بحث للأستاذ اسماعيل فرج عن الحافظ الحاج عثمان المولوى الموصلى، وآخر للأستاذ صالح جواد الطعمة عن الطب فى العصر الأموى والعباسى، وفيه طائفة من الشعر للأستاذ يوسف أمين قصير والأستاذ حازم السعيد والأستاذ خليل ابراهيم العبد الله والأستاذ عبد الغنى الملاح ، وذلك عدا طائفة من البحوث المفيدة والمقالات الأدبية .

من لبنان

الأديب عدد ٧

العدد السابع من السنة السادسة من هذه المجلة حافل كأكثر أعدادها بالموضوعات الطريفة التى قام بكتابتها نخبة من البارزين فى الأدب الذين صار لهم اسم معروف فى العالم العربى . ففى أول العدد مقال للآنسة سمية حموى بعنوان «أيهما الأمثل» . وهى تقول : « تياران يدفعان هذا المخلوق الناطق الانسان، واحد يقذفه فى مجتمعه ليذوب فيه ذوبان الساقية فى البحر وواحد يقذف مجتمعه فى نفسه ليذيبه كما تذيب الشجرة فى غصونها الضوء والماء والهواء . »

وهى ترى أن المجتمع يحاول أن يبتلع الفرد ليكون منه كائناً معنويا متماسكاً ، فينتج إنتاجاً تعاونياً مشتركاً . وهى تدعو إلى أن يهتم مشيدو المجتمع لا لتجبيل قوى الناس جبلة واحدة هى الوطن ، بل يجب أن نفتح ذهن الفرد بحرية ونفك عنه القيود ونطلق أجنحته ليشعر أن الوطن كله حبة فى قلبه ، وأن عليه الاعتناء بحبة قلبه والسهر على راحتها ونموها .

وتكلم الدكتور عبد الرحمن بدوى عن القصة الوجودية عند سارتر .

وفى العدد بحث للدكتور نقولا فياض عنوانه «الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون » وهو يتكلم فيه عن

وجوب العناية بالحالة الصحية عند الزواج ، والعمل على إصلاح النسل ؛ فان صحة الفرد ملك للمجتمع .

وكتب الأستاذ فؤاد أيوب بحثاً علميا بعنوان « من الأرض إلى الشارقات » تكلم فيه عن النجوم والأجرام ، وما ماثلها . وبحث الأستاذ حسن مهدى عن الطالب الحق وما يجب عليه أن يفعله وهو يقول : « الطالب الحق هو الذى شعر بذاته وقلق على وجوده نجاهد للتحرر من قيوده فى طريقه للمعرفة » ثم يأخذ فى الكلام عن الشعور بالذات ، ثم القلق على الوجود والحرية والمعرفة وطريقها . وبذلك أتم بحثه .

وفى العدد قصيدة شائقة للأستاذ بولس سلامة عن حمدان البدوى .

وهنالك عدة بحوث أخرى طريفة .

من فلسطين

المنبر عدد ٧ (المجلد الأول)

فى العدد السابع من المجلد الأول من هذه المجلة التى يصدرها اتحاد النوادى الأرثوذكسية العربية مقال للأرشمنديت سلاتيوس صوبنى بعنوان « إلى أين تسير القافلة ؟ » يقول فيه « إن تيارين مختلفين بل متناقضين يتنازعان توجيه الأخلاق فى المجتمع البشرى : تيار التجديد وتيار المحافظة » . وهو يستفيض فى البيان الفارق بين التيارين ، ويصل إلى النتيجة فيقول : « وعلى هذا فتكون خير طريق يجب سلوكها فى هذه الناحية هى طريق الوسط ، طريق الاعتدال ، طريق الأخذ بكل مفيد ونبذ كل ضار من الجانبين ، طريق احترام الماضى وعدم التنكر للحاضر الراهن ، طريق المحافظة على الأخلاق الشرقية والآداب الموروثة — من دين وإباء وعرض وشرف وكرامة وعزة نفس ، واقتباس العلوم والمعارف الحديثة ، طريق التحرر من بعض القيود والتقاليد والعادات التى لا تمت إلى الأخلاق بسبب ، والسير مع المدنية العصرية بحذر وتحفظ خوف الوقوع فى مهاويها والانزلاق فى مفاسدها المتهورة وخلاعتها المكشوفة . »

وكتب الأستاذ أحمد سامح الخالدى مقالا عن أهل الحكم والعلم فى ريف فلسطين ، وهو يذكر هذا

الريف بالخير ، ويشير إلى بعض العظماء الذين أخرجهم هذا الريف فى الماضى ، ويتكلم عما كان له من مفاخر فى عالم الثقافة .

وبحث الأستاذ حنا عطا الله فى درجات المحاكم الدينية الأرثوذكسية بفلسطين وتشكيلاتها ، فذكر طرفاً من تاريخها فى عهد البراطرة ثم سلاطين آل عثمان ، والقانون الذى قضى بتأليفها وهو قانون العائلة البيزنطى الخاص بالطائفة الأرثوذكسية المعمول به فى البطريركية المسكونية وتحدث الأستاذ عيسى السفرى عن العرب المتنصرة فى الجاهلية والاسلام . وبحث الخورى نقولا الخورى فى الأرثوذكس والارثوذكسية فى بلادالبلقان ، ونقل الأستاذ ابراهيم مطر قصة الزائر المنتظر لتولستوى إلى العربية . ومما يؤسف له أنه نقلها بتصرف وهو يعلن ذلك كأنه من حقه . وفى المجلة عدا ذلك بحوث قيمة عديدة ، منها بحث فى الكتاب المقدس للخورى أثناس خورى الساحورى ، وآخر فى أدب الفلك للسيد قسطنطين خمار ، وآخر فى الأمة هيئة اجتماعية واحدة للسيد درويش نصرى صفير وأنباء أدبية عديدة .

فى مجلات الغرب

من الولايات المتحدة

الأمور الخارجية *Foreign Affairs* (عدد أبريل ١٩٤٧)

مجلة « الأمور الخارجية » الأمريكية التى تصدر كل ثلاثة أشهر من المجلات التى تكون دائماً حافلة ببحوث من كبار المفكرين فى العالم . وفى العدد الأخير الذى وصل إلينا ، وهو عدد أبريل سنة ١٩٤٧ ، بحث قيم كتبه الأستاذ جون ديكى رئيس كلية دارثاوث عن النظام الذى تتبعه الولايات المتحدة فى وضع المعاهدات ومقارنته أو تعرضه للسياسة الخارجية للولايات المتحدة . وهو يرى أن الوسائل السائدة الآن فى الولايات المتحدة لإقرار المعاهدات وتنفيذها لا تتفق مع ما يراد من تسوية الأمور مع الدول الخارجية . ولذلك يجب العمل لتغيير هذه الوسائل ، بحيث تكون وسائل الاقرار والتنفيذ خاضعة للسياسة الخارجية . ومن المقالات الجديرة بالذكر مقال للكاتب بيرون دكستر المحرر بالمجلة وهو عن الهيئة الثقافية التى أنشأتها هيئة الأمم المتحدة U.N.E.S.C.O. وهو يسميها « أونسكو تواجه عالمين » . وهو يقول : إن الدور الأول للمنشأة الجديدة هو أن تكون بمثابة دار موحدة ، تسوى فيها الحسابات الثقافية لا سيما ما يتعلق بالتربية . والدور الثانى هو دور جديد وغامض وغير محدد وخطير وهو تنفيذ الفكرة المسيطرة على عقول الأمريكيين بأن يكون العالم وحدة . وقد تكلم عن تاريخ هذه المنشأة الحديثة ووجهة نظر الدول الكبرى إليها . ويرى فى ختام مقاله أن هذه منشأة تسير وسط المخاطر ، ولكن فى طريق سيؤدى حتما إلى العالم السياسى المنتظر فى المستقبل . وقد تكون الخطوة الأولى وجود عالمين لا عالم واحد . ولكن المستقبل القريب أو البعيد قد يوجد من هذين العالمين . ومقال آخر قيم عن « أوربا المنقسمة أو المتحدة »، بقلم الكاتب الروسى الكسندر جالين . وقد ذكرنا خلاصة وافية له فى الكاتب المصرى (عدد ٢١) .

وتكلم ألن دلز عن الاحتمالات أمام ألمانيا . وهو يرى أن المشكلة الألمانية يجب ألا ينظر إليها على أنها مجرد عامل فى العلاقات بين الدول الغربية وروسيا السوفيتية ، بل يجب النظر إلى ألمانيا نفسها وقيمتها بالنسبة لأوربا ، وإذا طلب من الشعب الأمريكى أن يساعد بموارده فى تعمير أوربا وألمانيا ، لكى يحقق أغراض الحرب ويقيم السلم ، فعليه أن يتحقق من ثلاثة أمور : ألا تنزع موارد ألمانيا الاقتصادية ، وأن ما يقدم من القروض لايتوقف على دفع التعويضات ، وأن تنفق هذه القروض فى تنفيذ برنامج واسع يؤدى إلى الغرض المنشود وهو النهوض بألمانيا وأوربا . وتكلم مسيو أندريه جيرو (برتناكس) عن الدستور الفرنسى الأخير . وعالج الاقتصادى الفرنسى شارل ريست المشكلة المالية الفرنسية ، كما تكلم مستر هنرى أيرمن عن اتجاه العمال الفرنسيين إلى اليسار . وبحث سنيور رموالدى عن العمال والديمقراطية فى أمريكا اللاتينية ، وتكلم مستر ليلنت ستوعن الثورة الزراعية بالمجر . كما بحث مستر ياور فى الحركة الوطنية بمالايا . وكلها بحوث تسترعى النظر . ولولا ضيق المقام لكان كل بحث جديراً بأن تنقل له خلاصة وافية .

برتيزان *Partisan* عدد ٢ (مارس ــ أبريل) عدد ٣ (مايو ــ يونيه)

ولقد أهدى إلينا أديب عددين من مجلة « برتيزان » الأمريكية الشهرية ، وفى العدد الثانى (مارس — أبريل) بحث لجرانفيل هكس عن مستقبل الاشتراكية ، وهو البحث الثانى الذى نشرته هذه المجلة فى هذا الموضوع . وهو يستعرض آراء انجلز وماركس . ويختم بحثه الدقيق بالقول إن إيضاح الاتجاهات يظهر له أنه أهم فى هذه اللحظة من البحث فى النظم . وهو يود أن يرى حزباً جديداً يكون ديمقراطياً حقاً ، لا يقتصد فى نقد شرور الرأسماليين ، على ألا يعتنق المذاهب الاشتراكية ، ويكون مخلصاً وواسع الأفق فى مشروعاته للتنظيم الاجتماعى . ولكن الدور الأساسى الآن هو دراسة الاتجاهات والآراء . فاذا أمكن تطهير الفوضى الأخلاقية والسياسية ، فان الحزب الجديد الذى قد ينشأ للسير على هذه القواعد ، قد يكون له بعض النفع .

ويتكلم الكاتب الأمريكى الشهير

ارثر كيستلر فى رسالة من لندن عن حكومة العمال البريطانية ، وهو يصف كثرة ما لديها من أعمال وكثرة ما يوجه إليها من نقد .

وفى هذا العدد حوار خيالى بين هايدجر وفرويد بقلم الكاتب ولـيم باريت عن القلق . وفى هذا الحوار يقول فرويد : إن أنواع القلق ستستمر، فاذا كان هذا الأمر يشغلك فالانسان لا يستطيع أن يحيا مع الجماعة دون أن يبطن أموراً . فالقلق من أجـل اللذة التى يجب أن يقلع عنها يكون علامة على ما يبطن ، وهذه الأمور التى يبطنها لها مظاهر قلق . فاذا كان هذا القلق يختفى فقد نفقد بعض صفات العبقرية التى نشأت فى الماضى عن المرض العصبى . ولكن قد يكون فى ذلك تعويضات أخرى .فيقول هايدجر: لنفرض أن جميع أنواع القلق قـد شفيت فماذا يكون ؟ وإلام يصـير الانسان ؟ ألا يكون حيواناً كسائر الحيوانات وإن كان أكثر مشاغل وأشد حباً للاستطلاع وأكثر مكراً من غيره من الحيوانات ؟

وفى هذا العدد بحث لسجفريد كراكاور وهو فصل من كتاب للمؤلف صدر حديثاً اسمه « من كاليجارى إلى هتلر » وليس هو بالبحث السياسى بل هو بحث فى طبيعة الأشرطة الألمانية . وفى هذا الفصل يصف كيف جاءت فكرة قصة كاليجارى الشهيرة التى أخرجها السنمائيون الألمان .

وفى العدد حديث لهنرى مور النحات الانجليزى المشهور، يتكلم فيه عن طريقته وآرائه فى الفن وتاريخ حياته والآثار الفنية التى تأثر بها .

أما العدد الثالث لهذه السـنة (عدد مايو — يونيه) فيبتدئ برأى الأستاذسلزنجر فى مستقبل الاشتراكية . ويتكلم ريتشارد تشيز عن الـكاتب الأمريكى هرمان ملفيل . وهو يرى فى الخلاصة أن كتب ملفيل فيهـا من النشاط والوضوح والذكاء ما يجعله جديراً بأن يعد فناناً ، ومن الخطأ أن نتكلم عنه بوصف أنه رجل تقدمى ، أو بطل من أبطال الديمقراطية ، أو من أساتذة التثقيف، أو أنه ذو قلب نبيل، أو أنه نبى من أنبياء الفكر ، بل يجب أن نقدر الفنان وحده .

وتحدثت الأديبة الأمريكية مارى مكارثى فى هذا العـدد عن أوسكار وايلد بمناسبة مشاهدتها تمثيل إحدى مسرحياته . وفى رأيها أن خطيئة وايلد الحقيقيـة ليست هى إفساده أخلاق الشبان ، بل هى تهافته على

الناس ، وتصرفه فى بيوت الناس ، كما يتصرف فى بيته . وهذا ما نستخلصه من مسرحياته كما نستخلصه من أقوال معاصريه .

والعدد حافل ببحوث أخرى جديرة بالعناية والاطلاع .

المجلة الجغرافية الوطنية *National Geographic Magazine* (عدد يونيه ١٩٤٧)

فى عدد يونيه من هذه المجلة الأمريكية ، التى تتميز بحسن طبعها وصورها البديعة ذات الألوان ، والتى تنقلنا إلى أنحاء العالم البعيدة ، مقال مزين بالصور الجميلة عن واشنطون عاصمة جمهورية الولايات المتحدة ومقر عظمائها ، وفيه بيان لآثارها ومعالمها من دور رسمية وغير رسمية . ثم يأتى بعد ذلك كلام عن جمعية الآثار الوطنية بواشنطون . وكان الغرض الأول من تأليفها إنشاء أثر وطنى يخلد ذكرى الزعيم الأمريكى واشنطون . وهى لا تزال توالى عملها فى إحياء ذكرى زعماء الحياة الأمريكية.

ووصف مستر ولتر ادواردر تجربته فى الصعود فوق سلسلة الجبال الصخرية بأمريكا ، وصفاً بارعاً ، وقد قام بسياحة إلى تلك الجبال تصحبه زوجته . والمقال مزين بصور بديعة تزيدها الألوان جمالا .

وهناك مقال عنوانه « فى أعماق ويسكونسن » . يتكلم الكاتب عن جماعة من السويسريين يعيشون فى مقاطعة ويسكونسن الأمريكية ، ويحتفظون بالحياة التى عرفوها وألفوها فى جبال سويسرا ، لم يغيروا منها شيئاً ، وهم الذين يصنعون الجبن السويسرى فى أمريكا حيث ينقل من مقرهم إلى أقصى البلاد .

وفى العدد مقال عن حياة الجيش الأمريكى فى كوريا وعلاقته بأهل تلك البلاد .

فنون المسرح *Theatre Arts* (عدد يونيه ١٩٤٧)

لا يقل العدد الأخير ، عدد يونيه من هذه المجلة الشهرية الأمريكية عن المستوى العالى الذى تحتفظ به فى كل شهر ، سنة بعد سنة . ويبتدئ هذا العدد بالتحدث كالعادة عن المسرح والعالم . وفيه أنباء هامة عن حالة

المسرح فى العالم ، كما أن فيه أنباء الحركة التمثيلية فى الولايات المتحدة .

ثم يأتى عرض للموسم التمثيلى فى نيويورك ، وأسماء المؤلفين الناجحين فى هذا الموسم ، وعلى رأس هؤلاء أوجين أونيــل ولبليــان هلمان وماكسويل أندرسون وأرثر ميلله ؛ فقد تميزت المسرحيات التى مثلت لهم عن كل ما مثل فى هذا الموسم . ولا ريب فى أن أونيل هو أعظم المؤلفين المسرحيين وأبرزهم ، وكان تفوقه ظاهراً للعيان .

وفى العدد بحوث أخرى عن الفن المسرحى بجميع أنواعه .

من فرنسا

ريفى دى بارى *Revue de Paris* (عدد يونيه ١٩٤٧)

تبتدئ مجلة « ريفى دى بارى » الشهرية (عدد يونيه) ببحث للمسيو أندريه سيجفريد عن فورد وفكرته فى الانتاج . وقد ابتدأ مقاله بقوله إن أحد الناس فى الولايات المتحدة قال له إنك لم تر مصانع فورد فأنت إذن لا تعرف الولايات المتحدة . وقد تحقق لديه صدق هذا القول عندما زار هذه المصانع . ثم ذكر تاريخ حياة فورد ، ثم أتى بملخص للفكرة التى سار عليها حين قال إن الربح هو علامة الحياة وإنه خميرة النشاط ، وإنه نتيجة للتنظيم . وليس الربح من حق رأس المال إلا لحد محدود ، بل هو ربح للعمل والمجهود نفسه الذى يؤدى إلى الزيادة فى المال . وعلى ذلك يسائل أندريه سيجفريد من أى الفلاسفة السابقين اقتبس هذا الأمريكى فكرته عن مشاكل الانتاج . وهو يرى فيها خيالا رائعاً وتخريجاً عجيبا . وفى هذا العدد مقال للكاتب الألمانى السويسرى كارل بوركارد يصف فيه صباح يوم فى مكتبه . وهو يتكلم عن سنة ١٩٢٤ حين كان يعيش فى باريس ، ومقابلته للشاعر رينر ماريا ريلكى ، وحديثه إليه . ويحتوى العدد على القسم الثانى من مسرحية جول رومان « الستة ألف » . وتكلم جان روستان عن العالم يوهان مندل . ونشر فى هذا العدد ترجمة لقصة للكاتب الأمريكى لويس بروفيلد اسمها « الموت فى مونت كارلو » . وتكلم روبير عن النشأة الثقافية لهيئة

الأمم المتحدة ، كما تكلم أتيين روما عن الأيام الأخيرة للبحرية اليابانية . ولا نذكر بحوثا أخرى قيمة وكثيرة فى هذه المجلة الظريفة .

فونتين Fontaine عدد ٥٩

افتتح عدد ٥٩ من مجلة « فونتين » الفرنسية بمقال كتبه جورج بلان عن جان بول سارتر وبودلير . وهو يتكلم عن مقدمة كتبها سارتر لمجموعة صدرت أخيراً من كتابات بودلير الخاصة . ففى هذه المقدمة يأخذ سارتر فى تحليل حياة بودلير بما يناسب الطريقة الوجودية . ويقول الكاتب إن هذه ليست أول مرة تعرض فيها سارتر لحياة بودلير ، فهو فى إحدى قصصه *Le sursis* يضع الشاب فيليب فى موقف عاطفى من حياته مماثل لموقف ذلك الشاعر الفرنسى . ولقد رأى سارتر أن يدرس الشاعر فى اختياره الأول لعمله ، ثم فى بعض الشؤون التى تدل على مسلكه فى معترك الحياة .

فهو يرى أن الاختيار الأول لمسلكه فى الحياة نشأ فى اللحظة التى تزوجت فيها أمه للمرة الثانية . فهو بعد أن كان معززاً قد اضطر للوحدة فى الحياة . وبذلك ارتد إلى نفسه يبحث فى أعماقها عن صورة حياته وكنها فلا يجد . وهذا هو السر فى فترات كسل بودلير ؛ فهى ليست ناشئة عن مرض فى الارادة وإنما هى ناشئة عن أزمة فى التقدير . وهذا هو السبب فى تلك الحياة المتقطعة التى يسير فيها على دفعات : ينهض فيعمل ثم يخفق فيهمد فترة ثم يعود إلى العمل مبتدئاً من جديد فى نشاط . وهكذا يتابع كاتب المقال آراء سارتر فى بودلير ويقدرها ، ولكنه لا ينهى البحث بل سيتابعه فى العدد القادم .

وفى هذا العدد قصة لريمون كينو ومجموعة أشعار لجان كوكتو وجورج هنيه .

وفيه بحث لفردينان الكييه فى فلسفة ميرلو-بونتى Merleau-Ponty الوجودية . وهو يجده أكثر الوجوديين اتباعاً لقواعد الفلسفة ومحاولة لتنظيم آراء على النهج الفلسفى المعروف .

وفى العدد بحث عن الأديب الفرنسى سوبرفييل Supervielle وفيه مقال عن الكاتب ارثر كوستلر Koestler كما استعرض بوريس دى شلزر المدرسة

الموسيقية الحديثة التى نشأت فى فيينا ، ومن زعمائها شونبرج وفبرن . وهو ينقد آراء الكاتب لايبوفتز الذى أشاد بهذه المدرسة وأكبر من شأنها فى خدمة الفن الموسيقى . وفيه بحث عن فان جوج Van Gogh المصور ، وملاحظات لجوليان بندا ، ونقد للأديب الفرنسى فاليرى .

لانيف La Nef

ومجلة « لانيف » الفرنسية الشهرية تفتتح عددها ببحث لهنرييت بسيكارى عن موقف رنان Renan من الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا ، وهى تنشر رسالتين كتبهما المؤرخ الفرنسى إلى الملكة فيكتوريا فى ذاك العهد . ونشر جول سوبرفييل ثلاث قصص قصيرة طريفة . وتكلم جريجوار الكسنكى الكاتب الروسى عن ذكريات له مع العظماء ، فذكر كيف رأى القيصر نقولا الثانى آخر قياصرة روسيا ، ووصف لعبة الشطرنج مع لينين ، ومقابلته لمكسيم جوركى الكاتب الروسى العظيم ، ومحاولة هذا الكاتب الانتحار ، واتصاله بموسلينى حين كان الزعيم الايطالى شيوعيا .

وفى العدد عدة مقالات منقولة عن إذاعات أو كتابات للأدباء الألمان المعاصرين . وقد جمعت تحت عنوان « نظرة الألمان إلى أنفسهم » ، وهى تدل على مجرى الآراء فى ألمانيا الحاضرة وسط محنتها .

وفيها غير ذلك بحوث طريفة عرفت بها دائماً هذه المجلة .

العالم الفرنسى Le Monde Français (عدد يونيه ١٩٤٧)

فى عدد يونيه من هذه المجلة الشهرية يتكلم جان جالوتى عن إعادة التعمير فى فرنسا مع مراعاة الذوق والجمال . وهو يقول إن الناس فى هذا الأمر منقسمون ، فالبعض يفضل الانشاء من جديد على إعادة التعمير مع المحافظة على القديم ؛ والبعض يشعر بالأسف على الجمال المفقود أكثر مما يثق فيما يقال من جمال جديد ، فهو يهتم بالمحافظة على ما بقى من أثر أكثر من اهتمامه بأثر حديث . ولقد عمل جالوتى الأديب من قبل مديراً للفنون

فى مراكش ؛ فهو يستوحى ذكرى ليوتى ويضربه مثلا لما اتخذه من إجراءات لبناء المدن وتوسيعها بما يلائم العصر الحديث . فهو يقول إن ليوتى كان من الذين يحبون الروح الشرقية ، وتطربه الحياة الشرقية ، ولكنه دعا من فرنسا مسيو بروست الحائز على جائزة روما الأولى فى البناء ، ثم تبعه لابراد وماراست ، وعمل الثلاثة محافظين على الروح القديمة مع تعديلها بما يلائم العصر . وقد أصدر السلطان أمراً فى أول أبريل سنة ١٩٤٤ بأن لا يبنى أى بناء على بعض الشوارع إلا بعد الحصول على موافقة إدارة التعليم والفنون الجميلة والآثار ؛ وكذلك الدور العامة . وبذلك تحقق شرط تحقيق الوسائل الحديثة فى البناء مع المحافظة على الجمال .

فعلى فرنسا إذن أن تتبع هذا المثل . وهو يرى أن تاريخ فرنسا ومركزها الجغرافى وطبيعة أرضها ، وصفات الفرنسيين الخاصة ، قد تكون خير دليل . ففرنسا ليست مثل روسيا ولا مثل أمريكا . فلها حدود متوسطة وجوها معتدل ، مما يحول فى الغد كما منع فى الماضى ، دون الضخامة فى المنشئات والوحشية فى طرق البناء . فهى دائماً تؤثر النوع على الكمية وهذا ما يلائم مزاجها .

ويستعرض دوناثيان فريمون غرب كندا على أنه أرض فرنسية ، فهو يقول إن أكثر الناس يظنون أن استعمار الفرنسيين لشمال أمريكا كان دائراً حول منطقة كويبك . ولكن الغرب الكندى يحتوى ، بالرغم من مظهره السطحى ، على آثار تنم عن مجهود الفرنسيين ، وروح المغامرين الذين عملوا لاستثمار هذه الأراضى التى كانت مجهولة . وهو يذكر تاريخ هذه المجهودات فى شرح مسهب لذيذ ويعلن أن الحياة الفرنسية لم تنقطع فى تلك الجهات ، وإن كان قانون العدد فى غير صالح الفرنسيين . وإن الزائرين يدهشون لما يجدونه من حيوية وتضامن فى تلك الجماعات الفرنسية الكندية التى تعيش فى مانيتوبا وساركا تشوان وألبرتا وهى جماعات تغمرها لذة الحياة والصحة والتفاؤل والرخاء .

أما مارسيل جوبارد فيشرح فى مقاله ما قام من خلاف بين الزعيمين الشيوعيين ستالين وتروتسكى ، ذلك الخلاف الذى انتهى بانتصار الأول وقتل الأخير .

ويعالج روبير شوارتز حالة انجلترا المالية ويرى أن التضحيات التى يقدم

عليها الشعب الانجليزى فى سبيل محاولة التوازن لم تبلغ غايتها ، وأنه يجب على انجلترا فى الخارج أن تترك خضوعها الاقتصادى للولايات المتحدة وتتخذ سياسة صريحة نحو دائنيها ، وعلى رأسهم الولايات المتحدة . وعلى هؤلاء الدائنين إما أن يطلبوا من المدين وقف الدفعات الخارجية ، وإما أن يؤجلوه آجالا طويلة إلى أن ينتعش .

ورسم الأديب موريس بوتيكير صورة وصفية للكاتب الفرنسى الشهير مارسيل شووب Marcel Schwob ويتكلم بورجو عن بلاد الجزائر والدفاع . وهو يرى أن الجزائر إذا انفصلت عن فرنسا تصير جثة هامدة كما كانت قبل سنة ١٨٣٠ ، وأن فرنسا إذا انفصلت عنها الجزائر صارت فى حالة من الفاقة مروعة مدى قرن أو أكثر ، وتختفى من عداد الدول الكبرى . ولكن لكى تحتفظ فرنسا بتلك البلاد التى صار لها من الخطورة لديها ما للالزاس واللورين ، يجب عليها أن تجد رجالا صالحين للادارة نافذى البصيرة . ومما يؤسف له أن عدد هذا النوع من الرجال قليل . ويقول الكاتب إن سياسة المستعمرات الفرنسية هى اليوم من أعقد وأخطر ما يواجه الفرنسيين . ويجب أن تعمل فرنسا بحكمة وتقدم على التضحية ، وأن تتجه نحو الشعوب الواقعة فيما وراء البحار بروح الاخوة التى هى إحدى شعائر الجمهورية .

وفى هذا العدد بحوث أخرى قيمة عن الآداب والفنون وأنباء عن بلاد مراكش ومذكرات عن الكتب .

بارو *Paru* (عدد يونيه ١٩٤٧)

فى هذا العدد الأخير من هذه المجلة الفرنسية التى تعنى أكبر عناية بالكتب وهو عدد يونيه يتحدث مسيو باترى عن تلك النزعة فى الأدب الحديث التى تقول إنه يجب على الأديب أن يقول كل شئ . وهو يعد هذا القول من أسخف الأقوال . فالأدب يقوم على الاختيار . وهذا الاختيار يبدو حتى فى الكلام العادى . ثم إن نقل الصور بالآلة الفوتوغرافية نفسها يقضى باختيار زاوية خاصة للتصوير .

وفى هذا العدد وصف لزيارة قام بها أندريه بوران للكاتب الفرنسى ألكسندر أرنو Arnoux وقد تحدث

إليه أرنو ذاكراً كيف أنه ولد على مقربة من نيم فى جهة البروفانس وقضى طفولته فى تلك الجهات ، ثم انتقل إلى ليون لدراسة الحقوق ، وفيها عرف شارل دولان Dullin وكان كاتب محضر ، وكان ينشد له الشعر ليلا ، ولم يلبث دولان أن رحل إلى باريس حيث عاش عيشة صعبة يمثل أدوار الخونة فى المسرحيات الشعبية . وقد تبعه أرنو إليها، ففرنسا بلد لايجد المتطلع ما ينشده إلا فى العاصمة . ثم تكلم الأديب عن عمله فى الصحافة ومؤلفاته .

والقسم الخاص بنقد القصص الجديدة حافل ببحوث عن المؤلفين ، بعضهم معروف ومشهور ، وبعضهم مبتدئ . وفى هذا القسم نقد لثلاث قصص طويلة لهنرى بوسكو ، وقصة لفرنسيس كاركو . والجزء المخصص من هذا القسم لنقد القصص الايطالية فيه نقد لقصة أجوستينو ، لألبرتو موارفيا ، ولقصة الصبا لبيرو جاهير . أما قسم القصص الانجليزية والأمريكية ففيه نقد لفردريك بروكوش ولويس برومفيلد ، وتوم هيلين . وفى الأدب الشمالى استعرضت قصص لتمرمانز ويونج . وهذا يدل دلالة واضحة على إقبال الجمهور الفرنسى على الترجمة والنقل فى هذه الأيام .

وفى هذا العدد حديث مع كاتب من الناشئين أصدر أخيراً كتاباً اسمه « سان كلكان » *Saint Quelqu'un* وقد نقل إلى لغات عدة ونوه به كبار الناقدين كما خصصت له جريدة « التيمس » الأدبية الأسبوعية إحدى افتتاحياتها ، واسم هذا الكاتب لويس باوفل **Louis Pauwels** . وهو شاب فى مقتبل العمر ، يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره حين وضع هذه القصة . ولقد شرح باوفل المسائل الروحيـــة التى تدور عليها قصته .

والأقسام الأخرى جديرة بالقراءة أيضاً . وفيها مادة غزيرة ، كما أن قسم الأنباء الأدبية حافل بكل ما تلذ قراءته .

من بريطانيا العظمى

العالم اليوم World Today (عدد يونيه ١٩٤٧)

لايتناول المرء عدداً من مجلة العالم اليوم ، التى هى لسان المعهد الملكى للأمور الدولية ببريطانيا ، حتى يجد بحوثاً جليلة . والناس يتشوقون فى هذه السنوات إلى تكوين فكرة جلية واضحة ، وسط المشاكل المتتالية فى هذا العالم المضطرب . وفى العدد الأخير من هذه المجلة (عدد يونيه) مذكرات الشهر التى تكتبها هيئة تحرير المجلة . وفيها تناول للأزمة الحكومية بايطاليا ، ثم كلام عن مؤتمر العلاقات الآسيوية الذى دعا إليه البنديت نهرو فى دلهى الجديدة . وقد أشار الكاتب إلى أن البنديت نهرو ذكر فى خطبته الافتتاحية أن هذا المؤتمر هو نقطة تاريخية فى تاريخ هذه القارة . وقد يكون هذا القول وصفاً مغالى فيه ، لمؤتمر ذكر أنه يقتصر على المسائل الثقافية ، ولكن الكاتب يرى ألا نعتبر هذه العبارة مجرد قول خطابى . فالمؤتمر بلا شك حادث مهم فى تاريخ آسيا ؛ وليس ذلك بسبب الموضوعات التى بحثها ، ولا النتائج التى وصل إليها ، بل لمجرد إمكان عقده ، وتمثيل جميع الدول الآسيوية فيه . ثم تكلم عن اللجنة المشتركة بين الولايات المتحدة وروسيا التى تنظر فى إنشاء حكومة وقتية لكوريا .

وفى هذا العدد ملاحظات ونظرات كتبها مراسل كان موجوداً أثناء انعقاد مؤتمر موسكو .

وفيه بحث عن الاتحاد الاقتصادى بين البلجيك وهولانده ولكسمبرج . وعالج كاتب آخر الحالة فى جنيف المدينة السويسرية التى كانت موئل جمعية الأمم ، وما كان من اتخاذ قصر هذه الجمعية مكاناً للمكتب الأوربى لهيئة الأمم المتحدة ، مما يعيد إلى هذه المدينة شيئاً من نشاطها الدولى السابق .

وفى العدد أيضاً بحث عن الحركة الوطنية فى الهند الصينية ، وهو بحث قيم كنا نود أن نأتى له بخلاصة وافية ، ولكن آثرنا عليه بحثاً آخر عن الحالة فى ألمانيا وتأثير مؤتمر موسكو فيها .

سكروتنى Scrutiny

أما مجلة « سكروتنى » الانجليزية ، التى تصدر كل ثلاثة أشهر ، فهى مجلة جدية ، تنصرف إلى الأدب الخالص ولا تعالج موضوعات أخرى ، إلا من الوجهة الأدبية الثقافية . وفى عدد الربيع وهو آخر عدد صدر من هذه المجلة بحث للناقد الانجليزى هـ . ا منسون عن أندريه مالرو وناقديه ، وهو بحث طريف ككل بحوث هذا الكاتب فى الأدب الفرنسى . وقد نشر مستر بانتوك بحثاً عن النتائج الثقافية لوضع نظم للتفكير ، وهو عبارة عن نقد لبحث نشره الأستاذ كارل مانهيم عن معنى تعميم الثقافة فى هيئة اجتماعية تقوم على الشعب . وفى هذا العدد بحث للناقد مستر ليفس عن القصة كقصيدة مسرحية ، وفيه بحثان عن هنرى جيمس الأديب القصصى الأمريكى .



الباب الضيق

تأليف أندريه جيد

تعريب نزيه الحكيم

مع رسالة من أندريه جيد الى المترجم
ورد طه حسين الى أندريه جيد

« ترجمة كتبى الى لغتكم ؟ . . . الى أى قارىء يمكن أن تساق ؟ وأى الرغبات يمكن أن تلبى ؟ ذلك أن واحدة من الخصائص الجوهرية فى العالم المسلم فيما بدا لى ، أنه وهو الانسانى الروح يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة . أمخطىء أنا ؟ »

أندريه جيد

« لم تخطىء أنت ، وإنما دفعت الى الخطأ . لقد خالطت كثيراً من المسلمين ولكنك لم تخالط الاسلام . . . فلو قد تعمقوا الدين تعمقاً دقيقاً لأظهروك على ما يثير القرآن من مسائل وما يعرض لها من جواب . »

طه حسين

[من مقدمة كتاب « الباب الضيق »]

١٤٦ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٢ مليما)

جنة على نهر العاصي

تأليف موريس بارس
عضو المجمع اللغوى الفرنسى

تعريب محمد عبد الحميد عنبر
وعبد المجيد عابدين

غرام أقرب إلى العبادة ومغامرات أقرب إلى الأحلام على ضفاف نهر العاصى حيث تملأ السواقى بأنينها أجواز الفضاء .

١٦٦ صفحة
الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٦ مليما)



ثمن الجزء ٣٠ قرشاً (بريد الجزأين ٤٠ م)

المقامر

تاليف فيدور دستويفسكى

تعريب شكرى محمد عياد

قصة شاب ممتحن بداء القمار لقى من هذا الداء فى حياته شراً عظيما . وهى قصة عنيفة تستأثر بحاجة القارىء إلى الاستطلاع .

١٦٩ صفحة
الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٦ مليما)

الحب الأول

تاليف إيفان ترجنيف

تعريب محمود عبد المنعم مراد

قصة ساذجة تصور قلب شاب ناشىء يندفع إلى الحب فى غير احتياط ولا تحفظ وما يصيبه من يأس حينما يعلم أنه كان يحب عشيقة أبيه .

١٠٤ صفحة
الثمن ١٥ قرشاً (البريد ١٢ مليما)

تحت الطبع

سافونارولا

قصة الراهب الثائر والمصلح الديني والسياسي والاجتماعي

للدكتور حسن عثمان

الضحك

للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون

تعريب سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم

غانية أطلنطا

قصة رائعة للكاتب الفرنسي بيير بنوا عضو المجمع اللغوي الفرنسي

تعريب رشدي كامل

عقدة الافاعي

قصه تحليلية لفرنسوا مورياك عضو المجمع اللغوي الفرنسي

تعريب نزيه الحكيم

قصة رجل مجهول

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

تعريب محمود الشنيطي